جيلبرت سينويه

صمت الآلهة

ترجمة

شكير نصرالدين

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

صمت الآلهة

رواية

ترجمة

شكير نصرالدين

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: صمت الآلهة

جيلبرت سينويه روائي فرنسي، ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر أولاً ثم أكمل دراساته الموسيقية بباريس حيث تحصّل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل الروايات التالية: ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان، (١٩٩٩)؛ المصرية، (٢٠٠٥)؛ اللوح الأزرق، (٢٠٠٦)؛ ابنة النيل، (٢٠٠٧)؛ اخناتون، الإله اللعين، (٢٠١١)؛ انا يسوع، (٢٠١٢)؛ يريفان، (٢٠١٢)؛ الفرعون الأخير، (٢٠١٢).

جيلبرت سينويه: صمت الآلهة، ترجمة: شكير نصرالدين

Gilbert Sinoué: Les Silences de Dieu

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

كل شبه بأشخاص موجودين أو قد وجدوا فعلاً
هو من قبيل الصدفة البحتة.
الإله.

١

«هبطت الدرجات المؤدية إلى الطابق السفلي بأسرع ما يتيحه لها كبر سنها.

حينما وصلت أسفل السلم، تلمست لبضع لحظات علَّها تعثر على الواصل. لم يحدث أبداً أن استغرق الأمر للوصول إلى الزر الصغير المشع كل تلك المدة. كأنها أبدية.

وأخيرا غمر النور الصالون.

ـ مَن هناك؟ سألت بصوت تلوح منه الصرامة، لكنه لا يكاد يخفي حيرتها.

لا نأمة.

ـ من هناك؟

كانت اللهجة أقل يقيناوالنبرة تترنح.

سارت بضع خطوات.

حينذاك رأته.

رجل ممدد سوية الأرض قرب باب المدخل. كانت تستطيع سماع زفراته.

وهي تدنو منه، كبحت رجفة: هجم هواء الليل الصقيعي على

الحجرة. رغم أنها كانت قد أغلقت جميع النوافذ قبل ذهابها للنوم. كانت متأكدة من ذلك جيداً.

الآن، متران أو ثلاثة أمتار تفصلها عن المائت: إذ بدون شك، كان الرجل يحتضر. همهمت:

ـ ما... ماذا تصنع هنا؟

وعلى الفور أدركت أن سؤالها لا يليق بالمقام.

كانت حنجرته مقطوعة بالتحديد أسفل عقدة الحنجور. دمه يسيل منقذفاً على نحو متقطع، مخلفاً بركة أرجوانية على السّجّادة.

مكابرة هلعها واشمئزازها، جثت بالقرب منه. كان الجرح غائراً.

لا بد أنه استشعر حضورها. دبّت الحياة في شفتيه. حاول النطق بكلمة ولم يسعه ذلك.

ـ لكن ماذا تفعل هنا بحق الجحيم، راكعة على ركبتيها ببلاهة؟

هرعت نحو الهاتف...».

توقفت كلاريسا غراي عن الإملاء وتقدمت صوب النافذة المطلة على البحر.

في البعيد يرتسم طيف جزيرة ليندسفارن الصغيرة، طيفٌ له لون صدأ النحاس. الجزيرة المقدسة. منذ ما يناهز عشرين سنة وهي تعيش في اسكتلندا، هنا، في **لأمَلاش**، وهذا المنظر يدخل عليها الطمأنينة. منظر يمثل النظام والسكينة واليقين بأن كل شيء موجود في مكانه المناسب.

ـ يكفي هذا اليوم، قالت مخاطبة الفتاة الشابة الجالسة خلف الحاسوب المحمول. لقد ضاع مني حبل الحكاية.

ألقت نظرة خاطفة إلى ساعة معصمها:

ـ ثم إن الوقت يقارب السادسة مساءاً. سوف تتأخرين.

ـ أوه! لا تشغلي بالك مسز غراي، ليس هناك أكثر من خمسة أميال تفصلنا عن برودِيك. إن أفلتُ العبَّارة عند السابعة، أستطيع الوصول قبل مجيء التي بعدها. إنَّ لدراجتي جناحان.

سجَّلت عملها وأطفأت الحاسوب:

ـ مسز غراي، هل تسمحين لي بإبداء رأي؟

ـ أعرف: لا يبدو لك المشهد معقولاً.

ـ قطعا لا. بل على العكس.

ـ لكن...؟

كانت نبرة من الخوف تستشف من صوتها.

ـ أمر عجيب! أنت واحدة من كتاب الرواية البوليسية الأكثر مقروئية. مسرحياتك تعرض في سائر بلاد العالم. أصدرتِ أكثر من خمسين مؤلفا. كم بعتِ منها؟ مائة، مائتا مليون نسخة؟

ـ ثم...؟

ـ ثم رغم ذلك النجاح الواسع، أشعر بأنك دائماً على القدر نفسه من القلق. لماذا؟

ـ لأني قلقة بالولادة. غصة تلف حلقي لسبب ولغير سبب. حتى افتراض أن السُوفْلِيه قد يفيض على الجانبين يجعلني في أسوأ حالاتي.

سدت يديها علامة المستسلم للقدر:

ـ لا يستطيع المرء تبديل نفسه. ليس في سن الثالثة والسبعين على أية حال. وسوف أضيف، صغيرتي **كاتلين**، أنك ما كنت لتبدين هذه الملاحظة لو أنك تعلمين ما هو الإبداع. اغفري هذه الصورة

المسكوكة: إنه يجد منبعه في القلق، ويكبر في الحيرة، وينتهي في الريبة. أنا متأكدة بأن الرَّب بنفسه قد عبر هذه الحالات النفسية؛ وذلك ما يفسر أنه في اليوم السابع شعر بالحاجة إلى الراحة.

ـ لقد كان للرب عذره: تلك كانت محاولته الأولى. بينما أنت، نظراً للسمعة التي تحظين بها، فإن تجربتك ...

ـ التجربة؟ رغم سنوات عمرك الواحدة والعشرين، لابد أنك تعرفين بأن نفس الحدث لا يولد أبداً النتائج نفسها. والأمر سيّان بالنسبة للكتابة.

هرولت إلى غاية الخزانة الخشبية المصنوعة من الأكاجو المسندة إلى أحد جدران الصالون ضمت كؤوساً وغُرافة شِيري وقارورة غلينمور، وسكوتش من خلاصة الشعير المخمَّر. ترددت بين الكحولين، وأخيراً فضلت الشيري:

ـ هل أسقيك؟

أومأت كاتلين بالرفض.

ـ تطور الكلمات أمر غريب حقاً، لاحظت المسز غراي وهي تسكب لنفسها كأساً مصداة. حاولي فهم السبب الذي جعل كلمة كسيريس، التي تنطق بالاسبانية خيريس، صارت بالفرنسية كسيريس، بينما الإنجليزية اتفقت على شيري. غريب أليس كذلك؟

تهالكت فوق الأريكة ذات الأزهار التي تقابل المكتب وتنهدت:

ـ الكلمات. سر الكلمات...

كان مشهداً مثيراً ذاك الذي تمثله هاتان الشخصيتان. من جهة الشباب، ومن جهة أخرى الذبول؛ حياة عند الشفق، وأخرى يلفها الغسق.

وكأنما تلبّسها وحي على حين غرة، سألتها كاتلين:

ـ لم تخبريني أبدا، مسز غراي. لماذا هذا المنفى؟

ـ عم تتحدثين؟

ـ عن وجودك هنا، في آران، على هذه الجزيرة الضائعة باسكتلندا.

عبَر ظلٌّ ناظر الروائية الرمادي الضارب إلى الزرقة:

ـ إنها حكاية طويلة وغير ذات فائدة.

ـ كلي فضول.

ـ الناس دائماً كذلك في سنك. لكني سوف أجيبك بكلمة واحدة: «فُضالة».

ـ المعذرة؟

ـ لقد أخذتُ هذه العبارة عن زوجي المرحوم، عالم أحياء مرموق ورفيق مضجر كان يحب توقيع جمله بكلمات نادرة. بلغة مألوفة أكثر، تلك ظاهرة تخص بعض أنواع الحيوانات التي يكون للأنثى من بينها القدرة على التعرض للحمل من جديد، أيام قليلة قبل الوضع. خلاصة القول: إنه الحمل بجنين جديد، بينما الأول يوجد مسبقاً في بطن الأم.

برّقت كاتلين بعينيها تبريقا:

ـ لا أرى جيداً الصلة بمجيئك إلى الجزيرة.

ـ من باب التوسع، تعني الفُضالة: ما يضاف دون جدوى إلى شيء ذي جدوى. إنه الزائد عن الحاجة، إن أحببتِ. في حالتي، تعلق الأمر بما يفيض عن الحاجة. حينما شارفت على الخمسين، أدركتُ أن حياتي تفتقر اللياقة وعبثية. مؤلفة معترف بها ومشهورة، كنت أقضي معظم أيامي في الرد على طلبات من كل نوع، في إرهاق

نفسي من حفل عشاء إلى آخر، في الاستماع إلى ترهات حول كتبي. باختصار، رأيتني محاطة بمن أسميهم «آكلوا الوقت»؛ مخلوقات وتصرفات لا جدوى لها تلتهم أسبوعاً في خمس دقائق. وعقب ذلك أجبرت على الاختيار: إما متابعة هذا الركض المسعور ولو بالمجازفة في أن أترك أخر جزء من حياتي عرضة للالتهام، أو أضع حداً لهذه... الفضالة.

شربت جرعة من الشيري وختمت بالقول:

ـ وها أنذا هنا، «على هذه الجزيرة الضائعة باسكتلندا».

ـ فهمتُك... لقد هربتِ نوعاً ما.

ـ لا يا عزيزتي. لقد واجهتُ. لم أستسلم للالتهام. وشتان بين الأمرين.

مرت لحظة صمت، ثم نهضت كاتلين:

ـ متى تريدين المواصلة؟ غدا، الساعة نفسها؟

ـ لنقل بعد غد أو فيما بعد خلال الأسبوع. لا أدري. أحتاج للتفكير في حالة موراي. أخشى أن يشك فيه القارئ بأسرع ما يكون.

ـ اتفقنا. لقد بدأت العطلة الصيفية. لدي الوقت كله إذن.

ـ ألم تكن لديك النية لقضاء أسبوع في برشلونة؟

ـ بلى. تعلمين شغفي بالمعمار وبالفن الجديد على الأخص. كنت أود أن أرى عن قرب أعمال غاودي. لكن عزيزي جورج يشدد على مرافقتي ولا رغبة لدي بتاتاً في الوجود صحبته أكثر من ثمانية وأربعين ساعة.

ـ عزيزي جورج. أفترض أنك تقصدين بالكلام صديقك؟ هل من مشاكل؟

ـ أوه! لا مشكلة حقيقية. صعوبات في الفهم. تذكري، أنا اسكتلندية، وهو إنجليزي. أنا كاثوليكية، وهو بروتستانتي. ذلك يعني كل شيء...

ـ فهمتك. لكنك مغرمة. المرأة المغرمة تكون متسامحة، عموماً... حتى مع إنجليزي.

افترّ ثغر كاتلين عن ابتسامة ماكرة:

ـ هل أنا مغرمة أم لست كذلك؟ تلك هي المسألة. لكن هناك غير ذلك. جورج لا يعيش إلا عبر حبه للدراسة، الرياضيات على الأخص. في نظري، أكبر قصة حب لن تثيره مثلما يفعل جدول الخوارزميات. وأنتِ؟ هل من مشاريع للسفر؟

أفلتت السيدة غراي ضحكة صغيرة:

ـ أغادر جزيرتي؟ أغادر اسكتلندا، حتى أجد نفسي محاصرة بحشد من الناس يتصببون عرقاً، ويصم أذني صرير آلات التصوير اليابانية؟ أوه، لا! من فرط حبي لهذا البلد لا أستطيع الذهاب لرؤية مكان آخر. من المحتمل أن أذهب للتجول قليلاً في الهايلاند [المرتفعات].

ـ الهايلاند، مرتفعاتك الحبيبة. بالتأكيد، لا تستطيعين التخلي عنها.

ـ عزيزتي، لا تنسي أن أمي كانت هايلاندية، قحة، خالصة.

دسّت كاتلين الحاسوب في جرابه.

ـ أنا ذاهبة. بداية من الليلة، سوف أنتهي من طبع هذه الصفحات الأخيرة. هل تودين أن أبعث لك بها أو تستطيعين الانتظار حتى لقائنا المقبل؟

ـ لا. أفضل أن أعيد قراءة ما كتبتُ بأسرع ما يكون. تعرفين كيف هي حالي.

ـ اعتمدي علي في ذلك. سوف تتوصلين بها بعد غد على أقصى تقدير.

بعد أن ظلت لوحدها، غادرت كلاريسا غراي الأريكة وانصرفت نحو المكتبة التي كانت تحتل جزءاً من الجدار. بعد لحظة تردد، مدت يدها نحو كتاب، كابحة على الفور صرخة ألم. كم كانت تشعر بالألم يا رب! **اعتلال مزمن في المفاصل ذو مظهر مستفحل**. بهذه العبارات الغريبة أخبرها الطبيب بمرضها، سنتان خلتا، قبل أن يسألها: «أفترض أنك لست من المخلصين للحاسوب؟ ـ لا، أجابته كلاريسا. كنت دائماً أكتب بخط اليد. لماذا؟». تردد بضع ثوان قبل أن يجيب: «للأسف أخشى أن لا محيد لك عن بعض الدروس في المعلوميات. عما قريب، سوف تصبحين عاجزة عن الإمساك بقلم. وإما لن يتم ذلك إلا مقابل آلام لا تطاق. لماذا المعلوميات؟ لأنك تستطيعين دائماً استخدام إصبع أو اصبعين، وإن بهما تشوه، للضغط على زر لوحة مفاتيح. تلك الحركة تتطلب مجهوداً أقل على مستوى السُلاميات. تستطيعين أيضاً إملاء رواياتك. في رأيي، سوف يكون ذلك أبسط ما هو موجود. الكثير من الكتاب، الذين لا نظير لموهبتهم ـ مثل زميلك المرموق بيتر شنيي ـ استخدموا وما يزالون هذه الوسيلة».

ظلت كلاريسا عاجزة عن النطق. إملاء رواياتها؟ هي التي لم تتحمل وجود ظل أي كان قربها أثناء الكتابة! هي التي كانت تعتبر أن في الكتابة ما يكفي من قلة الحياء كي تضيف إلى ذلك تقاسمها مع شاهدٍ ما! لقد كان ذلك الطبيب مجنوناً. «لا بد أن هناك حلاً مغايراً؟

لا تقل بأن الطب عاجز عن ذلك. ـ للأسف لا يمتلك الطب أسلحة أخرى سوى المضادات للالتهاب، والكورتيزونات، ومجموعة من المسكنات». وبينما كانت تهم بالاحتجاج، أضاف: «الجراحة. قد تريحك. لكن واجبي يحتم علي تحذيرك: النجاح غير مضمون ـ توكل على الجراحة!» ردت عليه كلاريسا دون تردد. وقد كان إخفاقا كاملا سرّع من تطور المرض. إلا أن الروائية واصلت صراعها ضد حدود قدراتها الجسدية، وعضت على النواجد، حتى تتفادى ظهور أي دخيل في إبداعها الأدبي. وتبعا لنصيحة صديقها القديم والأوحد، البروفسور وليام ماكلين، اشترت مسجلة للجيب. لكن أن تملي على آلة بلا روح بدا لها بسرعة عديم الإنسانية. أن تسمع نفسها تتكلم في الفراغ، في بيت فارغ... إن في ذلك ما يكفي لإصابتها بالجنون.

هبَّ ماكلين، هو دائما، مرة لنجدتها وقدم لها كاتلين فرغسون، إحدى طالباته: «إنها ساحرة، سوف ترين. وليست بليدة بتاتاً. صحبتها، سوف تكونين على سجيتك». وإذا كانت البدايات متعبة، لا بد لها اليوم الإقرار بأنها تكيفت مع هذه الوسيلة الجديدة في الكتابة، بل يشق عليها أن ترجع إلى عاداتها الأولى. إن التواطؤ القائم بينها وكاتلين ضخ فيها دماً جديداً.

ومقابل مجهود آخر، توصلت كلاريسا إلى ضم أصابعها حول الكتاب وعادت إلى مكانها على الأريكة.

ويستان آشبيري... جريمة قتل في لامبير هاوس.

ها قد مر وقت طويل على آخر عهد لها استسلمت فيه لقراءة رواية بوليسية. كانت ترى أن هذا الجيل الجديد من الكتاب يفتقد للخيال وعلى الأخص للتبصر. منذ الصفحات الأولى تنكشف للعيان هوية القاتل. صبيانية. لا، إذا كانت قد عزمت على شراء آشبيري، فذلك

فقط بسبب ذلك النقد الذي نشر أسبوعاً من قبل في **الستورنوي غازيت** حيث تم تشبيه المؤلف بالعظيمة... كلاريسا غراي.

لبست نظارتيها، واستقرت على نحو وثير وشرعت في القراءة. ساعة بعد ذلك، لم يكن الافتتان المأمول في الموعد. أن يتجاسروا على مقارنة هذه الكتابة بالتي لها؟ هذا اللغز الخالي من كل غرابة، هذه الشخصيات الباهتة بأبطال كلاريسا غراي؟ التجرؤ على عقد موازنة هذا المحقق القزم بالعملاق آرشي رودنبار؟ مهما يكن! لتقديم مثل هذه المقاربات، لا بد أن ناقد ستورنوي غازيت فاقد للأهلية شأن ويستان آشبيري ذاك!

بدرت إيماءة عُجب من شفتي السيدة العجوز.

دقت الساعة الحائطية ثماني مرات. حان الوقت لتعد عشاءها. نهضت، صبت لنفسها كأسا أخرى من الشيري وتوجهت صوب المطبخ.

جالسة في فراشها، عنقها مسند إلى وسادتين رخوتين، أعادت قراءة سونيتة **جون كيتس** بالجهر. الجمال في طبيعته الخالصة. آه! لو أمكنها الاستسلام لشغفها الآخر: الشعر. لكن هل كان قراؤها سيتبعونها؟ الكتابة باسم مستعار؟ لقد فكرت في ذلك: ماري ويستماكوت. كانت الفكرة مغرية. ألم يلجأ العديد من الكتاب لهذه الحيلة؟ لكن كلاريسا كانت تعتبر أن ذلك مفرط في السهولة. الفوز بمباغتة العدو من خلف؟ أفّ، لن يرضيها ذلك في شيء.

ستكون شاعرة في حياة أخرى.

وضعت الديوان على منضدة سريرها، أطفأت النور ورفعت اللحاف إلى مستوى ذقنها.

Tomorrow is another day...[1]

أطبقت جفنيها وركزت على صورة سكارليت أوهارا...

صدى صرير باب يخرق الصمت فجأة. فزعتْ.

المنبه يشير إلى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة.

لص؟ في بيتها؟ هل ذلك ممكن؟ لا بد أنها كانت تحلم.

انتظرتْ، وتحسبتْ من إحداث أي جلبة وكأنها تخشى إخافة الدخيل.

سُمِع وقع الباب من جديد، بعنف أشد هذه المرة.

لم يعد هناك أي شك ممكن. هناك شخص ما بالبيت.

والقلب يرجف، لبست قميص النوم بسرعة وخرجت بحذر. توقفت لحظة، ثم هبطت الدرجات المؤدية إلى الطابق السفلي بأسرع ما يسمح به كبر سنها. حينما وصلت أسفل السلم، تلمست لبضع لحظات علها تعثر على الواصل. هل هي رعشة يدها؟ لم تتذكر أبداً أن استغرق الأمر للوصول إلى الزر الصغير المشع كل تلك المدة. كأنها أبدية.

وأخيراً غمر النور الصالون.

ـ مَنْ هناك؟ سألت بصوت تلوح منه الصرامة، لكنه لا يكاد يخفي حيرتها.

لا نأمة، ما خلا مد وجزر الأمواج المعذّب وهمس الريح الواهنة.

ـ من هناك؟

---

(١) بالإنجليزية في النص. غداً يوم جديد.

كانت اللهجة أقل يقيناً. مترددة.

سارت بضع خطوات.

حينذاك رأته.

رجل ممدد سوية الأرض قرب باب المدخل. الآن تستطيع سماع زفراته.

وهي تدنو منه، كبحت رجفة: هجم هواء الليل الصقيعي على الحجرة. رغم أنها كانت قد أغلقت جميع النوافذ قبل انصرافها إلى غرفتها. كانت متأكدة من ذلك جيداً.

همهمت:

ـ ما... ماذا تصنع هنا؟

وعلى الفور أدركت أن سؤالها لا يليق بالمقام.

كانت حنجرة الرجل مذبوحة بالتحديد أسفل عقدة الحنجور. دمه يسيل منقذفاً على نحو متقطع، مخلفاً بركة أرجوانية على السّجّادة.

رأت عبر الغبش بأن رأسه كان أقرعا تقريباً، ووجهه كامد اللون، عيناه جاحظتان، والجبين القصير تخترقه ندبة قديمة العهد، طولها بضع سنتمترات.

مكابرة هلعها واشمئزازها، جثت بالقرب منه. لابد أنه استشعر حضورها، لأن الحياة دبّت في شفتيه. حاول النطق بكلمة ولم يسعه ذلك. لكن ماذا تفعل هنا، راكعة على ركبتيها ببلاهة؟ بسرعة! طلب سيارة الإسعاف. أرادت أن تنهض، لكن يد الرجل أمسكت معصمها. ليست ملامسة هذه اليد هي ما أصابها بالذعر، بل قوته العجيبة. لم يسبق لها تخيل أن مخلوقاً على شفير الموت يستطيع امتلاك كل ذلك القدر من الطاقة.

تحركت شفتا المحتضر مجدداً. على وجهه ترتسم الآن عبارة التوسل. كلا. التماس.

غمغمت:

ـ سوف... اهدأ. سوف أتصل بالهاتف. سيارة إسعاف...

سعت إلى التخلص منه؛ هذه المرة أيضاً أمسك بها. غريق. كان له رد فعل الغرقى الذين يحاولون التشبث حتى برؤوس الأمواج.

ألحّت:

ـ أرجوك.

وبمثابة جواب، نقل يده الأخرى نحو جيب سترته وأخرج منه مستطيلاً كرتونياً صغيراً ناولها إياه بإيماءة متوسلة. أمسكته دون سعي منها للفهم.

حينها فحسب أرخى قبضته وأمكنها الاندفاع صوب الهاتف.

٢

ـ بما أني أقول لك إن لدي جثة في الصالون! يجب أن تصدقني!

تناهى إلى سمعها على الطرف الآخر حديث أصوات مكتومة. طُلِب منها الانتظار أكثر، ثم:

ـ حسناً، مسز غراي. هدئي من روعك. نحن قادمون.

أقفلت السماعة، بغضب. بحق الجحيم، لماذا يظهر ستيوارت المعتوه تلك الريبة!

ظلت مرعوبة قرب السماعة ولم تجرؤ على العودة إلى حيث الجثة. ما وقع يتجاوز إدراكها. زد على ذلك أن يحل غريب ببيتها في عز الليل كي يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ لكن هذا المشهد، لقد وصفته في اليوم السابق! لقد أملته على كاتلين بأدق تفاصيله. هل أصبحت مجنونة؟ هي التي لم تهتم أبداً بحكايات التنبؤ تلك، يبدو الآن أن هناك من يبلغها بأشد ما يكون الجزم بأنها كانت مخطئة في عدم تصديق ذلك.

كان يجب عليها أن تسقي نفسها مشروباً مقوياً إن أرادت أن لا تصاب بالوهن.

سكبت لنفسها ربع كأس من الغلينمور وشربته دفعة واحدة تماماً واستسلمت لانبعاثات المرتفعات المألوفة، لأبخرة الخُث، لعبق الخشب النيئ؛ ومنْ حسنات ذلك أن هدأ قليلاً من الاحساس بالهلع

الذي تملكها. بعد أن صحت على نحو مبهم، انصرفت نحو المطبخ، جلست على مقعد لا مسند له، يداها على فخذيها، وترقبت وصول الشرطة.

حينما رن جرس باب المدخل، يخال المرء أنه عويل نهاية العالم.

باب المدخل ...

لبثت مكانها.

كلا! ذلك غير ممكن!

لم يعد هناك من جسد. ولا جثة!

لا أثر للدم على زاوية السجادة التي كانت ما تزال ملطخة به، بضع دقائق من ذي قبل.

رنّ الجرس بإلحاح أكبر. لم تكن تسمعه. لم تكن تسمع شيئاً، لم تكن ترى شيئاً غير تلك السجادة العارية، النقية، التي كانت تخدش فطرتها السليمة.

مع الرنة الثالثة، انتبهت من الغشية التي انتابتها وقررت فتح الباب.

غمغم المفتش **طوماس ستيوارت** كلاماً غير مفهوم ودخل، يتبعه العميل **ويشار**:

ـ إذن... أين هي؟

ـ نظراً لخرسها، أعاد سؤاله.

دائماً لا ردة فعل.

ـ مسز غراي! هل كل شيء على ما يرام؟ لم تتعرضي لمكروه؟

اكتفت بهز رأسها.

ـ إذن، استرسل ستيوارت وهو يراقبها من علو قامته ذات المتر وتسعين سنتمتراً، أين هي الضحية؟

أشارت كلاريسا إلى السجادة، بسحنة مكسورة:

ـ هنا. هناك.

قطَّب المفتش حاجبيه.

ـ مسز غراي، إنك لم تستوعبي جيداً سؤالي: أين هي الضحية؟

بمثابة جواب، دارت الروائية على عقبيها، وانهارت فوق أريكة الصالون. يخيل للمرء أنها دمية وقد فُكِّت من خيوطها.

ـ مسز غراي، قال العميل ويشار حائراً، هل أنت متأكدة بأن كل شيء على ما يرام؟ هل تودين أن أستدعي لك طبيباً؟

أومأت أن «لا»، مؤكدة رفضها بحركة رخوة.

أمر طوماس ستيوارت تابعه:

ـ تحقق من جميع الغرف. فتش كل زاوية. وتابع محدثاً كلاريسا:

ـ هل تستطيعين أن تشرحي لي ما يحدث؟ لقد قمتِ بالإخبار عن جريمة قتل، أليس كذلك؟

وافقته.

ـ جيد. الحديث عن جريمة قتل يعني الحديث عن جثة. إذن؟ هل هي في غرفتك؟ في القبو؟

كاد أن يضيف: «في فراشك؟» وأمسك عن ذلك في آخر لحظة.

أجابت بطرف شفتيها بالنفي.

ـ المطبخ؟

ـ لقد أخبرتك بكل شيء في الهاتف. كانت هنا! لقد رأيتها. كان

رجلاً شارف على الأربعين، أقرع تقريباً. عيناه جاحظتان. ندبة تخرق جبينه، كانت حنجرته مذبوحة والدم يسيل من جرحه. لقد كان هنا حقاً!

فتش ستيوارت جيوبه وأخرج مفكرة عليها كتب:

ـ رجل في حوالي الأربعين، ندبة، أقرع الرأس...

انصرف نحو المدخل، وضع ركبة سوية الأرض، مرر كفه على سطح السجادة، رفعها، فحصها من كل ثناياها، وعاد أدراجه.

ـ أعذريني، مسز غراي. لا أرى أدنى أثر للدم.

سألها من باب الشكليات أكثر منه للتأكد:

ـ هل أنت على يقين حقاً بأن الجسد كان بهذا الموضع؟

عينه المتفحصة التقطت أثناء ذلك الكأس شبه الفارغة المتربعة على المنضدة.

رفعها واشتم ما فيها.

لقد شربت. سكوتش علاوة على ذلك.

ظهر العميل ويشار مجدداً عند عتبة الصالون:

ـ لا شيء هناك. لقد تحققت من المكان كله.

أومأ إليه المفتش بإشارة مفهومة من اليد يمكن ترجمتها بالعبارة «دع عنك ذلك».

منحنياً على كلاريسا، همس بنبرة البالغ الذي يحدث طفلاً:

ـ هل تعلمين أنك غير رزينة؟

أشار إلى قاع الغلينمور:

ـ هل تناولت العشاء على الأقل؟ تعلمين جيداً أنه لا ينبغي شرب الكحول والبطن فارغ.

ـ هل تظن أني سكرت؟ إذا كان الأمر كذلك، دعني أخبرك بأنك لا تسلك الطريق الخطأ فحسب، أيها المفتش ستيوارت، بل أجد في تلميحك سُبة لي على نحو لا يصدق!

ـ لا تخامرني فكرة أن أبدو فظا معك، مسز غراي. ينبغي الإقرار رغم ذلك أن هذه القضية ـ سعى للعثور على الكلمة المناسبة ـ غريبة. تتصلين بنا وأنت مرعوبة، تقولين إن هناك رجل في صالونك، إنه يحتضر. وماذا وجدنا؟

ـ أكرر لك أني رأيته!

ـ جيد جداً. لنفترض أني لا أريد سوى تصديقك: تفضلي علي بتفسير. أنا أنصت إليك.

ـ تفسير؟ تعرف حقاً لو أن لدي واحداً، لم أكن لأمتنع عن عرضه عليك. يصعب علي فهم الأمر. إنه كابوس. حكاية مجانين!

ـ لستُ من يدفعك لقول لذلك.

سألها، متظاهراً بأنه غير محرَج:

ـ ماذا تكتبين حالياً؟ هل لديك رواية جديدة في الطريق؟

أكدت قوله.

ـ حكاية جريمة قتل، أفترض.

ـ بالطبع. لا أجيد كتابة غير ذلك.

باغتت عينه التي ترمق شزراً رواية آشبيري.

ـ كلا، حضرة المفتش! لست ضحية خيالي! لست في غمرة

الهذيان الإبداعي، لم أشيِّد أبداً كُتبي على توهمات لا تليق. إنني لا «أمثل» سيناريوهاتي للتحقق من نجاعتها.

قالت الكلمات بتفخيم:

ـ لقد كان هناك بحق شخص غريب يحتضر في بيتي.! وكانت حنجرته مذبوحة بحق! ولستُ سكرانة.

ـ هذا الرجل أتى إلى هنا راجلاً إذن. لم نر أية مركبة أمام البيت.

ـ ما دمتَ تقول ذلك.

صاح المفتش في اتجاه تابعه:

ـ ويشار! من باب إرضاء الضمير، قم بدورة على محيط البيت وانتظرني في السيارة، لن أتأخر عنك طويلا.

وهو يشير إلى كرسي، التمس الإذن بالجلوس.

بصدره وكتفيه اللذان للاعب الكرة المستطيلة، وفكه المربع، كان ستيوارت يذكر بثور على وشك الهجوم. وبقدر ما كان يبدو مهيباً كانت هيئته تتعارض وهيئة الروائية. لابد أن قامة كلاريسا لا تتجاوز متراً وخمس وستين. نحيلة، نحيفة، مفرطة في النحافة. شعرها مقذذ قصير، أبيض بالكامل. الوجه محروث بالتجاعيد. مظهر يبدي هشاشة ينمحي بسرعة حالما نلاقي النظرة الرمادية الخضراء. البريق الحي والحازم المشع منها يمنع التقليل من شأن قوة الشخصية.

ـ مسز غراي، إننا نعرف بعضنا منذ ما يقارب عشر سنوات. حينما تم تعييني بلاملاش، لم أكن أتصور للحظة أني سوف أكون محظوظاً بلقائك. هل ينبغي أن أكرر مقدار إعجابي بك؟ تعلمين ذلك. كنتِ، وما زلتِ دائماً، كاتبي المفضل. ليس هناك واحدة من رواياتك...

ـ هيا، حضرة المفتش، أرجوك! أدخل صلب الموضوع. لا داعي

لمجاملتي. ليس لأنك تصغرني بعشرين سنة فذلك يوجب عليك أن تعاملني كعجوز مبجلة. كن مباشراً. بذلك نوفر علينا الوقت.

واصل دون أن يهز ذلك ثقته:

ـ لا أريد مجاملتك ولا الهجوم عليك. أنا منشغل فحسب بشأنك. لا يمكنك الاستمرار في العيش في هذه العزلة. منكمشة في هذا البيت، تراقبين العالم مثل العسس من أعلى دورية المراقبة. ذلك غير سوي. إن ذلك يؤثر على صحتك.

ـ العقلية... فهمت القصد. لا داعي للتوسع.

أحدَّتِ النظر إليه.

ـ ولو أنني قد أظهر أنك على خطأ، دعني أقول لك ما يلي: إني أعيش الحياة التي اخترتها. إنها تسعدني. لقد استعدت سكينتي في اليوم الذي قطعت فيه الصلة بالمزعجين. اعلم أيضاً ـ وهنا أقتبس عباراتك ـ أنني لا أراقب العالم مثل العسس للسبب الوجيه أن العالم لا يهمني. وهل سبق أن همني أمره أبدا؟ (ثم استدركت:). بلى. حد الشغف. لكن حدث ذلك منذ أمد بعيد جداً. هل كان كلامي واضحاً؟

ـ واضح جداً. الآن تتفقين معي أني لا أستطيع فعل شيء غير كتابة تقرير. سوف أحتاج إلى شهادتك. إن سنحت لك فرصة، سوف يكون ذلك لطف منك إن حضرت إلى المفوضية.

ـ إنك ترزح تحت الأطنان من الأوراق. ما جدوى إضافة أخرى إليها؟ دع عنك ذلك.

ـ أنا آسف، إنها القواعد الجارية. (نهض من مكانه). إني أعول عليك. أرجو سيدة غراي، اهتمي بنفسك.

صُفق الباب. وظلت لوحدها في الصالون. إنها الساعة الثالثة سلفا.

ما الذي حل بها؟ هل من الممكن أن مع التقدم في السن عقلها تعرض للوهن؟ تخصيص حياتها لتخيل مشاهد القتل والقتلة لن يمر بدون عواقب إذن؟

فحصت معصمها، عند الموضع الذي أطبق عليه الرجل بأصابعه.

رؤية مقرونة بإحساس بالألم؟ لقد أحست حقاً بالضغط على بشرتها. صرامة القبضة. ربما عليها استشارة الدكتور **بوثويل**. من يدري؟ قد يكون في إمكانه تقديم تفسير «علمي» لهذه القضية. أخرجت نفسها من الأريكة وصعدت إلى غرفة نومها.

نعومة اللحاف أدخلت عليها الطمأنينة قليلاً. أطفأت النور. النوم. لابد لها من النوم. غدا سوف ترى الأشياء بوضوح أكبر.

جفناها مطبقان، سعت جاهدة لتركيز ذهنها على صور ممتعة... أحصنة مندفعة تعدو في مرتفع **كالودين**، بريق البحيرات حبيسة الأراضي المرتفعة. أخضر الفضاءات الزمردي؛ حقول الأرض الخثة التي تهدهدها الرياح. دون جدوى. ذكرى الرجل تحتل المكان بإفراط. الجرح المفتوح لم يكن يتوقف عن إفراغ دمه. وتعابير الوجه! أي يأس ينضح منها! يأس ورعب!

فجأة جلست. المستطيل الكرتوني الصغير! إنها ترى من جديد حركته بوضوح. بينما كانت تحاول التخلص منه، ناولها المحتضر ورقة كرتون صغيرة. ماذا صنعتْ بها؟

تناولت قميص نومها وفحصت الجيبين الجانبيين، وقد اندهشت لكونها تدعو جهراً، هي التي لم ترفع صوتها بالدعاءأبداً.

خدشت يدها الصغيرة الثوب. عقب الحمى جاء الغضب الشديد. لاشيء! كان الجيبان فارغان.

ذلك غير ممكن! لقد أمسكته حقاً، أصابعها ما تزال تحتفظ بأثر السطح شبه الصلب.

لابد أنه موجود في مكان ما في الصالون أو في المطبخ.

هبطت الدرجات من جديد، لبست نظارتيها وتفحصت الأرضية بداية من باب الدخول.

استعرضت من جديد وللمرة المائة كل تفصيل من المشهد. حالما تخلصت من يد المحتضر، هاتفت الشرطة. أجل ذلك ما كان.

انتقلت إلى غاية المنضدة الصغيرة التي وضع عليها الهاتف. كانت عيناها تؤلمانها من شدة التحديق في كل مليمتر من السجادة. لاشيء.

ثبتت مكانها وأعادت إلى الخلف مرة وأخرى خيط ذاكرتها.

ماذا فعلت بعد إغلاق السماعة؟

شراب مقوي! كانت قد شعرت بحاجة إلى مقوي. انطلقت نحو المرفع حيث رُتِّبَت القوارير.

كانت ورقة الكرتون هناك بين كأسين! لا بد أنها أفلتت من يدها المعطوبة، ما لم تكن قد وضعتها لتسقي نفسها. كادت تصرخ من شدة الفرح. لم تكن مجنونة. لم تحلم بشيء. أمسكتها بما يكفي من الحيطة وكأن الأمر يتعلق بشيء حارق.

إنها تذكرة صندوق للودائع.

سوَّت نظارتيها وقرأت ما كتب بحروف صغيرة بارزة: «ميناء بروديك». ثم رقم: «٤٧».

٣

بالكاد كانت الشمس تشرق حينما تجاوزت ساوث كورغليس. زادت من سرعتها، تقارب السرعة المحدودة المعمول بها. ثلاثون ميلاً.

فوق البحر كانت تزحف غيوم الفجر الأولى.

أثناء عبورها لاملاش، صادفت القس الذي كان يسقي العشب قبالة الكنيسة. لوَّح لها بيده، لكن لا بد أنه تساءل كثيراً حينما رآها تغادر في مثل هذه الساعة الباكرة.

شهقت السيارة بينما كانت تسير على طول **ستارتويلان**. انتفضت بعض الشيء، سعل المحرك بشدة، محدثاً صريراً في الصفائح المعدنية. منذ خمسة عشر سنة تقريباً وهي تجر هذه الـ Triumph القديمة عبر طرقات اسكتلندا. يوما من الأيام، عليها أن تقرر استبدالها بسيارة أخرى جديرة بهذا الاسم.

كان رصيف السفن في مرمى البصر. دخلت عبّارة بألوان الكالِدونيان ماكبرين إلى المرفأ.

ركنت سيارتهاوانطلقت للبحث عن خدمة الودائع. ما الذي سوف تجده؟ أداة الجريمة؟ حقيبة مليئة بملابس مجهولة الشخص؟ جثة أخرى مقطعة إلى أجزاء؟

مسيطرة على اضطرابها، استعادت صوتها الطبيعي أكثر للمناداة على المكلف وناولته التذكرة.

مضت الدقائق. قرونا. ألقت نظرة ساهمة نحو فم العبّارة المفتوح التي أخذت تلفظ سيلها من السيارات. هكذا هي الأمور على مر الأعوام. في الأيام الأولى من شهر حزيران تتأهب حشود السياح لغزو **آران** .حيث سوف يتصدى متسلقو الجبال لقمم **غووت فيل** الوعرة. هواة الغولف، مسلحين بعصيهم، سيملؤون حدَّ الشبع نصف دزينة الملاعب التي تغطي الجزيرة. لم تكن كلاريسا تدرك سر البهجة التي يشعر بها المرء جراء قذف كرة داخل حُفَر لا يتجاوز قطرها مائة مليمتر، في مساحات مليئة بالعقبات الملتوية.

لقد سعى البروفسور ماكلين، وهو عاشق لهذه الرياضة، إلى جعلها تعشق لطائف جمال كلمات مثل «البَار والبيردي والإيغل» أو حتى عبارة «ألباتروس» السامية الجمال والتي تتمثل ـ وتلك ضربة حظ خارقة ـ في جعل الكرة تدخل مباشرة في الحفرة. وبعد أن أعيته الريبة البادية عند صديقته، تراجع ماكلين. ومنذئذ صار الموضوع محرماً.

ـ ها هو...

برّقت بعينيها. توقعت أن تجد حقيبة، محفظة، شيء مشابه لذلك يتناسب وهذا المكان، وها هو يناولها وعاء، وعاء نحاسي اللون من جلد السويد. شكله مربع بالأحرى، مشدود بحبل مطاط، بالكاد كان يفوق راحة يد رجل.

ـ إذن؟ أليست في ملكيتك؟

ـ بلى، بلى.

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ أجل، همهمت كلاريسا. ليس هناك أي خطأ.

تفحصها المكلّف والحذر بادي عليه بينما كانت تنصرف نحو سيارتها.

وهي تمشي، أخذت تتلمس الغرض بخشية الأعمى، وكأنما في لهفتها كانت تأمل أن تكشف لها أصابعها المعطوبة محتواه. بغتة، أدركت أنها لم تهاتف المفتش ستيوارت لإخباره عن اكتشاف التذكرة. ذلك أسوأ. أو هو أفضل. منذئذ صارت قضيتها. كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن الرجل لم يأت للموت بالصدفة تحت سقف بيتها: وإلا، لأي سبب عهد لها بالتذكرة؟ آه، لقد ظن ستيوارت أنها مجنونة؟ كانت ثملة؟ سوف تبرهن له إلى أي حد كان مخطئاً في تحقيرها. ولن تندم على ذلك البتة.

ما إن استقرت خلف المقود حتى جعلت الحبل المطاط يزلق في ممره ثم فتحت الوعاء.

مفكرة...

كان الغلاف من الجلد هو الآخر، لكنه موشى بصفائح تزينها زخارف هندسية محفورة. لا وجود لأي عنوان على الصفحة الأولى.

الورق. لكن هل كان ورقا؟ خشن، سميك على نحو غير عادي، له صبغة أقرب إلى الصفرة منها إلى البياض.

ورقة مطبوعة، مطوية على ثنيتين، أفلتت منه.

Androssan - Brodick. Last check - in 30 min before departure. Sailings to and from Edinburgh. Glasgow central. All tickets to be purchased before boarding on vessel.. (1)

---

(١) بالإنجليزية في النص: بالنسبة للوجهة أندروسان - بروديك. آخر أجل للتسجيل محدد في ٣٠ دقيقة قبل الانطلاق. الإبحار من وإلى إدنبره. غلاسكو سنترال. اقتناء التذاكر قبل الصعود إلى متن السفينة.

إنه دليل العبّارات التي تربط الجزيرة بأندروسان. لقد تم التأشير على المغادرة الأخيرة الموافقة للساعة السابعة مساء، وتعريفة راكب بدون سيارة: ٥٥£٤.

انتقلت إلى الصفحة الموالية، وعلى الفور خطرت ببالها فكرة: لقد كانت ضحية دعابة! شخص ما يتلاعب بها ويراقبها خفية منها. لا بد أن ذاك الأخرق هناك، مقرفص في زاوية، يشمت بسذاجة المسز كلاريسا غراي...

كان هناك نص حقاً. لكنه مكتوب بلغة غير مفهومة. يظن المرء أنها علامات الخط الاختزالي.

وضعت الوعاء على مقعد الراكب، استنشقت جرعة تامة من الهواء وحاولت التفكير في الأمر، جاهدة لتطبيق الصرامة ذاتها التي كانت تفرضها على نفسها في تشكيل رواياتها.

واختفى احتمال تعرضها لخدعة بالسرعة نفسها التي ظهر بها. ليس هناك عقل، ما لم يكن غير سوي، قد يذهب به الشطط حد القتل لمتعة اللهو فقط. إذ وقعت ثمة جريمة قتل. وهذه المفكرة تمثل البرهان القاطع بأنها لم تكن ضحية لوهم. وعليه؟ ارتسمت ابتسامة على شفتيها. ها هو تحقيق جدير بالعظيم آرشي رودنبار، حدثت نفسها بسخرية. إن محققها العبقري لقادر على فك هذا اللغز في لمح البصر. هيهات! لم يكن آرشي سوى شخصية روائية.

قررت العودة بالزمن إلى الوراء، مثلما فعلت في اليوم السابق. رأت من جديد الوجه كامد اللون، الرأس الأمرط، والندبة التي تعدو فوق الجبين، وعلى الأخص ذلك المزيج من اليأس والرعب الذي كان يمدد حدقتيْ الرجل. الرعب. هل الموت الهاجم عليه يكفي لتفسير ذلك الوجه الذي استبد به الهلع؟ هل رأى شيئاً آخراً؟ وماذا؟

يقين واحد وسط كل هذه الأسئلة: لم يكن الغريب ليعهد لها بتذكرة الوديعة ـ ومن ثمة المفكرة ـ إن لم يكن بغرض إخفائها على من يتعقبها.

أطلقت المحرك ثم عدلت عن ذلك. ماكلين! وليام ماكلين. إن كان هناك شخص واحد في العالم قادر على فك رموز مضمون هذه المفكرة، فلن يكون إلا هو. مؤرخ، أستاذ اللسانيات بجامعة غلاسكو، تخصصَ في «علم الاشتقاق الحاسوبي»، وهي تقنية تستعين بالحاسوب لمعالجة اللغات معالجة أوتوماتية. عشرين سنة من ذي قبل، كان قد اخترع منظومة مبتكرة للتحقق تسمح بتحديد اللهجة والشفرة المعلوماتية التي كتب بها نص ما. ولقد كانت هذه المنظومة ضرورية حتى يستطيع محرك الترجمة انجاز بحث ذكي في نصوص من لغات مختلفة وعرضها بعد ترجمتها. بوضعه لهذا البرنامج لم يكن ماكلين يظن مقدار أهميته في استعمال انترنت الذائع الصيت.

الانترنت. كلمة تجعل كلاريسا ترتجف هي التي كانت تربطها فوراً، على جاري ريبتها المعتادة، بكلمة interner «احتجز». وبالقدر نفسه من الانضباط المعهود فيه تجاه الغولف، أجهد ماكلين نفسه حتى يكشف لها هذه الوسيلة الجديدة في التواصل. وهذه المرة أيضاً دون نجاح يذكر. وكان يكفي أن ينطق اللُّغوي بكلمات «أثمون octet»، عنوان إلكتروني، وخاصة بنقل معطيات مجزأة إلى «حزم» كي ترفض مخاطبته بغتة ونهائيا. «حزم؟» قالت صارخة. الناس يتكلمون بـ«الحزم»؟ يا له من شِعر! عزيزي وليام، ها هنا أتعرف على حِسك في التحليل، بارد وعلمي. شاشة غير شخصية بواسطتها يكتب الناس لبعضهم «حزما؟!» لا، شكراً. ما زلت أفضل أخذ وقتي كله للجلوس بمكتبي، ومداعبة الريشة بدل لوحة المفاتيح، وأرى المداد يعدو فوق رسالتي. ألم يسبق لك أبداً أن كنتَ مغرما يا وليام؟

وهو مذهول، حدق فيها صديقها وكأنها نطقت بحماقة. «مغرم؟ ماذا تقصدين بذلك؟ بالتأكيد كنتُ مغرما، صحيح أنها كانت مرة واحدة، وبالمرأة نفسها دائما. جانيت. زوجتي! والأمر ظل كذلك منذ ما يقارب أربعين سنة! لو أسعفتني الذاكرة، استرسلت كلاريسا، كانت جانيت تعيش حينذاك في بور إلين. لا بد أنك تبادلت معها الرسائل، أليس كذلك؟ بالطبع. كنت أقضي خدمتي العسكرية بإدنبرة. وإذن عزيزي وليام! ذاكرتك قصيرة. هل نسيت عبق رسائلها، الشعور الذي كان ينتابك حينما كنت تقرب الورقة من منخريك كي تحاول أن تجد فيها قليلاً من رائحتها، ومن فمك لتضع عليها شفتيك؟». قال وليام بتلعثم، مثل طفل متلبس بالجرم المشهود، «أجل... أجل... أذكر ذلك». ـ وعليه، أضافت الروائية بقوة، هل كنت لتطبع قبلة على حاسوبك؟»

أدار لها ظهره ساخراً «لقد أصبحت عجوزاً بإفراط. إنك عاجزة عن التكيف مع عصرك».

قهقهت كلاريسا ضاحكة. عجوز؟ كانت تبلغ بالضبط ٦٢ سنة حينها. وإذا كان ماكلين يصغرها بخمس، فقد كانت تجد أنه ذو خلقة سقيمة.

أمسكت دليل العبّارات، هدية من الغريب بعد موته. الانطلاقة المقبلة نحو اندرسون حددت على الساعة السابعة ونصف. بالكاد لديها الوقت لشراء تذكرتها والصعود إلى متن السفينة. ينبغي حساب حوالي خمس وخمسين دقيقة للعبور، والمدة نفسها تقريباً إلى غاية غلاسكو. كان ذلك جيداً. سوف تصل إلى الجامعة عمليا في الوقت نفسه الذي يصل فيه وليام. لا فرصة لإفلاته؛ حتى في فترة العطل، كان يمضي هناك أيامه.

متكئة على حافة السفينة، استسلمت لمداعبة الريح. لم تكن تستلطف الغولف ولا انترنت؛ وخلافاً لذلك، كانت تُجِل البحر. كانت تحبه لسورة غضبه ولسكينته المستعادة. كانت تحبه لحريته.

كلاريسا غراي كانت حرة بدورها. تعذبها أزمات تصلب المفاصل، وحيدة، لكنها حرة. كما أنها تفخر كثيراً بكونها توفقت في الحصول على هذا الغرض الثمين جداً. في البداية، رغم ذلك، لا شيء كان يعدها للعيش إلا مقيّدة. لأن أباها، اللورد أرشيبالد غراي، رجل الأعمال المرموق، عضو البرلمان، المحافظ المتزمت ومنشئ الاستبداد، كان قد ربّاها للوظيفة الأنثوية الوحيدة التي تصورها: وظيفة الأم والزوجة. وكان الزواج من عائلة سامية يفرض نفسه. وولد ذكر، أيضاً. بالطبع. حس القيام بالواجب، اللياقة قبل كل شيء. كيف له أن يشك خفية في أن كريمته كانت تحلم بأن تصير فنانة رسم، وبأنها لم تكن ترغب بتاتاً في أن تحبس نفسها بزواج، ولو كان بسليل آل ولينغتون؟ لحسن الحظ، فإن ماري، زوجته، كانت تسهر على أن لا يختل توازن الكفة؛ لكن بأي مقابل! عنف لفظي، تهديد، صفق للأبواب. عجيب كم يصدر من بعض الرجال الغاضبين كل ظلم وخسة العالم، وكم إن استعمال القوة الجسدية على مخلوق لا دفاع له يصيب المرء بالغثيان. وفي آخر الأمر، كانت الغلبة لقانون الأقوى - أي قانون الذكر. لكن ظاهريا فحسب. العزيز أرشيبالد لم يدرك أبداً أنه إذا كان في الإمكان ترهيب امرأة، اسكتلندية، فمن المحال ترويضها.

- المعذرة. من فضلك كم الساعة؟

التفتت كلاريسا. كان رجل شاب يقف عكس الشمس. لأن النور بهرها، استظلت بيدها على جبينها لتفرسه، وللتو باغتتها دقة قسمات

وجهه العجيبة وغرابة ملبسه: تنورة الترتان (الاسكتلندية)، مئزر الكِيلت التقليدي من الصوف المصبوغ، صداري برانس شارلي، صرة من جلد الفقمة، مطرزة بالفضة، صُدرة، كمّان من الدانتيلا، وفي الأخير الحذاءان ذوا المربعات. أي فكرة تلك للتنكر بلباس السهرة في واضحة النهار! ما لم يكن عائداً من حفل عشاء؟

ـ قلتَ الساعة؟

ألقتْ نظرة خاطفة إلى ساعة معصمها:

ـ الثامنة وخمس وعشرين دقيقة.

ـ صباحاً، بالطبع؟

قطبت السيدة العجوز حاجبيها. لم تسمعه جيداً أو سُلّط عليها ممازح.

لا بد أن الشاب فطن إلى أن سؤاله يفتقد النباهة لأنه غمغم ببضع عبارات الاعتذار قبل أن ينصرف، يمشي القهقرى، بخطوات مرتبكة.

«لماذا، قالت كلاريسا في سرها، لماذا الرجال الأشد جمالا هم في الغالب الأشد بلاهة؟». مرة واحدة، لمرة واحدة في حياتها، تعرفت على الجمال الذكوري الممزوج بالذكاء. حدث ذلك منذ زمن بعيد. بعد الحرب...

انصرفت للجلوس على أحد الكراسي المصطفة فوق الجسر، أغمضت عينيها، ولم تصح إلا بعدما شرعت العبارة في عملية الرسو على طول رصيف اندروسان.

تعرفت للفور على السقوف القرميدية، والظلال الرمادية للحصن القديم المتداعي. برج أجراس الكنيسة النصرانية. وقبل أن تشد الرحال إلى آران، فهنا عاشت كلاريسا طوال ثمانية أشهر. وقد افترضت أن

بعد كل ذلك الوقت الذي أمضته في لندن، كان من الأفضل أن لا تنعزل بغتة. إذ لأندروسان ميزة كونها تقع على بعد أربعين ميلاً فحسب من غلاسكو، وبالتالي من بعض النشاط الثقافي والاجتماعي. كانت مخطئة. حينما يصاب المرء بالغنغرينة، من الأفضل أن يقطع العضو فوراً بدل السعي لربح الوقت باستعمال اللَّزُوق. ثم أحد الأسباب التي جعلتها تختار، في تلك الآونة، هذه المدينة، عند مصب نهر **فورث أوف كلايد** كانت من محض الخيال. لقد قرأت ذات يوم في مجلة بأن هنا، في سنوات ١٩٢٠، كانت ترسو سفن **الهودسن باي كومباني** الذاهبة إلى قطب الأركتيك الكندي. بعد رحلة طويلة، كانت تعود إلى ميناء رسوها بطونها مليئة بالفرو، وجلود الفقمة، والزيوت و... الدببة القطبية. لم تعرف أبداً لأي سبب غريب كانت مشاهد البحارة الذاهبين إلى أراضي مجمدة وعدائية قد راودت أحلامها. ربما هو احتمال مصادفة دب قطبي؟

ـ ألا تنزلين إلى اليابسة، سيدتي؟ استفسرها البحار.

صحت من استغراقها الحالم.

ـ بلى. طبعا.

شمس مدهشة تسطع فوق المصب.

بغير كثير من العناء، سلكت طريقها عبر الحشد المجتمع على الرصيف، نادت على تاكسي والتمست منه أن ينقلها إلى غاية محطة أندروسان. أمال السائق خده. بالكاد ميلين أو ثلاثة أميال تفصل المحطة عن الميناء.

ـ جولة بدون جدوى، قال متذمراً.

لم ترد عليه كلاريسا. منذ أمد طويل حصرت متعة المشي على

قدميها في جولاتها بالهايلاند؛ لا مجال لخرق هذا المبدأ. إذا كانت تستمتع بصعود مسالك الأراضي المرتفعة الوعرة، فإنها كانت تمتنع، خلافاً لذلك، عن تجشم أي عناء جسدي وسط تلوث المدن.

وقفت بها السيارة عند زاوية **ساوث بيش رود**. أدت أجرة الجولة، دون أن تتكرم عليه بمزيد. لقد كان هذا السائق مفرطاً في تذمره.

بعد أن تحققت من المواقيت، هرولت إلى غاية الشباك الأول، أدت ذهاباً وإياباً في الدرجة الثانية وتوجهت إلى الرصيف.

ساعة بعد ذلك، انطلقت إلى محطة غلاسكووركبت تاكسي من جديد.

بعد أن سارت على طول الكلايد، انعطفت السيارة إلى اليسار وصعدت نحو كيلفينغروف بارك. كانت الجامعة بميتاءه.

توقفت السيارة قبالة بناية مهيبة. بالنظر نحو الأعلى، يرى المرء البرج، الذي يرقى إلى أكثر من خمسة قرون ماضية، يكلله سهمه الحجري الذي يغازل السماء. إنها كاثذرائية أكثر مما هي جامعة... ذلك كان الانطباع الذي يستبد بكلاريسا كل مرة قامت فيها بزيارة صديقها. جو من القداسة ينضح من هذه الجدران العالية. ربما ما تزال تحافظ من الدير القديم الذي كان يضمه الموقع في تلك الأزمان البعيدة على نوع من الخشوع المستتر.

لم يكن السائق يتوفر على قطع نقدية.

لما قلبت ثنايا حقيبتها توفقت مع ذلك في أداء الواجب نقداً؛ وقد جعلها ذلك تتفادى هذه المرة أيضاً، ـ التكرم عليه بمزيد ـ، لكن عن حسن نية.

٤

البروفسور ماكلين؟ رددت مسؤولة السكرتارية، تودين رؤية البروفيسور ماكلين؟

لو أن كلاريسا أخبرتها بأن غِيُومْ الفاتِح قد حلَّ للتو بالكافتيريا لما بدت عليها كل تلك الحيرة. ينبغي القول إن السيدة ليزا دوسن الفاضلة تلك كان لديها نزوع معيب إلى كونها تبدو متجاوزة من أجل لا شيء.

ـ أجل، أجابتها كلاريسا بصبر، البروفسور ماكلين. ثم ليس لدي موعد مسبق معه.

سوَّت ليزا دوسن نظارتيها التي لضغاف البصر:

ـ إنه لأمر مؤسف، مسز غراي. كان لابد من الاتصال هاتفيا قبل تحمل مشقة المجيء. إنه غير موجود. لقد رحل.

ـ رحل؟ تقصدين... في رحلة؟

ـ لا، لا. لقد ذهب إلى المحطة لاستقبال حفيده، موركار.

ـ فهمتُ. سوف يعود، أعتقد؟

ـ أوه... أعتقد.

بحركة مستبدة، وضعت كلاريسا حقيبة يدها فوق مكتب السكرتيرة وقصدت أقرب مقعد.

ـ ماذا... ماذا تفعلين مسز غراي؟

ـ مثلما ترين! أنتظره.

ـ و.... ماذا لو توجه مباشرة إلى بيته؟ لعل الصغير متعب. إنه قادم من لندن. هي رحلة طويلة.

ـ أكثر من أربعمائة ميل بالفعل. ليس هذا النوع من المسافات ما يستطيع هدَّ شاب في العشرين من عمره. في سنه كنت قادرة على قضاء ثلاث ليال بلا نوم!

ـ ١٩.

ـ ماذا تقولين؟

ـ موركار يبلغ من العمر ١٩ سنة. لقد بلغها منذ أسبوعين. أعلم ذلك، لأن البروفسور ماكلين كلفني شخصياً بأن أبعث له رزمة بريدية لمناسبة عيد ميلاده.

ـ جيد جداً. سبب آخر حتى لا يكون للتعب أي تأثير عليه.

وحيث لم تتبق لها أية حجة، انغمست مسز دوسن من جديد في عملها الذي توقعه دقدقة ساعة ثقيلة منتصبة في زاوية من الغرفة.

دَقْ... دَقْ...

انجرفت خواطر كلاريسا للمرة الألف نحو أحداث اليوم السابق. لقد هرعت الضحية إلى بيتها حوالي الساعة ١و٤٥ د. لكن بالنظر إلى الخانة المؤشر عليها في دليل العبَّارات، الساعة السابعة مساء، فإن الغريب وصل إلى بروديك حوالي الساعة الثامنة. ماذا فعل طوال أكثر من خمس ساعات؟ ماذا كان جدوله الزمني؟ لقد أتى دون سيارة. إذ أكد العميل ويشار الأمر والدليل أيضاً: تعريفة الراكب: ٥٥£٤. لو افترضنا أنه قطع مشيا الخمسة أميال التي تفصله عن ميناء لاملاش،

يظل هناك رغم ذلك فراغ بحوالي أربع ساعات. ولو استقل تاكسي، لكان الفراغ أكبر. هل تجول إذن في بروديك؟ في لاملاش؟ حول البيت؟ لماذا؟

- مسز غراي؟

- نعم؟

- هل ترغبين في فنجان شاي؟

اعتذرت كلاريسا عن العرض.

دَقْ... دَقْ.

بعد انصرام عشر دقائق تقريباً، عيل صبرها. لقد مضى زمن كانت تستطيع فيه تزجية الوقت في فنون الطرز. بين روايتين، كان في وسعها أن تخصص لذلك عدة ساعات، بل أياماً كاملة. لا تعجزها أسرار الطرز المجري ولا طرز الغوبلان. بل إنها انخرطت في إحياء فن سجّادة بايوه (Bayeux) وكانت شديدة الفخر بالحصيلة. حدث ذلك قبل أن تصاب يداها بالمرض.

- أليست لديك مجلة؟

- مجلة... لا، للأسف. لكن يمكن أن أقدم لك دورية الجامعة.

حتى النساء العجزة ترعاهن الآلهة. إذ تم إعفاؤها من قراءة الدورية: حيث فُتِح باب السكرتارية للتو. كان ذاك وليام ماكلين.

- كلاريسا؟

- يومك سعيد، وليام.

انحنى البروفسور عليها وقبلها على خديها.

- مندهش ومسرور لرؤيتك. تصوري أنك خطرت ببالنا البارحة

مساء. قلنا لبعضنا مع جانيت أنه لا بد لنا أن نجتمع حول طبق أحشاء الهَاغِيس

نادى على الفتى الشاب الذي لبث عند العتبة:

ـ اقترب، يا موركار. تعرف بالتأكيد المسز غراي؟ كلاريسا غراي. ولا تقل على الأخص أن لا! إنها شديدة الحساسية.

ـ إني أعرف من تكون المسز غراي بالطبع. احتراماتي، سيدتي.

ـ احتراماتي؟ استغربت كلاريسا.

تفحصته بتمعن. كانت خصلات شعره صهباء مجعدة، ولون العينين شديد الزرقة، ملمحٌ شاحب، سقيم بعض الشيء، لكنه لا يخلو من سحر.

قالت مازحة:

ـ هناك إذن شباب ما يزالوا يتكلمون على هذا النحو؟ مرحى لك، صغيري. لقد أخذت مكانك في قلبي مسبقاً.

مالت بنظرها نحو ماكلين:

ـ إنه على خُلق، هذا الفتى. ولا يسعنا قول الشيء نفسه عنك، عزيزي وليام. ألا تدعوني لدخول مكتبك؟

احتج ماكلين:

ـ دعيني أفعل!

صاح نحو سكرتيرته:

ـ هل من رسائل؟

ـ أجل. من زوجتك.

قرأت عليه الملاحظات:

ـ تلتمس منك أن تحضر الخبز من عند ماكسوينز، والذهاب لإحضار رطل من الرنجة المدخنة من عند بائع السمك.

استدار ماكلين نحو المسز غراي:

ـ هل سبق أن قدمتُ لك تعريفي للأزواج؟ مخلوقان يقرران أن يجتمعا للسعي إلى حل المشاكل التي لن تَعْرِض لهما أبداً لو ظل كل منهما وحده. وبعد التحقيق، أتساءل إن لم تكوني قد تصرفتِ بحكمة بعزوفك عن الزواج.

ـ إنك قاسي جداً حيال جانيت.

ـ ما عسى أن أفعل... أربعين سنة من الزواج، ذلك يصيب بالبِلى.

فتح باب مكتبه:

ـ لو تفضلتِ علي بكرم الدخول؟ بإمكانك المجيء أيضاً يا موركار.

ودخل هو الأول، مما جلب عليه نظرة حارقة من طرف السيدة العجوز.

ـ المعذرة عن هذه الرُّكم. اجلسي حيث يسعك ذلك.

وكانت كلمة ركم مجرد تلطف في الكلام.

على الجدار الخلفي برزت لوحة سوداء تكسوها كلمات وعلامات. كتب سوية الأرض وفوق المقاعد؛ وأخرى تجمعت أكواما فوق المكتب، تغطيها أوراق من شتى الأصناف، ووثائق، تحاصرها أكواب من الكرتون. هناك أيضاً قارورة جعة شُرِب نصفها قرب منفضة مليئة عن آخرها بالرماد، ومعَلَّب مريب لعله احتوى بعض «الهَاتي كِيت»، حلويات من الأراضي المرتفعة. وعلى طاولة كانت ترقد طابعة ليِزر وحاسوب، بوحدته المركزية المبقورة، تحيطه شبكة من

الكابلات. وحدها الأريكة تشيسترفيلد التي بدا أنها نجت من هذه المحنة.

ـ رائع! قالت السيدة غراي بتهكم. لو أني لم أكن أعرف أننا موجودون في حرم جامعة مرموقة، وفي مكتب لغوي مرموق، لظننت نفسي في سوق بالباندشير.

ـ الرحمة، كلاريسا! تفضلي علي ببعض التسامح، على الأقل في حضرة حفيدي.

طوّح بمعطفه صوب الأريكة: مسز غراي وأنا صديقان من زمان. كدت أقول متواطئان من زمان. إني أجِلُّها، لكنها قد تصير بسرعة شديدة شخصاً لا يطاق. حاذر منها.

وضع الفتى الشاب حقيبته وهز رأسه علامة على الموافقة.

ـ لقد عهدت لي بنتي برعاية موركار لأسبوعين، شرح ماكلين. لا أدري أي ضرب من الجنون هو، فقط قررت بين عشية وضحاها أن تمنح نفسها أسبوعين من العطلة بالباربادوس. في اعتقادي أنها لم تتعافى كليا من طلاقها من ميكائيل. اسمعي، أنا مسرور للاستمتاع بحفيدي المفضل. تصوري أنه تم قبوله بكمبردج. إنه أمر عجيب، أليس كذلك؟

ندت عن كلاريسا إيماءة امتعاض.

ـ عجيب.. شرط أن يستمتع بذلك.

واستدارت نحو المعني بالأمر:

ـ هل الأمر كذلك، يا فتاي؟

ـ هو كذلك بالفعل.

شهقت:

ـ ما كان ليسعني قول مقدار ذلك.

ـ هل كنتِ أيضاً في كمبردج، مسزغراي؟

ـ أوه! لقد اكتفيت بالمرور من هناك. كان من المفروض أن أتابع دراسات في القانون. خلصتني أمي من هناك بينما كنت أتأهب لإشعال حريق في تلك المؤسسة المشرفة.

ـ ذلك من حسن حظنا، أكد ماكلين. ومن حظ قرائك.

استفسر موركار:

ـ هل قرأت الرواية الأخيرة لصديقتنا؟

ـ كلا، إلا أني قرأت كل الروايات الأخرى. وتظل روايتي المفضلة هي *آرشي يغادر الخشبة*.

ـ آه؟ قالت كلاريسا مندهشة. وما السبب؟

ـ كنتُ أخشى أن لا يرجع بطلك. لأنه كانت لك حقاً نية جعله يختفي عن الأنظار، أليس كذلك؟

ـ أجل. لكن الجمهور قرر غير ذلك. لكن سوف يأتي اليوم الذي...

تصرفت وكأنها ترمي هدفاً لا مرئياً.

ـ سوف تكون تلك خسارة حقاً، مسز غراي. بعد كل شيء، ألا يكتب الكاتب بالأساس من أجل من يقرؤونه؟ إذا كان قراؤك قد تشبثوا بشخصيتك، لماذا حرمانهم منها؟

ـ هون عليك، يا فتى، إن الكاتب يكتب أيضاً لذاته. لكن تلك حكاية أخرى.

ـ في هذه الحال، لماذا استسلمتِ؟

كادت تختنق، وجعلت ماكلين شاهداً على كلامها:

ـ أنا التي كنت منذ بضعة دقائق أعتبر هذا الفتى جذابا!

مستديرة نحو موركار، أضافت:

ـ بصرف النظر عن وقاحتك، سوف أجيبك. لقد استسلمتُ لأنني امرأة غير كاملة وتنقصها الشجاعة. هل أنت راض؟

ـ أقدم لك اعتذاري. أنا...

ـ لا تبالي، لقد كنتُ أشاكسك. في الحقيقة، أحب جداً الأسئلة المباشرة. إذ لها ميزة أنها تعيدك إلى ذاتك. على الأخص، لا تغير نفسك.

ـ الآن، قال ماكلين، لو أفصحت لي عن موضوع زيارتك؟ لأنك لم تأت بالصدفة. هل لستُ على صواب؟

ـ أحتاج إلى أفكارك النيرة.

ـ جيد جداً.

اقترح على حفيده:

ـ إنك تعرف جيداً هذه الجامعة. تستطيع الانصراف للقيام بجولة. بين المتحف القديم وأروقة الفن، لك الاختيار...

ـ إن كان حضوري لا يزعجكما، أود البقاء هنا.

التمس ماكلين بنظره موافقة كلاريسا التي لم تعترض.

أشار الفتى الشاب بإصبعه إلى وحدة الحاسوب المركزية:

ـ أهو معطل؟

ـ إنه كابوس. أردت أن أضيف شريطين للذاكرة ومنذئذ اختل كل شيء. إني أرزح تحت ثقل الفيروسات وفقدت الربط بالانترنت.

ـ هل أستطيع أن ألقي عليه نظرة خاطفة...؟

ـ لِمَ لا. ستجد الأقراص المدمجة الأصلية في مكان ما على رفوف المكتبة. لكن حاذر من أن تمسح أدنى شيء. هناك سنتان من العمل بالداخل.

طمأنه موركار بإيماءة وتوجه صوب الحاسوب.

ـ هل تعلم أنه يشبهك؟ لاحظت كلاريسا. مزهو بنفسه مثلك تقريباً، ومخلَّع المشية مثلك. نفس العينين الزرقاوان، والأنف المعقوف ذاته.

ـ أنف آل ماكلين!

ـ آسفة بالنسبة لك، الشبه يقف عند هذا الحد. ليس لحفيدك لحية عنزة بشعة، ضاربة إلى الرماد، وغير مقذذة، وعلى الخصوص، هو حَسَنُ الطّلعة.

تظاهر ماكلين وكأن السهم لم يصبه:

ـ ماذا لو تحدثنا عما أتى بك؟

كانت مسز غراي قد أخرجت المفكرة من حقيبة يدها.

ـ أود أن تفحص هذه.

جلس البروفسور إلى مكتبه، أخذ يتفرّس الغلاف، ثم ألقى نظرة على الصفحة الأولى، فالثانية، وتوقف عند الثالثة.

ـ لا أدري. أين وجدتِ هذه المفكرة؟

وضعت كلاريسا ساعديها على حافة المكتب:

ـ سوف أخبرك. لكن قبل ذلك، عاهدني على أن لا تقاطعني. اعلم أيضاً أن الأمر لا يتعلق بدعابة ولا بفكرة مجنونة قد اختمرت في ذهن روائية. اتفقنا؟

فتح البروفسور درجا، أخرج منه غليونا وأخذ يشذب فوهته.

ـ إنك تحيرينني، فجأة. لم أرك أبداً بمثل هذا الملمح الجلل.

ـ لأن الخطب جلل، يا وليام.

ـ تكلمي... صبري ينفد. ما الأمر؟

ـ إنه يتعلق بجريمة قتل. لكنها جريمة قتل يشق علي تخيلها، بما أن الظروف المحيطة بها تبدو غير قابلة للتصديق.

ومثلما التزم بذلك، أنصت إليها صديقها إلى آخر المطاف دون مقاطعتها. وبعد أن انتهى سردها، تسلح بعدسة مكبرة، استعاد المفكرة وفحصها بما يزيد من الرعاية على المرة الأولى.

ـ قل إنك تصدقني؟ استفسرت كلاريسا حائرة.

ـ أجل، إني أصدقك. أصدقك لأن الأمر يتعلق بك أنتِ. لو صدر ذلك عن غيرك، لما وثقت قيد أنملة بهذه الحكاية التي لا تصدق ـ تتفقين معي على ذلك ..

توقف عن الكلام، ريثما يسحب نفحة من الدخان وينفث سحابة ضاربة إلى الزرقة لها طيب الأناناس.

ـ لأن الأمر يتعلق بك أنت، قال مواصلا كلامه، لكن أيضاً لأن كلا من غلاف ومضمون هذه المفكرة يثير بعض الأسئلة.

ـ الغلاف؟

ـ الجلد تغطيه صفائح مزينة بزخارف هندسية محفورة. لستُ خبيراً، لكن لدي بعض المعلومات في هذا المجال. يبدو لي أن هذه الزخارف قد صُبغت بماء الذهب، حُفِرت أو سُكّت بخيوط صغيرة. بيد أن هذه التقنية لم تعد تستعمل منذ زمن سحيق.

ـ والمقصود؟

ـ لنقل منذ القرن الأول أو الثاني من الميلاد. إذ أحدثك عنها بكل هذا القدر من التأكيد، فذلك لأن في أيامنا هذه يجري عرض في حرم الجامعة. بالضبط حيث اقترحت على موركار الذهاب: في متحف هنتريان. وهو عرض مكرّس للفن القبطي بمصر، وهناك، بالأمس فحسب، شاهدتُ كتبا غُلِّفت بالتقنية ذاتها.

ـ سعلت كلاريسا.

ـ تقريباً ألفي عام؟

ـ ليس ذلك كل ما في الأمر.

وضع سبابته على صفحة بالصدفة:

ـ نسيج الوريقات يثير الفضول بالقدر نفسه. ليس أملسا، ولا يمتلك ذلك البياض الذي يميز الورق الذي نستعمله اليوم. أخاطر بحرق يدي في النار أن هذه الصفحات صنعت من نسيج الكتان أو القنب.

ـ مما يعني؟

ـ منذ زمن، مائة وخمسون سنة تقريباً، حل الخشب مكان النسيج. ولهذا، ما لم يكن ذهني مشوش على نحو فريد، لا أرى الدافع الذي يحذو بصانع إلى استعمال تقنيات قديمة تعود لأكثر من قرن ونصف القرن.

داعب الخط بسبابته:

ـ أمر غريب... الحبر المستعمل فريد بدوره. ليس مداداً كلاسيكياً. أقصد معاصراً. يخيل للمرء أنه حبر من السخام.

ـ من السخام؟

ـ في أيامنا هذه، تصنع أنوا ع الحبر من المواد الكيماوية الأكثر

تطوراً. لم يكن الأمر على ذلك المنوال في الأزمنة السحيقة. وإذا كانت أصناف الحبر الأولى قد صنعت من السخام والماء، وأضيف إليها صمغ طبيعي، فإن أنواعا أخرى ركبت فقط من السخام. ومن ثمة كان اسم حبر السخام.

ـ النص. إنك لا تحدثني عن النص.

ـ سوف أصل إليه. في حقيقة الأمر، النص هو العنصر الأقل غموضاً. هناك شيء مؤكد: مؤلفه لم يكن خبيراً في الترميز.

ـ هو إذن نص مرموز...

ـ أي نعم! وبطريقة تافهة تدعو للضحك...

ثم أخبرها بابتسامة هادئة:

ـ ماري ستيوارت.

فزعت كلاريسا.

هل تقصد بكلامك ملكة اسكتلندا؟ ابنة ماري دو غيز.

ـ تماماً. لهذا السبب قلت لك منذ لحظة إن النص ـ على كل حال ظاهرياً ـ هو العنصر الأقل غموضاً في هذه القضية.

صالبت مسز غراي ذراعيها وترقبت التتمة.

نحن في مستهل سنة ١٥٨٦. بعد الحكم عليها من طرف الملكة إليزابيث، قريبتها، ظلت ماري ستيوارت سجينة منذ ثمانية عشر سنة خلت في قصر شارتلي هول. كان التواصل مع الخارج محرماً عليها بتاتاً. إلا أنها بفضل حيلة من وضع أتباعها، كان يتم التحايل بانتظام على هذا المنع.

ـ بأي شكل؟

ـ شخص يدعى جلبير جيفورد، وهو كاثوليكي يريد خدمة

القضية، يحمل الرسائل إلى صانع الجعة المحلي، الذي يعلبها في جيب من الجلد يخفيه في جوف سدادة برميل الجعة. بعد ذلك ينقل الصانع البرميل إلى القصر حيث يلتقط أحد خدام ماري السدادة ويحمل الرسالة إلى الملكة.

توقف ماكلين لوقت قصير قبل أن يتابع:

ـ وفي هذه الفترة فكر شخص يدعى أنطوني بابينتون في خطة لتحرير ملكة اسكتلندا، واغتيال قريبتها، وإشعال حركة التمرد التي سوف يدعمها التدخل الخارجي. حرر بابينتون رسالة مفصلة فيها يسجل الخطوط العريضة لمشروعه. ومن باب الحيطة ـ وهنا مربط الفرس ـ قام بابينتون بترميز هذه الرسالة حتى إذا ما وقعت بين يدي الجلاد لن يعرف مضمونها. ولهذا الغرض، استخدم شفرة. شفرة لا تنحصر في استبدال بسيط لحروف الهجاء، بل هي مدونة تتشكل من رموز تقوم مقام حروف الهجاء. ومثل جاري العادة، فقد كان جلبير جيلفورد هو من تم تكليفه بحمل الرسالة إلى الملكة.

وعلى نحو آلي، دست كلاريسا أصابعها في شعرها:

ـ إذا كنت أتذكر جيداً دروسي في التاريخ، أعتقد أن جيلفورد المقصود كان عميلاً مزدوجاً يعمل لصالح السكرتير الأول لإليزابيث: والسينغهام...

ـ صحيح. حمل الخائن إلى والسينغهام رسالة بابينتون الموجهة إلى ماري، وعلى الفور جعلها بين يدي واحد من أفضل محللي الشفرات في أوربا. عبقري اسمه طوماس فليبس الذي أدى له خدمات. قام فليبس بفك شفرة رسائل بابينتون الذي كان يقترح بوضوح اغتيال إليزابيث، وأرسل النص إلى سيده على الفور. تريث واليسنغهام ما يكفيه من الوقت، آملا أن تجيب ماري وتجيز المؤامرة، مما يسمح

باتهامها فيها. كان يتمنى منذ زمن بعيد موت ملكة اسكتلندا، لكنه كان يعلم بأن إليزابيث تنفر من إعدام قريبتها. إذا استطاع إثبات أن ماري تحضر لعملية اغتيال، حينها سوف تكون الملكة مجبرة على الموافقة على إعدام غريمتها.

ـ وقد تحققت آماله.

كانت العبارة قد جاءت من عند موركار الذي قال متمماً:

ـ في يوم ١٧ يوليوز، ردت ماري على بابينتون، وبذلك وقعت على صك موتها. في الثامن فبراير ١٥٨٧، تدحرج رأسها على قاعدة المقصلة.

ـ عجباً، لك أذنان بالمرصاد، لاحظ ماكلين...

وجه أصبعه نحو الحاسوب:

ـ أو يعمل؟

ـ بلا مشكل.

ـ انترنت أيضاً؟

ـ أيضاً.

ـ أتعجب دوما من رصد السهولة التي ينغمس فيها شباب اليوم داخل أحشاء هذه الآلات، لاحظ البروفسور.

لم تحر الروائية جواباً. واصلت خواطرها طريقها:

ـ خلاصة الكلام، قالت، نص هذه المفكرة قد يكون مشفراً وفق المبادئ التي وضعها بابينتون منذ أكثر من أربعمائة سنة.

ـ هذا أمر بديهي.

ـ وهل تشعر أنك قادر على فك شفرته؟

ـ يكفي أن أضغط على المفتاح. لا بد أني أتوفر في القبو على سِجِلات ترقى إلى فترة الحرب، حينما كنت أعمل بمركز أبحاث سلاح الجو بكمبردج وفي المكتب ٤٠. فيه تم ترتيب العديد من الشفرات. بداية من يوليوس قيصر إلى شفرة Enigma (اللغز) المشهورة.

ـ إنيغما؟

مرة أخرى كان موركار هو السباق إلى الشرح:

ـ هو اسم آلة لإنتاج الشفرة اخترعها ألمانيان حوالي سنة ١٩١٨، إنها آلة محيرة للعقول حقاً جعلت كل الذين سعوا إلى كسر الشفرة يفقدون صوابهم. لولا خيانة عامل ضمن الـ Chiffrierstelle ما استطاع الحلفاء أبداً حلّ رموزها.

صفر ماكلين معلناً عن إعجابه.

ـ علي الإقرار بأنك تدهشني.

وزادت كلاريسا على ذلك:

ـ يا لها من ثقافة! أرفع قبعتي احتراماً لك.

ـ أليس من آل ماكلين؟ ألح ماكلين وهو يرفع جبينه.

نقر بأصبعه على المفكرة.

ـ هل لاحظتما هذه الحواشي باللاتينية المكتوبة في مستهل بعض الصفحات؟

ـ لم أر سوى خليط من اللهجات الغريبة.

ـ أنظرا. هنا. نقرأ بوضوح: Tempesta unus أو أيضاً Eadem tempesta

ـ «الزمن الأول»؟ «الفترة نفسها»؟ ما علاقته بشفرة بابينتون؟ لم تكن مكتوبة باللاتينية على حد علمي؟

ـ لا، بتاتاً. وهذا سر إضافي.

ـ لكن ما السبب الذي يجعل شخصاً ما ـ في هذا السياق، الضحية ـ يجهد نفسه جهداً لصنع غلاف حسب التقنيات التي ترقى إلى مصر القرن الثاني... الورق المصنوع وفق طرق قديمة بأكثر من قرن ونصف القرن، وبحبر من السخام، وتتويجاً لكل ذلك، نص مشفر يستلهم شفرة أنغلوساكسونية من القرن السادس عشر؟ واعتباراً لهذا، هناك نقطة لم نتطرق إليها وفيها من الأسرار ما في الباقي. كيف تفسران أن هذا المشهد من الواقع الذي حدث ليلاً كنتُ قد أمليته على كاتلين صباحا بالتحديد؟ مصادفات؟

ـ لا أؤمن بالمصادفات، على الأقل ليس كل ما يوصف على أنه كذلك. أنا من الذين عندهم اقتناع راسخ بأن تطورنا يخضع لترسيمات متناغمة ومتراصة البناء، وبأن الخطوط العريضة لمصيرنا قد رسمت وهي جزء لا يتجزأ من حزمة تستعصي على مراقبتنا. سوف تفهمان.

سار ماكلين نحو المكتبة.

ماذا تريد أن تثبت لي؟ سألته كلاريسا.

ـ أن عالم المصادفات ليس بالبساطة التي يتم إدعاؤها حقاً.

أمسك كتاباً.

هذا مثال... بالصدفة: «بورتون ريشر، مدير مركز ستانفور للتسريع الخطي، قام سنة ١٩٧٤ باكتشاف جُسَيْم جديد أسماه PSI. وبعيداً عنه، وتقريباً في الآن نفسه، بمدينة بروكهافن على الساحل الشرقي من الولايات المتحدة، قام صموئيل تينغ باكتشاف الجسيم نفسه. وقد حصل الباحثان مناصفة على جائزة نوبل للفيزياء للعام ١٩٧٦».

فتح صفحة جديدة.

ـ الرقم ٣. هل تعلمان أنه شكل هاجساً لطوماس جيفرسون طوال حياته؟ لقد كان ثالث رئيس للولايات المتحدة. ولد يوم ١٣ أبريل سنة ١٧٤٣، كان ثالث أولاد أبيه، والثالث الذي سمي بطوماس. وشرع...

ـ الرحمة! احتجت كلاريسا. إنها أمثلة جديرة بمتكهنة بالورق رديئة. في وسعي أن أذكر مائة مثال منها.

ـ جَدِّي ويلي، لا أريد أن أجرح كبريائك، لكن يبدو لي أن مسز غراي على صواب. هل تعرف الشبه المشهور بين لينكولن وكينيدي؟

ـ بالطبع.

ـ أي شبه؟ سألت كلاريسا.

قال موركار شارحاً:

ـ لقد وقعت يدي على ذلك وأنا أبحر في الشبكة. إن في ذلك من الغرابة بقدر ما في حكاية الرقم ٣ تلك. لكن هذه المرة العدد ١٠٠ هو الذي يؤدي دوراً مهيمناً. اقتربي سيدة غراي. سوف تقتنعين بذلك بنفسك.

نقر على الملمس وبعد ثوان قليلة ظهر نص على الشاشة:

تم انتخاب أبراهم لينكولن بمجلس الشيوخ عام ١٨٤٦.

تم انتخاب جون ف. كينيدي بمجلس الشيوخ عام ١٩٤٦.

تم انتخاب أبراهام لينكولن رئيساً عام ١٨٦٠.

تم انتخاب جون ف. كينيدي رئيساً عام ١٩٦٠.

أجهضت زوجتا الرئيسين بينما كانتا تقيمان في البيت الأبيض.

تم اغتيال الرئيسين يوم جمعة برصاصة في الرأس وأمام ناظر زوجة كل منهما.

القاتلان، ، جون ويلكس بوث ولي هارفي أزفالد تم اغتيالهما قبل محاكمتهما.

فرّ بوث من مسرح وعثر عليه في مستودع.

فرّ أزفالد من مستودع وعثر عليه في مسرح، تكساس تياتر.

ولد أندرو جونسون، الذي أعقب لينكولن، عام ١٨٠٨.

ولد ليندون جونسون، الذي أعقب كينيدي، عام ١٩٠٨.

اسم ولقب كل منهما يتألفان من ثلاثة عشر حرفا.

ثم تابع موركار والمكر بادي عليه:

ـ لقد أكملتُ هذه القائمة من عندي للاستمتاع باللعبة:

جون ف. كينيدي تعرض للاغتيال في سيارة فاخرة من نوع لينكولن، من صنع فورد. وتعرض لينكولن للاغتيال في مسرح... فورد. أسبوعاً قبل وفاته كان لينكولن يقضي إجازة بمونرو، في الماريلاند. أسبوعاً قبل وفاته كان كينيدي في إجازة صحبة... مونرو، مارلين بالطبع.

هنا أطلقت كلاريسا ضحكة منشرحة:

ـ ها أنت ترى يا ماكلين، حتى حفيدك أقل سذاجة منك. ما مقدار الشخصيات التي قد تنطبق عليها هذه الترابطات المشابهة؟ هل تدري ما كان يقوله أستاذ الرواية البوليسية الذي كنت معجبة به كثيرا؟ أقصد ذلك الفرنسي غاستون لوغو. هنا أقتبس: «المصادفات من ألذ أعداء الحقيقة».

- عزيزتي، مقتبس مقابل مقتبس. إني أذكرك بكلمات السيد أينشتاين التي تفوق وزنا كلمات روائيك: «إن الإله لا يلعب بالنرد».

صمت ماكلين وعلا التذمر ملامحه.

- على كل حال، إذا كان لديك تفسير آخر يخص ما وقع، أنا مستعد لسماعه...

طوح كتابه على الشيسترفيلد وختم قائلاً:

- أشعر بالجوع، أدعوكما للغذاء.

- لو أن ذلك لا يزعجك، أود بالأحرى أن تقلني إلى غاية فندق Argyll. ظللت واقفة على رجلي منذ الخامسة صباحاً. وأصارحك القول أني في حاجة للاستراحة بعض الشيء. أريد كذلك أن أشتري بعض الأغراض. لوازم النظافة. هناك متجر ماركس آند سبانسر بالقرب من الفندق. وسوف ألحق بكما فيما بعد.

- بالتأكيد. إنه قريب من بيتي. لكن هل تعتقدين أن لديهم غرفة شاغرة؟

- إن لم تتوفر لديهم، عليهم تدبيرها. لقد تعودوا علي هناك منذ أكثر من عشرين سنة.

- اتفقنا. لكن سننتظرك من أجل العشاء هذا المساء بالبيت. سوف تكون جانيت مسرورة لرؤيتك.

- هل أنت متأكد؟ إني أعلم مقدار بغض النساء للدعوات المرتجلة.

- سوف تكون مسرورة.

ألقت كلاريسا نظرة إلى المفكرة المهملة فوق المكتب:

- هل تظن أنها ستكون بأمان هنا؟

ـ باستثناء السيدة دوسن وأنا، لا أحد يستطيع الدخول إلى مكتبي. هيا بنا، أقبِلي.

استدار نحو موركار:

ـ إذن؟ هل تريد من فضلك الابتعاد عن تلك الشاشة؟

في الوقت الذي كانت تسير فيه إثرهما، استدارت السيدة العجوز توا وانصرفت لاستعادة المفكرة ودسّتها في حقيبة يدها.

٥

أعاد العميل ويشار قراءة ملاحظاته، توجه صوب مكتب المفتش ستيوارت، طرق الباب مرتين، انتظر حتى يؤذن له ثم دخل:

ـ توصلتُ للتو بمكالمة من مفوضية كُورِي. لقد اكتشف سياح رجلاً ميتاً بجانب الطريق، على بعد ميلين جنوب المدينة. قاضي الوفيات المشبوهة في طريقه إلى هناك.

ـ حادثة سير؟

ـ لا. حسب الرقيب ماكنزي الذي هاتفني، يُحتمل أن الشخص تم قتله بطلق ناري في القفا.

زفر ستيوارت وأغلق الملف الذي كان يعمل عليه.

ـ حسناً. هيا نلقي نظرة.

لحظة بعد ذلك، كان الرجلان في طريقهما إلى كوري. السماء الزرقاء التي عمت إلى حدود تلك الساعة، بدأت تحتجب، وغيوم ضخمة آتية من الشرق كانت تسرع منذرة فوق البحر.

ـ انتهى الصيف، قال ستيوارت ساخراً.

ـ لا مجال للشكوى. لعله دام أطول من العادة. طول الصبيحة.

بغتة سأله:

ـ هل من أخبار عن مسز غراي.

ـ لا خبر.

ـ المسكينة. إنها تزحف نحو الشيخوخة بصورة سيئة. ألا تتفق معي؟ لقد انتهى المطاف برواياتها أن جعلتها تفقد صوابها. هل تظن أن العزلة هي ما يملي عليها هذا النوع من السلوك؟

ـ ممكن. أو أنها لم تتحمل الغلينمور كما يجب.

قهقه ويشار مثل طفل.

ـ إنها تسرف في الشرب، تلك العجوز. لاحِظ...

ـ لا أسمح لك، عميل ويشار! مسز غراي امرأة جليلة تستحق الاحترام.

لم يتبادلا بعدها كلمة واحدة قط إلى أن كانا على مرأى من جوقة صغيرة مجتمعة في جانب الطريق. ركن ستيوارت سيارته وترجل منها. تخطى الشريط الأصفر الذي كتبت عليه بحروف سود no trepassing، ونادى على أحد رجلي الشرطة اللذان كانا قيد الخدمة.

ـ المفتش ستيوارت.

أشار الرجل إلى الجسد الممدد بين شجيرتين.

ـ إنه على حاله حيث وجدناه.

توجه ستيوارت نحو محقق الوفيات المشتبه فيها الراكع قرب الجثة.

ـ نهارك سعيد، جورج، لم نلتق منذ زمن.

ـ مرحباً، طوماس. الأمور بخير؟

ـ العطلة بعد أسبوعين. إذن الأمور بخير. ماذا لدينا؟

ـ جنس ذكر، ٤٢ سنة، أصيب عن قرب برصاصة في الرقبة. خبرة

القذائف ستؤكد لنا ذلك، لكني أميل إلى سلاح بريتا ٩٢. لقد فجرت الرصاصة الشريان الفقري، واخترقت المحور من الجانبين، وخرجت من عضلة الرقبة النخاعية الوسيطة. لقد وجدنا غلاف الرصاصة على بعد متر واحد من هنا.

ـ ساعة الوفاة.

ـ لنقل بين الواحدة والثانية صباحاً.

ـ هل كانت لديه وثائق؟

ـ رخصة السياقة، وبطاقة هوية باسم رودي أكازي، ولد بكولرين، مقيم بمدينة دابلن. لا ريب في أنها مزورة. أن تكون قضية تصفية حسابات بين فصائل الـ IRA (الجيش الجمهوري الإيرلندي)، ليس بالأمر الذي يفاجئني.

ـ الإيرا؟ هنا؟ ذلك قليل الاحتمال. منذ سنتين تخلوا عن شعارهم: «بطاقة انتخاب في يد ومدفع رشاش في اليد الأخرى».

ركع ستيوارت قرب الجثة.

ـ هل تسمح؟

وافق محقق الوفيات المشتبه بها وأخذ يجمع أدواته.

بحذر أمسك الشرطي الرجل من كتفيه وقلبه على ظهره. وعلى الفور حدَّث نفسه بأن أوكازي هذا له وجه منفر، شبه أقرع، ملامح كامدة، عينا أرنب تحيطهما سمرة وحاجبان شقراوان. كان فيه شيء من ذلك الممثل، مارتي فيلدمان، في فيلم **Frankenstein junior**. وكانت الندبة المحفورة على طول الجبين هي ما أثار انتباهه فجأة.

كان هنا! لقد رأيته..كان رجلاً شارف على الأربعين، أقرع تقريباً. عيناه جاحظتان. ندبة تخرق جبينه.

كان حقاً الوصف الذي قدمته الروائية لجثتها المختفية. هل ذلك ممكن؟ لعلها إذن لم تكن ضحية للإفراط في شرب السكوتش ولا لمفاصلها المتعبة؟

كانت حنجرته مقطوعة والدم يسيل من جرحه.

لم تكن تلك حاله.

دماغ ستيوارت يغلي. قِطَع أحجية خفية ظهرت للتو، لكنها لا تتسق مع بعضها.

استدار نحو محقق الوفيات الذي كان يستعد للانصراف:

ـ جورج، هلا أعدت علي في أي ساعة تحدد الوفاة؟

ـ بين الواحدة والثانية صباحاً، لماذا؟

هز ستيوارت رأسه:

ـ لا شيء. أخبرني بما استجد من نتائج التشريح...

كان الغروب قد أخذ يضفي على شوارع غلاسكو صبغة الرماد. نهضت كلاريسا من فراشها. ذهبت إلى الحمام، مشطت خصلات شعرها القصيرة، بالكاد وضعت بعض المساحيق وارتدت بسرعة اللباس الذي اشترته ساعات معدودة من قبل. الصورة التي عكستها عنها المرآة المنتصبة في زاوية من الغرفة انتزعت منها كشرة عابسة: مائتان وخمسون جنيه من أجل بذلة من صوف الشيتلاند. قطعا، إن جودة الأشياء تتضاءل بقدر ما يزداد ثمنها. لقد نجحت حقاً في انتزاع خصم بعشرة في المائة من البائعة، لكن مهما يكن...

تحققت للمرة الأخيرة من ملبسها، حملت مِمْطَرَتها، ثم غادرت الغرفة.

ما إن وطأت الشارع حتى ترددت بين الذهاب سيراً على القدمين

عند ماكلين الذي لم يكن منزله بعيد جداً أو ركوب الباص. وفي الأخير رأت أن من الحكمة اختيار الحل الثاني، وتوجهت إلى أقرب محطة. لم يتأخر ٢٣ في الوصول. جلست بأول مقعد شاغر على بعد صفين من السائق.

في وقت سابق هذا الصباح، بينما كان التاكسي ينقلها صوب الجامعة لاحظت مدى تحول المدينة في بضع سنين. بنايات عصرية حلت مكان بيوت متعبة من الآجر الأحمر. منازل أنيقة تحاذي الكلايد على طوله بأكمله. معارض للفن، متاحف ومكتبات نبتت بسرعة عجيبة. وأغلب المستودعات العفنة تم تدميرها أو تعويضها بمتاجر أو مكاتب. أما عن الويست آند حيث يقيم ماكلين، وهو حي لطالما عافه الناس، فقد صار المكان الأشد جذباً. على غرار باقي مدن العالم، تتحول غلاسكو بسرعة، بسرعة مفرطة.

وفي الوقت الذي وصل فيه الباص أمام المركز الاسكتلندي للمعارض والمؤتمرات رأت انعكاس وجه على المرآة. بدا لها مألوفا. أين؟ متى صادفته؟ استدارت. رجل شاب، بملامح دقيقة، كان يجلس على يسارها. أجهدت ذاكرتها لحظة. ألم يكن هو ذاك الشخص المتنكر على نحو غريب الذي سألها عن الساعة في العبّارة؟ كان قد تخلى عن مئزره الكِيلت وعوضته بذلة برانس دوغال كاملة القطع. التقت نظراتهما. حيَّاها بحركة سريعة. لم ترد عليها. قطعا إنه فتى غريب الأطوار، حدثت نفسها.

نزلت بالمحطة الموالية، سارت زهاء مائة متر على قدميها قبل أن تلج سقيفة باب الرقم ٢٦، سوشيهول ستريت.

كان ماكلين هو من فتح لها الباب.

ـ آمل أنني لم أفرط في القدوم باكرا؟

ـ بتاتا. هيا ادخلي.

كانت المائدة قد نصبت مسبقاً في غرفة الجلوس التي تعتبر أيضاً غرفة للمعيشة. من الجانبين هناك نوافذ، ستائر صفر شاحبة تشكل بقعاً من الضوء. وعلى نحو مناقض، رغم المظهر المتنافر للديكور: ركن مريح، أريكة مستوحاة من أسلوب بوهاوس البشع، مقاعد منجدة بمخمل مانشستر، عاكسات نور من الورق المثني، لوحة مزيفة لـ Turner، ورسوم مائية تمثل مشاهد للقنص، إلا أن الجو كان دافئاً.

في زاوية من غرفة الجلوس، كان موركار يجلس القرفصاء عند جهاز هي ـ في، بسماعتين على أذنيه. من شدة انخطافه لم يرها.

ـ مرحبا، عزيزتي كلاريسا!

للتو دخلت جانيت ماكلين إلى الصالون. لكن هل كانت جانيت حقا؟ هي التي في العادة تشع نوراً وفرحاً بالحياة، كانت تبدو ذابلة.

ـ يؤسفني أن أتطفل عليكم بهذا الشكل، اعتذرت الروائية وهي تحاول إخفاء اضطرابها. لقد ألح علي وليام كثيراً.

ـ خيراً فعل. لقد افتقدناك كثيراً. تفضلي بالجلوس. استريحي. هكذا، أخيراً قررت الخروج من خدرك؟

كان الصوت منهكاً بعض الشيء.

ـ أجل. لكني لا أنوي البقاء طويلاً. لقد افتقدت خدري سلفاً، باستعارة كلمتك،

ـ هيا، هيا، بضعة أيام في دنيا الناس لن تسبب لك أي أذى.

وزاد ماكلين على ذلك قائلاً:

ـ خاصة أن لدينا ما نعمله، أليس كذلك؟

تلك المفكرة...

ضمت جانيت يديها، وهي حزينة:

ـ لقد أخبرني ويلي بكل شيء. حكاية تلك الجثة المختفية تصيب بالجنون. أظن أنك كنت مصدومة إلى أقصى حد.

مصدومة ليست سوى تلطُف في الكلام. حتى لو أمضينا حياتنا في وصف جرائم القتل، ما إن نواجه الواقع تبدو لنا الأمور مختلفة تماماً.

أومأت برأسها في اتجاه موركار:

ـ أعتقد أن صديقنا الشاب يغتني بتلك الأصوات المتنافرة التي يسميها البعض موسيقى؟

ـ أنصح لك، لن تخمني أبداً إلى أي شيء ينصتُ.

استفسرته كلاريسا بنظرة منها.

ـ باخ. أجل. منذ ساعة تقريباً، نادى عليَّ وكأن حريقاً شبَّ في الغرفة. لقد صادف في التلفزة خاتمة حفل في بث مباشر من آلبرت هول، وسألني عمن المؤلف وما إذا كانت تتوفر لدينا أسطواناته.

مال البروفسور بنظره نحو حفيده المركِّز دائماً:

ـ وهاهي النتيجة... لقد مرَّت الآن أكثر من أربعين دقيقة وهو منغمس في *القداس بنوتة «سي» الصغرى*. هل تشربين شيئا؟ ما رأيك في **لافروايغ**، عمرها عشرين سنة؟

ـ إنك تدهشني، عزيزي وليام، هل أصبحت متحضراً نهاية الأمر؟

ـ لا بل هي هدية من عميد الجامعة. إنك تعرفين أني لا أنجذب كثيراً إلى السكوتش. لا شِيء يمكنه الحلول مكان Tennent's معتقة.

ـ جعة؟ ودافئة فوق ذلك؟ يا لها من وحشية! ها كيف يغزو الإنجليز خفية أرض اسكتلندا.

هز البروفسور كتفيه وسأل زوجته:

ـ وأنتِ، حبيبتي؟

استعجلت جانيت رافضة:

ـ لا شيء. لا شيء بتاتا.

جلست على أريكة قرب كلاريسا:

ـ الأسبوع الماضي فحسب، أكملت قراءة روايتك الأخيرة. إنها رائعة، حتى أن المرء يتساءل من أين تستمدين أفكارك.

ـ الحق أقول، أنا أول من يندهش إذا حدث أن أعدتُ قراءة، في الصحافة، مقتطفٍ من جهدي المضني.

غيّرت دفة الموضوع لطرح سؤال ظل يحرق شفتيها:

ـ حدثيني عنك بالأحرى يا جانيت. هل أنت بخير؟

ـ متعبة قليلاً، لابد أن يعاني المرء من شيء ما. الأكيد أنك تعرفين قول أوسكار وايلد: «لو أنك بعد الخمسين أجريت لنفسك فحصاً شاملاً ولم يوجد فيك أي داء، لا تفرح للأمر كثيراً، فذلك لأنك ميت»: (زفرت). أمر محزن، إنها المرة الأولى هذه السنة التي لن أقوم فيها بالحج إلى **بئر الرؤوس السبعة**، كما تعلمين، إنه ذاك الذي ينظم كل سنة لاستحضار مذبحة غلينكو. مجزرة، لم تكن الوحيدة. هؤلاء الإنجليز الأعزاء لم تأخذهم بنا رحمة على مرّ القرون. حينما أفكر في أنهم لم يحرموا على رجالنا عزف آلة النفخ الموسيقية، ووضع الدرع، والخنجروالسيف فحسب، بل حتى ارتداء تنورة الترتان!

ـ أنت محقة، جانيت. لكن ذلك وقع منذ أكثر من مائتي سنة.

اليوم تغيرت الأمور. إننا ننعم رغم ذلك باستقلال مؤكد، والعظيم في الأمر، لدينا برلمان.

أتت جانيت بحركة رافضة من يدها:

- أجل، the auld ennemy، عدونا القديم، تفضل علينا ومنحنا هذه المؤسسة. فيما يخصني أعتبر أنها ذر للرماد في العيون.

فجأة أحدَّت جانيت النظر في حدقتي صديقتها وسألتها باستعجال غير متوقع:

- أجيبيني بصراحة، إننا معرضون للموت ذات يوم، أليس كذلك؟

وجلت السيدة العجوز.

- أخشى أني لم أفهم قصدك جيداً.

- هل نحن موقنون من الموت بصفة مطلقة؟

- لكن جانيت، أنتِ...

- يا له من سؤال!

متخلصاً من سماعتيه، أقبل موركار للالتحاق بهم.

- مساء الخير، قالت له كلاريسا.

مرتبكا، أسرع ليمد إليها يده.

- أعذريني، لكن ذلك السؤال...

- ما الغريب فيه؟ احتجت جانيت. ألا تكفي لحظة نسيان للموت حتى يحكم علينا بالتيه هنا إلى الأبد؟

- لا أفهم قصدك، ردَّ الفتى الشاب وهو صَعِق. كيف وسعك تخيل أن أيا كان من يكون يسعه الخلود؟ إن ذلك من الحمق تماما!

- رويدك يا ولد، شيء من الاحترام. زن كلامك.

كان الفتى الشاب يتأهب للرد لكنه صرف نظره عن ذلك حينما رأى ماكلين عائداً وبيده صينية تزينها كؤوس وقوارير.

ـ أعتقد أنك سوف تتذوقين ذلك! قال محدثاً كلاريسا وهو يصب جرعة من لافروإيغ. هل تريدين مع قليل من الماء؟

فزعت المرأة العجوز وكأن زنبوراً لسع قلبها في الصميم.

ـ الماء؟ الماء على لافرو إيغ؟ ألا تعلم إذن، بأن إغراق السكوتش من هذا النوع يعتبر جريمة؟

حدّق ماكلين في صديقته، وقبضتا يديه على خصريه.

ـ هل يسعني أن ابوح لك بسر عزيزتي كلاريسا غراي؟

ـ إني أتوقع الأسوأ.

لقد خلصها جرس الهاتف.

أخذ البروفسور المكالمة وتقريباً في الوقت نفسه ناول كلاريسا السمّاعة.

ـ لكِ.

ـ لي؟ مستحيل. لا أحد يعلم أني هنا.

ـ الظاهر أن لهذا الرجل معارفه. المفتش ستيوارت.

وهي مذهولة، أمسكت السماعة.

ـ مفتش ستيوارت؟

ـ هو بنفسه. إني آسف على إزعاجك، لكني اعتقدت أن...

ـ بحق كل القديسين! كيف عرفت أني في غلاسكو؟ وعند البروفسور ماكلين فوق ذلك؟

ـ لدي كرة الكريستال... لا. أنا أمزح. لقد حاولت مرات عديدة

الاتصال بك عبر الهاتف. وعندما لم أحصل على جواب، بت حائراً، انتقلت إلى الفيلا حيث وجدت الباب مغلقاً. بعد أن سألت بعض الأشخاص هنا وهنا، علمتُ بواسطة القس ميتشيل أنك سلكتِ طريق بروديك عند الفجر. ومن ثمة استخلصتُ أنك كنت تتأهبين لركوب العبَّارة...

ـ مرحى لك. إنك تتقدم. لكن اسكتلندا واسعة. لقد كان في وسعي الذهاب إلى إدنبرة أو إلى مكان آخر.

ـ لنقل إني وثقت فيما تبقى لي من فطنة. كنت تحدثينني مراراً عن صديقك العزيز، البروفسور وليام ماكلين. اتصلتُ بالجامعة حيث أكدت لي المدعوة مسز دوسن وجودك بالمدينة. إنك لا تغيرين أبداً من عاداتك، هناك فنادق أكثر توفيراً للراحة من آرجيل.

ـ أجل، لكن جميعها لا تقدم لي تخفيضات. لا أعتقد أنك أقدمت على هذه المطاردة للاستمتاع فقط بالتحقق من أني صاحية؟

ـ هوِّني عنك، مسز غراي. أرجوك. لا تخطئي تفسير ما هو نابع عن حسن نية. لقد أخبرتك بذلك: إني منشغل بشأنك.

ـ اهتمامك يؤثر فيَّ. الآن، قل لي ما سبب مكالمتك الهاتفية؟

عمت لحظة صمت، وكأن ستيوارت كان يرتب أفكاره:

ـ أمام ناظري الملاحظات التي دونتُها مساء أمس، بمنزلك. صححي لي إن أخطأت: «كان رجلاً شارف على الأربعين، أقرع الرأس. عيناه جاحظتان. ندبة تخرق جبينه». هل هذا حقاً هو وصفك ـ تردد ـ للضحية؟

ـ تماماً.

ازداد التوتر درجة في صوت كلاريسا.

عم الصمت من جديد، ثم:

ـ لقد عثرنا عليه. أقصد، على الجثة.

ـ ماذا؟

كانت تلك صرخة أكثر منها سؤال.

ـ أعلمنا بعض السياح أن جسداً كان ملقى بجانب الطريق بين بروديك وكوري. وما إن وصلت إلى عين المكان، لاحظتُ أن الرجل يشبه وصفك على نحو يثير الدهشة.

ـ ها أنت ترى مليّا!

ـ هه... أنا.

ـ ماذا هناك، ستيوارت؟ ألا يرضيك ذلك؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟ أن أعطيك تاريخ ميلاده ومقاس رقبته؟

ـ على ذكرك. بخصوص الرقبة...

ـ هيا تكلم إذن!

ـ الرجل الذي فحصناه، لم تكن حنجرته مقطوعة. لقد تم اغتياله حقا. *لكن برصاصة في الرقبة.*

عبر تيار صقيعي أطراف المرأة العجوز.

ـ لكن... كيف أمكن ذلك؟ هل أنت متأكد؟

ـ مسز غراي، أفهم أنه لا يوجد في نظرك أي شبه بيني وآرشيرودنبار الذي لك. لكن مهما يكن، أقِرّي أني أستطيع تمييز نصل عن رصاصة مسدس.

ـ لقد خانتني العبارة. كنت أقصد، هل أنت متأكد بأن الأمر يخص

حقاً الشخص ذاته؟ الرجل الذي عثرتم عليه يشبه حقاً من وصفته لكم؟

ـ لنقل إنه من النادر أن نقع في فارق بضع ساعات على شخصين أقرعين، يبلغان الأربعين، لكل منهما عينان جاحظتان، الجبين به ندبة، ميتان هما الاثنان، على جزيرتنا، بين الواحدة والثانية صباحاً.

ـ هل حددتم هوية الشخص؟

ـ لعل الأمر يتعلق بمن كان يدعى رودي أوكازي، مقيم بكولرين.

ـ كولرين؟ إنها تقع في ايرلندا الشمالية؟ هو سائح إذن؟ أو مندوب شركة؟

ـ جميع الفرضيات قابلة للنظر. بل إن المحقق الجنائي قد افترض تصفية حسابات بين أفراد من الإيرا.

وبما أن الروائية ظلت صامتة، سألها:

ـ من جانبك؟ لا جديد؟

كانت على وشك أن تبوح له بحكاية المفكرة، لكنها زمّت شفتيها. تلك كانت قضيتها.

ـ لا، لاشيء.

ـ حسناً، لن أتقاعس عن إخبارك إذا استجد جديد. مقام طيب في غلاسكو، مسز غراي. ولا تنسي الذهاب للعشاء عند بِيلْفْرِي. مطبخهم متعة حقيقية.

في اللحظة التي كانت تستعد فيها لإقفال السماعة، سمعت ستيورات يختم بالقول:

ـ لا تشغلي بالك كثيراً. اعلمي أن مكالمتي هذه كانت بالقدر نفسه من الود.

وضعت السماعة.

ـ ماذا يجري؟ قال ماكلين متحيّرا.

أخبرته وصوتها خافت بمعلومات ستيوارت.

صوبت جانيت نحو كلاريسا نظرة مرتابة.

ـ أخبريني يا عزيزتي... هل أنت متيقنة من أنك لا تعدين لنا رواية جديدة؟

ـ أنا روائية ولستُ قاتلة، مع أني في حياتي كلها لطالما خطرت ببالي مراراً وتكراراً الرغبة في قتل بعض الأشخاص.

ـ إنه أمر لا يصدق، لاحظ ماكلين، لقد بدت هذه القضية مثيرة للاستغراب سلفاً، والآن أجدها غير واقعية، يبدو لي...

ـ ما هو غير واقعي، قاطعته زوجته، إنه خمولك. لقد هَرِمْتَ يا وِيلِي.

ـ يا لها من ملاحظة يتسرب عسلها مباشرة إلى قلبي.

ـ أنصت إلي! أتذكر زمنا كنت تعمل فيه بمركز كمبردج للأبحاث، لا شيء في الدنيا، بما فيها أنا يا حسرة، كان يستطيع انتشالك من أعمالك. كانت نار الشغف تستوطنك، كنتَ قادراً على قضاء ليالي كاملة مكباً على رقم ولا تتخلى عنه إلا بعد الوصول إلى حل. وهنا لديك نص مشفر بين يديك، نص له علاقة بجرائم تخص أعز صديق لديك، وماذا صنعت إلى حد هذه الساعة؟ لا شيء. لقد هدرت يوما كاملاً حتى دون أن تهتم بها.

حاول الدفاع عن نفسه، لكنها واصلت بالزخم نفسه:

ـ الفضول، ويلي... الفضول يهجرك وذلك باب مفتوح على

الضجر. كنتَ ما تزال مفعما بالحياة حتى بضعة أعوام من قبل. لقد فقدتَ توهجك.

ـ إني ألفيك قاسية جداً، على بغتة.

أومأت بحركة متعبة.

ـ لستُ قاسية... واقعية.

كزَّ أسنانه وأعلن بجفاء:

ـ أرى أن نجلس إلى المائدة...

مر العشاء في جو ثقيل. يشعر المرء أن الثنائي كان متأهباً. وأصبح الجو خانقاً بحق عندما قامت جانيت، لما شارف العشاء على نهايته، بالخوض في سلسلة من الأحاديث الشاذة، تحاذي قلة الأدب. ماذا حلَّ بها؟ حتى لو كانت تسكنها روح معينة ما تصرفت بغير تلك الطريقة. منتهزة فرصة غياب مؤقت لمضيفتها، حدثت كلاريسا ماكلين على انفراد:

ـ أستسمحك عن تطفلي. أليست جانيت مريضة؟ يبدو أنها متعبة للغاية،... ومختلفة للغاية.

ـ هكذا، حتى أنت لاحظتِ ذلك...

ـ بالطبع. ماذا يحدث؟

ـ ربما إنها مريضة، اقترح موركار.

ـ لا علم لدي بشيء. زمجر ماكلين. يخال إلي أنها تنفصم منذ مدة معدودة. هل رأيتِ كيف تتعامل معي؟

ـ كما أنها لم تتناول شيئاً أثناء الوجبة كلها.

ـ الأمور هكذا منذ ثلاثة أيام. إنها ترفض كل طعام.

داعب لحيته بتوتر:

- إذا استفحل حالها، سوف آخذ موعداً عند طبيب.

- ينبغي عليك ذلك، ينبغي عليك، وليام. لا تنتظر. لا أريد أن أقلقك لكن...

أصبح صوت الروائية تقريباً غير مسموع:

- لدي شعور لا يبشر بخير.

٦

تحققت كلاريسا من ساعة معصمها. العاشرة صباحاً. لقد تأخر وليام بأكثر من ثلاثين دقيقة. لكنه تعهد بأن يحضر في الموعد؛ ثم إنه كان دائماً حريصاً على مواعيده. خطرت جانيت ببالها؛ رجت بأن لا يكون قد حدث لها مكروه. في اليوم السابق، كانت المسكينة قد انزوت في أريكتها ولم تنطق بعدها بكلمة طوال الأمسية، مكتفية بالتحديق في الفراغ وشدّ قبضتيها كما لو أن داء ما ينخر كيانها بالكامل من الداخل. هل فطنت لمغادرة صديقتها؟

اقتلعت السيدة العجوز نفسها من الشيسترفيلد وتنقلت إلى حيث النافذة المطلة على مُجمع الغيلمورهيل. لا أثر لأي مخلوق، صمت فوق طبيعي تقريباً، يخترقه بين الفينة والأخرى حفيف الريح بين أوراق الشجر.

منذ أن استيقظت، استبدت بها الرغبة في ترك هذه القضية والرجوع لسكينة لاملاش. لكن هل نامت حقا؟ أربع أو خمس ساعات، توقعها أحلام مزعجة ورؤى مبلبلة. ما الداعي للاستمرار؟ لم تعد في سن التعاطي مع هذا النوع من المغامرات. ماذا تريد أن تثبت؟ ولمن؟

ـ مسز غراي؟

أفزعها الصوت.

ليست سوى مسز دوسن.

ـ المعذرة، هل أفزعتك؟

تغاضت كلاريسا عن السؤال.

ـ هل من أخبار عن البروفسور؟

ارتسمت الدهشة على السكرتيرة أشد مما جرت عليه العادة.

ـ لقد تعرضت السيدة ماكلين لوعكة. أخبرني السيد ماكلين بذلك للتو. كان لابد من نقلها بكل استعجال إلى المستشفى...

تغير لون وجه كلاريسا.

ـ أي مستشفى؟

ـ المستشفى الجنوبي العام.

ـ العنوان؟ هل لديك العنوان؟

ـ ١٣٤٥ شارع غوفان. لقد كلفني البروفسور ماكلين بأن أخبرك أن...

انقضت السيدة العجوز على مِمْطَرتها.

واقفاً في عيادة الطبيب، شاحب الوجه، عيناه منتفختان، كان ماكلين يجد صعوبة في فهم ما يقال له.

ـ هل تقصد أن زوجتي صارت مجنونة؟

ـ لا، بروفسور ماكلين. إني لم أتحدث أبداً عن جنون.

ـ متلازمة، لقد ذكرت متلازمة!

ـ متلازمة كوتار. أجل. ليست جنوناً. إنها شكل من الذهان. والذهان هو...

ـ إني أعلم ما الذهان! كيف أمكن ذلك؟ لم أعد أعرف جانيتي. لم تعد هي زوجتي. إنها امرأة غريبة.

كبح نحيبا:

ـ لم تعد تلك هي زوجتي.

ـ قبل الرد عليك، أود أن أطرح عليك سؤالا: هل كانت السيدة ماكلين تعاني من مرض الوسواس القهري؟

ـ جانيت؟ تعاني الوسواس القهري؟أبداً. فيما يقارب أربعين سنة من الحياة الزوجية لم أتذكر أني سمعتها تشتكي من أي أمر كان. ماخلا بعض آلام الصداع النصفي. لقد كانت تتمتع دائماً بصحة من فولاذ. لماذا؟

ـ لأن متلازمة كوتار نابعة من الوسواس القهري. ثم مع مرّ الأيام يستحوذ على المرء الاقتناع بأن جسده يتحول كليا ويدرك هذا التحول بصفته تدمير، نفيُ وجودِ لذاته أو لطرف منه.

ـ نفيُ وجود؟

ـ لنَقُلْ هو نفي للذات، حيث يصل المريض إلى درجة نفي حقيقة أعضائه وجسده. ذلك أمر معقد جداً. وخلافاً للظاهر، في بعض الحالات، يضاف إلى أفكار النفي تلك اقتناع المرء بأنه اصبح خالدا، ويعم المريض قلق لا يستطيع قهره لاقتناعه بأنه لن يموت أبداً وبأنه سوف يتعذب إلى الأبد. وهذا ليس سوى مظهر من المتلازمة، إذ هناك مظاهر أخرى.

ـ هذا غير معقول! لقد كانت جانيت دوما تجسد فرحة العيش. إن من تصفُ لي هنا، هي شخصية مرضية، مستفحلة.

ـ هذه هي الحال الطبية التي توجد عليها في الوقت الراهن.

ـ أتوسل إليك، حاول أن تبصر الأمور بتعقل! أعترف بأنها منذ مدة قليلة أخذت تتصرف بغرابة، صحيح أيضاً أنها فقدت شهية الأكل، وكانت تلوذ أحياناً بخرس يذهلني، لكن ذلك حدث منذ ثلاثة أيام فحسب... ثلاثة! لا يمكن لمرض عقلي معيَّن أن يتطور بهذه السرعة! ذلك مستحيل!

ـ أوافقك الرأي، وأعترف لك أنه خلال ثلاثين سنة من العمل لم أصادف أبداً حالة مشابهة. لكن، الأدلة واضحة هنا. لقد استفسر طبيب عقلي زوجتك لمدة طويلة. وجاءت الأجوبة التي قدمتها بوضوح لا يضاهى. هل خافت يوما من الموت؟ أقصد، هل فكرة الموت كانت تشغل بالها؟

ـ لا أقل ولا أكثر من الناس السائرين إلى شيخوختهم. قد يحدث أن نتكلم في الأمر لا أكثر. ما علاقة ذلك بمرضها؟

ـ جرت العادة أن هناك اندفاع حيوي يسمح للكائن البشري بحجب فكرة موته، ومن هذا الاندفاع نستمد القدرة على العيش. والأمر مغاير بالنسبة للمصابين بمتلازمة كوتار، هؤلاء يستحوذ عليهم حرفيا أفق الأجل المحتوم المنتصب أمامهم.

ضم ماكلين وجهه بيديه:

ـ لا يسعني تصديق ذلك. لستُ طبيبا، لكن كل شيء يستعصي عليّ. كيف يعقل أن مخلوقاً لا يعاني قبل كل شيء من أي مشكل، سليم الجسدوالروح، يهوي بين عشية وضحاها إلى هذه الحال؟

ـ ما عسى أن أرد عليك بروفسور؟ لقد أخبرتك سابقا: الأمر عصي على الفهم.

ـ وما هي تكهناتك؟

ـ من السابق لأوانه إصدار حكم، سوف نحتفظ بها تحت المراقبة، وبعد ذلك ننظر في الأمر، على كل حال أؤكد لك أن حياتها ليست في خطر.

أطرق ماكلين. خواطر متضاربة تعبث بضميره. العيش دون جانيت؟ سوف يموت جراء ذلك، هذا أمر مؤكد. هَمْهَم قائلاً:

ـ أخبرني بكل مستجد، أرجوك.

ما إن تجاوز عتبة العيادة حتى هرعت كلاريسا نحوه:

ـ إذن؟

ـ إذن، إما أني أفقد عقلي، وإما زوجتي هي من فقدته.

أخبرها على هذا النحو أو ذاك بما قاله الطبيبوأسرّ إليها:

ـ طول حياتي بأكملها، جابهتُ مشاكل ملموسة ومتجانسة. هنا، يخيل إلي أني أمام معادلة تفتقد المعنى. محال أن جانيت هوت بهذه الفجائية في الحالة التي وُصِفت لي. أمر لا يقبله العقل... إنهم يخفون عني شيئاً ما.

ـ هيًا، وليام، إنك غير جاد. ما الداعي حتى يتصرف أطباء على ذلك النحو؟ إنك تعرف أن كل فرد يتعامل بشكل مختلف عند مواجهته لاعتداء و...

ـ أي اعتداء؟ البارحة صباحاً فقط كانت جانيت ما تزال بكامل عافيتها! لقد سمعت السيدة دوسنوهي تنقل لي رسالتها: «إنها تلتمس منك أن تحضر الخبز من عند ماكسوينز، والذهاب لإحضار رطل من الرنجة المدخنة من عند بائع السمك». هل تلك هي انشغالات امرأة «قلقة»، تنفي وجود أعضائها»؟ هيا، كلاريسا... أين هو حِسُّك المنطقي؟

ـ إن حس المنطق عندي يذكرني أنك منهمك في حجب الواقع. جانيت لم تكن مثلما تقول «بكامل عافيتها». إنها أبعد من ذلك. لقد أسررت إليك مساء البارحة كم أني ألفيتها متغيرة كليا. وقد كنت تشاطرني همّي.

أحنى ماكلين ظهره.

ـ أنت محقة... لم أعد أعرف شيئاً... لم أعد أعرف شيئاً.

أمسكت كلاريسا ذراعه بحركة حنونة وسحبته.

ـ تعال.

في بهو المستشفى، اقترحت عليه قائلة:

ـ يجب أن تعود إلى بيتك. حاول أن تستريح.

ـ ليس الآن. ليس على الفور. ليس لدي من الشجاعة لملاقاة البيت وهو فارغ. غرفتنا، الأغراض التي كانت تحبها...

ـ وليام صديقي، لماذا تتحدث بصيغة الماضي. إن جانيت ماتزال بيننا، حسب علمي. على كل حال، لا خيار لك سوى أن تصبروتظل متفائلاً. لأجلكما معا.

نظر إليها نظرة دامعة.

ـ أعرف أن زواجنا لم يخل من عواصف، لكن جانيت هي كل شيء بالنسبة إلي. إنك تدركين قصدي، أليس كذلك؟

عدل عن ذلك:

ـ لا، لا يسعك ذلك. لم يحدث أبداً أن عشتِ مثل هذه المدة الطويلة مع شخص محبوب.

ـ صحيح. لقد مات عني زوجي بعد ستة أعوام من الحياة الزوجية. وأعترف أني انشرحت لذلك. لكني أحببتُ قبل زواجي ـ أعتقد أني

أخبرتك بذلك ذات يوم ـ ولقد خبِرت هذا الإحساس بالفقد الذي يكسرك.

ـ المعذرة. لم أعد أعرف ما أتفوه به.

ربت بيده على كتف كلاريسا:

ـ لا تؤاخذيني على ذلك. لكني في حاجة إلى أن أظل لوحدي. سوف أرافقك إلى الفندق، أو إلى مكان آخر إن أردت ذلك. سوف نلتقي فيما بعد.

ـ حسناً. لكن، لقد نسيت شخصاً لابد أن الحيرة قد استبدت به للغاية.

ـ موركار...

ـ أجل، موركار. بعد كل شيء، إن الأمر يخص جدته. لابد أنه مصدوم.

ـ خاصة أنه كان أول شاهد على ـ بحث عن الكلمة المناسبة ـ أزمة جانيت. هو من ألفاها جالسة على الأرض بالمطبخ، منقبضة على نفسها. كان منظرها محزنا.

ـ أطرق ثم قال:

ـ أصارحك ـ وأنا أشعر بخزي عظيم ـ أنه لو لم تكن ابنتي في الطرف الأقصى من الدنيا، لحجزت لموركار في أول قطار ذاهب إلى لندن.

فكرت كلاريسا ثم بنبرة حازمة قالت:

ـ انتظرني هنا، سأغيب لدقيقة.

كانت تتوجه سلفاً نحو باحة الاستقبال. شاهدها تتحدث إلى

الفتيات المكلفات بالاستقبال ثم تنصرف إلى حجرة للهاتف. لحظة بعد ذلك، كانت عائدة بوجه منشرح.

ـ ها ما أقترح عليك. رافقني إلى بيتك. سوف آخذ موركار وأصحبه للغداء. هكذا لك أن تتصرف في نهارك مثلما يبدو لك وتستجمع قواك.

ـ هذا كرم كبير منك. كيف لي أن أشكرك؟

ـ بأن تستعيد زمام أمورك. سوف ترى. جانيت ستتغلب على هذه الأزمة. أنا مقتنعة بذلك.

أشار إلى موضع في موقف السيارات:

ـ تعالي، سيارتي ليست بعيدة.

بينما كان يفتح لها البوابة، استفسرها:

ـ لكن مع من تكلمت في الهاتف؟

استعانت بعبارة ماكرة:

ـ مع خطيبة موركار في المستقبل...

تسللت كاتلين تحت شعار الفور آسيس ودفعت الباب.

كان موركار هو أول من أبصرها.

ـ لقد وصلت صديقتك، قال لكلاريسا وهي تشير إلى المرأة الشابة التي كانت تمعن النظر في القاعة.

ـ بالفعل. لكن كيف عرفت أنها هي؟

ـ طويلة القامة، شقراء، عينان زرقاوان، نقط نمش معدودة، ملمح ذكي وسحنة ناصعة البياض. ألم تصفيها لي هكذا؟

ـ إن لديك ذاكرة قوية.

كانت السيدة العجوز تتأهب للإشارة إلى كاتلين، لكن هذه الأخيرة كانت قد رأتهما سلفاًوتتجه نحوهما.

قامت كلاريسا بواجب التعريف:

ـ أقدم لك صديقاً جديداً، موركار. حفيد البروفسور ماكلين.

ـ رحبت كاتلين بإيماءة من رأسها ولاحظت:

ـ إنهما شبيهان.

اندست قرب الروائية.

ـ كيف حالك مسز غراي؟

ـ لنقل بهذا القدر وذاك.

ـ يداك ما تزالان تتعبانك...

ـ إننا نتعود.

اقترب النادل. قدم القائمة للمرأة الشابة التي تناولتها لتضعها على الفور قرب صحنها:

ـ إني أعرف ما سأطلبه.

ـ سمك ورقائق بطاطس مقلية، كيتشاب، وكوكا.

غضنت كلاريسا جبينها:

ـ ألا تودين تناول الطعام؟ أقصد الأكل حقا؟

ـ هكذا إذن؟ السمك وبطاطس مقلية ليست طعاما؟

لم تلح الروائية.

ـ وأنت، يا ولدي؟

ـ إني متردد بين finnan - haddies و...

ـ لا؟ صاحت كاتلين. تحب ذلك؟ سمك الحدوق المغلي في الحليب؟

ـ ... أجل. لماذا؟

ـ لا لشيء. إنه الطبق الذي أمقته بشدة في هذه الدنيا. مجرد رؤية...

لَوَت وجهها بشكل رهيب ثم أمسكت فورا:

ـ أعذرني...

لم يتردد موركار أبدا:

ـ هات سمك الحدوق. وجعة «لاجي» واحدة.

ثم صوب نحو كاتلين نظرة حادة.

ـ فيما يخصني، قالت كلاريسا، سوف أكتفي بخضرة دجاج. وسأشرب ماء، ماء فحسب. أريد أن أفكر بوضوح.

ما إن انسحب النادل حتى واصلت كاتلين كلامها:

ـ خيراً فعلت حينما اتصلت بي هاتفيا. كنتُ قلقة. حاولت الاتصال بك مساء أمس وهذا الصباح أيضاً. لكن لم يجب أحد. كنت أريد الحديث معك عن جلسة عملنا الأخيرة.

ـ لا تقولي أنك محوت كل شيء!

ـ أوه! لا. لكن عند إعادة القراءة، استحضرتُ ارتيابك بخصوص موراي، أعتقد أنك على حق، قد يشك فيه القارئ باكراً جداً.

فتشت حقيبة صغيرة موضوعة بالقرب منها وأخرجت منها حوالي عشرة أوراق مرقونة:

ـ ها هي. هكذا لن أجبر على إرسالها إليك عبر البريد.

تظاهرت كلاريسا بوضعها في حقيبة يدها وتراجعت.

ـ ليس معي نظارتي، قالت وهي تناول موركار الرزمة. من فضلك هلا قرأت علي السطور الأولى؟

أتَمر الفتى الشاب:

ـ *هبطت الدرجات المؤدية إلى الطابق السفلي بأسرع ما يتيحه لها كبر سنها.*

ـ لا، مرَّ إلى الفقرة الموالية.

ـ *الآن، متران أو ثلاثة أمتار تفصلها عن المائت: إذ بدون شك، كان الرجل يحتضر.*

ـ أدنى من ذلك. بداية من «*ماذا تصنع هنا*».

ـ *كانت حنجرته مقطوعة بالتحديد أسفل عقدة الحنجور. دمه يسيل منقذفاً على نحو متقطع، منشئاً بركة أرجوانية على السّجّادة. مكابرة هلعها...*

ـ حسناً. شكراً، موركار.

استعادت الصفحات وهذه المرة دستها في حقيبتها اليدوية.

ـ ماذا هناك؟ تحيَّرت المرأة الشابة. شيء ما يزعجك؟

ـ تلك كلمة هيِّنة.

حدقت فيها كاتلين، وهي مرتبكة.

ـ إن السيدة موركار عاينت المشهد الذي أملته عليك. قال موركار شارحاً. ليس بالمعنى المجازي. لقد تم قتل رجل ببيتها، ساعات معدودة عقب انصرافك.

ممزقة بين الضحك الجنوني وعدم التصديق، بحثت كاتلين عن توكيد من كلاريسا:

ـ هل صديقك يسخر مني؟

ـ لا، إنها الحقيقة.

أخبرتها السيدة العجوز بسير الأحداث. وبقدر ما كانت تتحدث، كانت وجنتا كاتلين تميلان إلى البياض.

ـ هذا رهيب، علّقت، وهي مضطربة. وأنا التي ربما صادفتُ ذلك التعس في طريقي إلى الميناء...

ـ مستحيل. لقد انصرفتِ حوالي الساعة السادسة والنصف، وإن اعتمدتُ على دليل العبّارات فإنه نزل ببروديك في حدود الثامنة والنصف.

ـ والمفكرة؟ هل قام البروفسور ماكلين بفك شفرتها؟

ـ ليس بعد، كان ينبغي لنا فعل ذلك هذا الصباح، وكما قلتُ لك بالهاتف، إن زوجته ترقد بالمستشفى. في هذه الظروف كيف يسعنا مفاتحته عن المفكرة؟ إنه في حالة مزرية.

ـ لكن يجب القيام بذلك، صاح موركار متعجبا. إنه أمر مهم.

ـ مهم؟ لأجل من؟ قالت كاتلين مندهشة.

ـ لأجله.

ـ هل تمزح؟ زوجته مريضة. إن الحيرة تنخره. والمفكرة آخر ما قد يشغل باله.

ـ أنا أتفهم ذلك، لكن لا فائدة من اجترار المرء لحزنه. كلما فعل ذلك كلما أثّر فيه، وكلما أثر فيه كلما اجترّه.

ـ ياه! قالت مسز غراي. كل هذه الحكمة في عقل يبلغ ١٩ سنة؟ تهانيَ.

اكتفى موركار بإلحاحه:

ـ ذلك أمر مهم، لابد أن نساعد جدي ويلي.

همست مسز غراي نحو كاتلين بنبرة البوح:

ـ علاوة على أن صديقنا فيلسوف، وإضافة إلى قبوله بكمبردج، لكن تصوري أنه اكتشف شغفه بالموسيقار باخ.

ـ باخ؟ أمر عجيب.

خيل لموركار أنه تبيّن مسحة من السخرية في جوابها.

ـ عجيب؟

ـ لديَ معبودان: شارل ريني ماكنتوش ويوهان سبستيان باخ.

ـ ريني مَنْ؟

كادت المرأة الشابة تختنق:

ـ ألا تعرف ريني ماكنتوش؟

أحنت جدعها صوب جارتها:

ـ هل سمعتِ؟ وتم قبوله بكمبردج؟ ريني ماكنتوش أكبر مهندس معماري اسكتلندي في كل العصور. إنه عبقري حقيقي. هو من أرسى قواعد **الفن الجديد** بأوربا. إضافة إلى منشآته المعمارية ينبغي مشاهدة لوحاته الإشهارية، وقطع الأثاث، وبالطبع الديكورات الداخلية، خاصة صالون الشاي الشهير للآنسة كرانستون: قاعة الشاي بلون الصفصاف. كيف يصح الجهل بشخصية مثل هذه؟ خاصة حينما يكون المرء اسكتلنديا؟

ـ لأنه لا يسعنا أن نعرف كل شيء، أجاب موركار، والازدراء بادي عليه، ولأن الهندسة المعمارية لم تستهوني يوما. ثم إني متيقن بأن ثقافتك مليئة بالثغرات.

صمت لحظة ثم سأل:

ـ هل حدث أن تناهى إلى سمعك يوما قط شرودنغر؟

حملقت المرأة الشابة بعينيها، وأثارت فور ذلك ابتسامة رضا لدى موركار:

ـ ها أنت ترين... لا يسعنا أن نعرف كل شيء.

ـ اسمحا لي بأن اندس في حواركما العالِم، تدخلت كلاريسا. ما المقصود بقِط شرودنغر ذاك؟

ـ يعتبر إروين شرودنغر واحداً من آباء الفيزياء الكوانتية، لكنه اشتهر على الأخص بكونه تصور مفارقة القط بغية توضيح فساد الفيزياء الكوانتية ما إن نسعى إلى تطبيقها على أغراض معقدة تسمى ماكرومجهرية، أي حسب مقياسنا.

ـ الفيزياء الكوانتية، فضّل أرجوك؟

ـ تضع قطاً في صندوق له نافذة، في زاوية من العلبة، تضع ذرة من اليورانيوم المشع ومِكشافاً صُنعَ ليعمل مدة دقيقة واحدة، خلال هذه الدقيقة، هناك احتمال يصل إلى مائة وخمسون في المائة بأن تتفكك الذرة وتلفظ إلكتروناً، وسوف يصيب هذا الإلكترونُ المكشافَ الذي سيشغل مطرقة تكسر وعاء به سم قاتل تم وُضعه داخل علبة القط. ولنغلق العلبة، ونبدأ التجربة ولنتساءل قبل أن ننظر عبر النافذة عما إذا كان القط ميتا أو حيا.

ـ هذا سخيف هناك احتمال بمائة وخمسين في المائة بأن يكون حيا ومثلها ليكون ميتا.

ـ هه، لا. تصوري أن الفيزياء الكوانتية سوف تقول لك إن القط قبل الملاحظة هو حي وميت في وقت معا! وتقول بأن الذرة عنصر ينطبق عليه مبدأ التَّراصُف. فالجسيمات الذرية قد توجد في وقت معا في أحوال عديدة متراصفة ومتزامنة. وبالتالي فإن وضعيتان يظهر أنهما لا متناسبتان قد تصيران ممكنتان.

ثم عاجل بالقول:

ـ خذي مثلاً حكايتك الخاصة بالجثة. لو وقعتْ في العالم الكوانتي، نستطيع تصور أن القتيل كان هناك في بيتك، لكنه في آن معا كان غائبا.

هزت كاتلين رأسها، مجهدة:

ـ لم أفهم شيئاً على الإطلاق. لكن مرحى لك. شرودنغر يضاهي ماكنتوش قيمة.

ـ ماذا لو عدنا إلى باخ؟ اقترح عليها موركار.

ـ لقد سبق وأخبرتك، إني معجبة به. معجبة به لا سيما حينما أستحضر أنه ألف أعماله ـ أكثر من أربعمائة ـ وهو محاط بما يقارب عشرة أطفال لابد أنهم كانوا يصرخون في كل زوايا البيت. إنه مثال يحتذى في التركيز.

ـ الظاهر أنك محيطة بالموضوع.

ـ أنا محيطة به لأني أعزف.

ـ تعزفين باخ؟

ـ أجل، بجودة تتضاءل يوما عن يوما للأسف. لا تترك لي الدراسة الكثير من الوقت للتمرين.

ـ هيا يا أولاد، قالت مسز غراي، لقد عثرتما على شيء مشترك بينكما، شيء فريد من نوعه. أتصور أن السيد يوهان سبستيان لا يشكل جزء من معبودات جيلكم.

زوى موركار ما بين حاجبيه:

ـ مسز غراي، هل تسمحين لي بإبداء ملاحظة؟ أرى أن لديك فكرة مزرية عن الشبان. تذكرينني بخالة عجوز لأمي، تعتقد دائماً أن من تقل أعمارهم عن العشرين هم متخلفون، عاجزون عن استحسان شيء آخر غير العلب الليلية ولفافات الحشيش وطبول الطامطام.

ـ وأنا أيها الفتى، ليكن في علمك أني لا أستحسن هذا بتاتا.

ـ ماذا إذن؟

ـ مقارنتك. لا أدري ما عمر خالة أمك، لكن صفة «عجوز» لا تناسبني قطعا. مفهوم؟

ـ رسم موركار ابتسامة على وجهه:

ـ مفهوم.

ـ ماذا يصنع ذاك النادل!

وإذا به قادم. بينما كان يصُفُّ الأطباق قال موركار محدثاً كاتلين:

ـ أود كثيراً لو أنصت إلى باخ. أقصد الاستماع إلى عزفك.

ـ ذلك غير وارد! لم أفتح البيانو منذ أسابيع.

ـ لا ضير في ذلك. في وسعي التغاضي.

أصرَّ بحماسة مثيرة:

ـ حقاً، كاتلين. أود كثيراً.

مرتبكة، سمعت المرأة الشابة كلاريسا وهي تزيد على ذلك:

ـ تفضلي عليه إذن بهذه الفرصة بما أنه متمسك بها. لا يهم إن تعرضت أذناه لأذى.

ـ موافقة، قالت كاتلين مستسلمة. يوما...

ـ ولم لا بعد الغداء؟ صاح موركار. ليس هناك ما يشغلك...

ـ وما يدريك؟

رسم على وجهه ابتسامة:

ـ أنا سليل ميرلان الساحر.

٧

وأنفها لصق النافذة، كانت كلاريسا تبصر سدراً حركة الذهاب والإياب في الشارع. هناك في الأعلى تطفو جماعة من السحب، في سماء ليل لا نجوم فيه. عاصفة تتأهب. ربما ستخلص غلاسكو من تلك العباءة التي ترزح تحت ثقلها البيوت منذ بداية الليل.

ما الذي حلَّ بها؟ من أين نزل عليها هذا المِلْزَم الذي يضيق على قلبها؟ طبعا، لم يكن هذا الإحساس غريباً عنها، أليست معذبة بالولادة؟ لكن هذا المساء كان الإحساس مختلفاً، أشد نفاذاً وأشد إيلاماً كذلك. المرض المباغت الذي ألم بجانيت كانت له بالتأكيد يد في الموضوع. قبل ذلك بقليل، حينما كان وليام يعد العشاء انغمست في موسوعتها البريتانيكا: «متلازمة كوتار. هذيان النفي. قام بوصفه ج. كوتار سنة ١٨٨٠. بعد أن يستفحل لدى المريض هموم الوسواس القهري واضطرابات الحساسية العضوية، يشعر بأن أعضاءه قد تحجرت ودمرت». «حساسية عضوية، انطباع عام ناتج عن مجموع الأحاسيس الجسدية».

كانت المقالة تعدد أغراضاً أخرى تقشعر لها الأبدان: قلق باطني مخيف، ذهول، الاحساس الذاتي بالذنب، انتحار، إيذاء الذات، هواجس بصرية، في بعض الحالات قد يؤدي الشعور بالذنب

بالشخص إلى المثول من تلقاء نفسه أمام الشرطة للاعتراف بجرائم خيالية أو ذكرتها الصحافة».

أغلقت كلاريسا الموسوعة بغتة: ذلك أكبر مما تطيق تحمله.

يا لجانيت المسكينة. كل أولئك الناس الذين يعانون ونقول عنهم بأنهم لا يستحقون ذلك. سوء الحظ الذي يبطش بهذا المخلوق ويرحم غيره، بهذا الطفل وليس بأخيه. لعبة حظ بغيضة... لا ندري من يتحكم فيها ولا لأي سبب.

حدث ذلك منذ ما يقارب عشرين سنة. إنها ما تزال ترى تلك المرأة الجالسة بجوارها خلال واحدة من تلك السهرات المضجرة التي لا يعرف سرها إلا بعض الأوساط. كانت كلاريسا في قمة مجدها. وكانت تدعو إلى التفاؤل وفرحة العيش كل من يسمعها. الظاهر أن كلامها لم يقنع جارتها، خلافاً لذلك. بل إنها أظهرت عن معارضتها الشرسة لنظرتها القائمة على الأمل. وبخصوص السعادة فقد اطلقت تلك العبارة القاتلة: «عزيزتي مسز غراي، عليك أن تعلمي بأن السعادة تكتب بحبر أبيض على صفحات بيض».

لم تبن كلاريسا عن أي إصرار وأشاحت بنظرها عن مفسدة البهجة.

حينما انسحب المدعوون، ذهبت عند المضيفة لمعاتبتها. ألم يكن في وسعها أن تختار لها جارة سليطة اللسان بدرجة أقل؟

«سليطة...؟ لو أنك كابدتِ ما عانته، لكنت بقدر سلاطتها. لقد ثكلت ابنتها الوحيدة بضعة أشهر من ذي قبل؛ صبية أقفلت بالكاد سنتها العشرين. ـ في أية ظروف؟ وقعت الفاجعة في فصل الشتاء، بمونتريال. **جيلي** ـ كان ذاك اسم ابنتها ـ كانت ذاهبة للمرة الأولى بالسيارة إلى الجامعة. انزلقت المركبة على صفيحة من الجليد. صدمة

قوية في العنق. ماتت على الفور». صُعقت كلاريسا. والأشد رهبة، استرسلت مضيفتها، هو أن تلك السيارة قدمت لها هدية يومان من ذي قبل، من طرف أمها، احتفالاً بعامها العشرين».

السعادة تكتب بحبر أبيض على صفحات بيض.

لأمد طويل استحوذت هذه الفكرة على بال كلاريسا. أين نجد تفسيراً لتلك الفظائع التي تصيبنا دون تمييز؟ تبدو تساؤلات سائر الأيام صبيانية، حدثت نفسها، ورغم ذلك يصعب تحملها ما إن يتعلق الأمر بنا.

لدي اقتناع راسخ بأن تطورنا يخضع لترسيمات متناغمة، هذا ما قاله وليام. هل جانيت تدخل في عداد تلك *الترسيمات المتناغمة*؟

من الصعب تصديق ذلك.

ـ العشاء جاهز!

انتشلت السيدة العجوز نفسها من تأملها وانصرفت إلى المطبخ. ألفت موركار جالساً مسبقاً، ووليام مستغرقاً في وضع صحن مزين بشرائح لحم هائلة وسط المائدة.

بدت قسمات وجه البروفسور أقل انقباضا، وعيناه أقل انطفاء. بعد أن افترق عن كلاريسا، مشى طويلاً قبل أن يلفي نفسه في غلاسكو غرين. بعد أن رصد ركناً هادئاً في الحديقة، بمنآى عن الخيول البلدية والزوار، تهاوى إلى جذع شجرة، وإذا بحياته الزوجية تعبر ذهنه وكأنها فيلم قديم بالأسودوالأبيض. كانت تلك ساعة الحساب وكل المواعيد الفائتة. وقد استخلص من ذلك أن كل الحب الذي قد يكنه رجل لامرأة ـ مهما كان عظيماً ـ لم يكن أبداً في مستوى الحب الذي كانت النساء قادرات عليه. زوجته أحبته أكثر مما أحبها هو. لكنه كان

عازما على تعويض الوقت الضائع. سواء كانت جانيت واعية أو لا، فإنه سوف ينجح في أن يستمد من أعماقه كل العواطف الحنونة، كل الكلمات التي لم يعرف التعبير بها إلى حد الآن. إذ لهذا الغرض يجب أن تنفع المآسي: قرع ناقوس الخطر في وسعه أن يرج اليقينيات والتشكيك في كل أشكال المكتسبات.

ـ إذن يا موركار؟ استفسرت كلاريسا. كيف كانت تلك الظهيرة الموسيقية؟ ألم يخب ظنك؟

ـ بتاتا. عزفها مثير للإعجاب. أعتقد أنها كانت تكذب شيئاً ما.

ـ لا، أنا أعرف كاتلين جيداً. إنها محبة للكمال. لا تطيق للتفاهة حملا.

ـ تعمل لديك منذ مدة طويلة؟

ـ عامان تقريباً.

واصل الفتى الشاب بسؤال فيه من الفظاظة وغير متوقع من تلك الاسئلة التي كان عليماً بها:

ـ هل سبق لك أن أغرِمتِ، مسز غراي؟

رمشت السيدة العجوز:

ـ إن كنتُ قد أغرمتُ؟

ـ أجل. حينما كنتِ شابة أكثر.

جعلت البروفسور شاهداً عليها: بصراحة، حفيدك، إنه يدهشني أكثر فأكثر.

ـ ماذا عساك فاعلة... إنه من آل ماكلين.

ـ إنه أكثر من ذلك بكثير، يا عزيزي. إنه هو.

أسرَّت إليه:

ـ أجل. أحببتُ. منذ زمن سحيق. بعد الحرب.

ـ ذلك مثير للعجب..

حدقت فيه كلاريسا باستغراب. هز كتفيه برفق:

ـ ذلك صحيح. إننا لا نظن أبداً أو تقريباً أن الأشخاص...

تردد بصدد الكلمة.

ـ المسنِّين؟ أكملت كلاريسا.

ـ أوه... أجل. بعبارة أخرى أولئك الذين تجازوا مرحلة الشباب، كان في وسع كل منهم أن يحب وأن يكون محبوباً.

ـ هذه سخافة. أولا ينبغي أن تقول لي في أي مرحلة من الوجود تبتدئ الشيخوخة. هل تعتقد أن المسنين ليس لهم ماض غرامي؟ كيف خُلِقت يا ولدي؟ على الانترنت؟

ـ في حقيقة الأمر بسبب والديَّ. لقد شقَّ علي دوما تخيلهما في تلك الوضعية؟

لم يسع ماكلين إلا أن يبتسم:

ـ لا تقلق. لقد أغرمنا، نحن، المسنون. لقد أحببتُ، أحب جدتك. بشغف. ولا يساورك شك بأننا اقترفنا كل الحماقات المصنفة في موسوعات الغرام.

ثم دقق الأمر وهو يصوب للفتى الشاب نظرة حادة:

ـ اؤكد على **كل**.

احمرت وجنتا موركار بعض الشيء. ثم غير دفة الحديث بحذر.

ـ ماذا قررتما؟

ـ بشأن ماذا؟

ـ بشأن شفرة ماري ستيوارت.

ـ لا شك أنك تتوقع مني أن أتصدى لذلك، لولا مشكل جانيت. هذه اللحظة ليس لدي الرغبة ولا الشجاعة لفعل ذلك.

نظرت الروائية إلى الفتى خلسة: «الظاهر أنه لا يفتر في إلحاحه».

كان قولها سديدا.

ـ أعتقد أنك على خطأ، استرسل موركار، عليك فعل ذلك من أجل جانيت.

ـ من أجل جانيت؟

ـ هل تذكر ما عاتبتك عليه مساء البارحة؟ ثم قال من وحي الذاكرة: «كانت نار الشغف تستوطنك» وقالت أيضاً: كنت مفعما بالحياة حتى بضعة أعوام من قبل. لقد فقدت توهجك». أظن لو أنها علمت بأنك متحفز من جديد لسرّها ذلك.

وبمثابة جواب، خبّأ ماكلين وجهه بين يديه ولزم مكانه. هل كان يصلي أم أنه مستاء؟

ـ لا تبالي بكلام هذا الفتى الشاب، قالت كلاريسا مدافعة، إنه...

نهض البروفسور دفعة واحدة وغادر المائدة:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

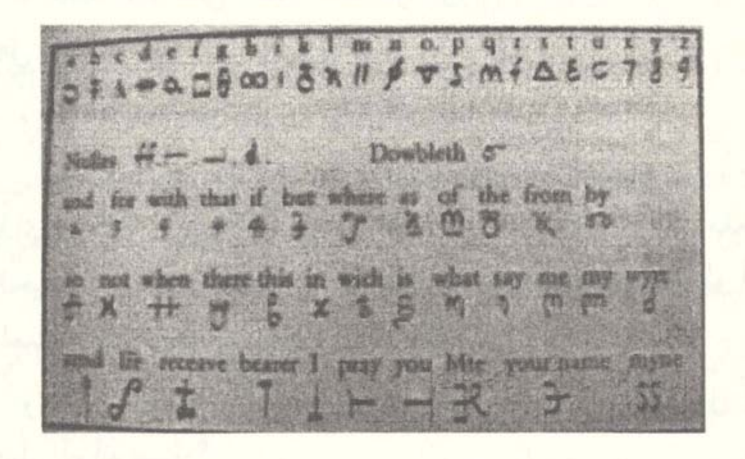
ـ إلى القبو. أستعيد سجلاّتي. سوف أخوض المعركة، أكون روبيرت بروس في بانوكبورن. ثلاثة ضد ستة!

كانت الريح الشرقية التي صاحبت المطر تصفع بقوة واجهة البناية.

ـ إنها نهاية العالم! غمغمت كلاريسا. والبرد قارس. خيراً فعلتَ

حينما أوقدت نار المدفأة. وهي تمسك قدح سكوتش في اليد، خلعت نعليها، وكانت نصف ممدة فوق أريكة المكتب. اندس موركار جوار جده وتابع بانبهار الملاحظات التي كان مستغرقاً في تدوينها بأوراق منفصلة. إلى يسار ماكلين كان هناك دفتر مفتوح تبرز فيه، مجموعة من العلامات والحروف والكلمات والعبارات المختزلة، المتراكبة. أحياناً يخال المرء أنها كتابات هيروغليفية.

وهذا ما كان يراه موركار تحديداً:



بعد انصرام حوالي ثلاثين دقيقة، جازفت كلاريسا بالقول:

ـ إذن وليام؟ هل اهتديت إلى شيء؟

لا جواب بتاتاً.

وبقدر ما كان فك الشفرة مستمراً، يخيل للمرء أن غلالة قاتمة كانت تنشر غرزها على وجه العالِم اللغوي. تجاعيده تتعمق. الجبينان اللذان يحيطان عينيه في حاله الطبيعية ينتفخان وتغطيهما ظلال أرجوانية.

حينما أراح قلمه، لم يعد ماكلين هو ماكلين نفسه، بل صار شخصاً آخر لشدة ما تبدلت خِلْقته.

اعتدلت كلاريسا في جلستها، وقد استشعرت الجو الثقيل الذي جثم على الغرفة خفية منهم.

نطقت بمشقة:

ـ وليام؟

ظل صامتا.

ـ وليام! أعادت الكرّة وقد استبد بها هلع مباغت ومحيِّر.

ـ أنا أسمعك، رد عليها وليام، وعيناه شاخصتان دائماً في الفراغ. لم أنه عملي. أستطيع القول إننا إزاء أمر خارق للعادة. وهذه كلمة لا تفي بالغرض.

اقتربت كلاريسا من المكتب.

ـ وماذا بعد؟

ـ هل تتذكرين الفكرة الأولى التي جالت بخاطرك حينما عثرتِ على هذه الصفحات؟

ـ طبعا. ظننتُ أن شخصاً ما يتلاعب بي.

ـ كل شيء يدفعني للشعور بالأمر نفسه. ورغم ذلك...

أمسك بورقة كان ينقل إليها بوضوح مقتطفات من النص المرموز:

ـ أنصحك بالجلوس وبأن تنصتي إلي بتمعن:

Tempesta unus[1]

---

(١) لأسباب قد يفهمها القارئ بيسر تمت ترجمة النص إلى اللغة الفرنسية بينما هو مكتوب في الأصل بالإنجليزية.

أخبرته عن خشيتي، أسررت إليه بمخاوفي الرهيبة. رفَض كل حججي. إنه يرفض تصديقي، ومع ذلك فأنا أعرف ابن أمْرامْ. إنه حكيم، وذو حدس. إنسان شجاع. لقد خلف لدي دائماً الانطباع بأنه شخص يمكننا الوثوق فيه. أدهشتني كثيراً ردة فعله. والآن بعد أن فارقته، أشعر أني وحيد جداً. وحيد جداً. أتساءل لماذا انفعل بذلك الشكل؟ لماذا ذلك التشاؤم؟ إنه يعرفني. إنه يخبرني. ما لم يكن ذلك تفاؤلا؟ إنه مخطئ. لقد كلَّمتُ إياه ـ هيل. إنه مقتنع مثلي: إننا في بداية الرعب فحسب.

الزمن الأول.

انتهى الاجتماع للتو. لقد تتبعت بيشوا والقاتل المأجور طول الوقت الذي كان فيه كاليبل يتحدث. من المؤكد أن عبارة القلق كانت ترتسم على ملامحه. خاصة بيشوا. هو الذي كان في العادة هادئاً جداً بدا أنه شخص تتناهبه الأهوال. لقد أضحى من العاجل أن أسأل سيدةَ ماجدَلا ويُوسِيب. ربما وافقا على مد العون لي؟ ثلاث جرائم قتل؟ بِلْبِيل، إلْمِياخ، والآن حِكَمِياهْ. على من يأتي الدور؟ من؟

الفترة نفسها.

سيدة ماجدلا على حق. للعثور على مرتكب هذه الفظائع يجب السعي للكشف عن الدافع الذي يحضه على اقتراف الجرم. لعل ابن أَمِينة، شديد المراس والحذر، شأن أهل الصحراء، يستطيع أن يسدي لي النصح في سعيي هذا؟ لكن هل سيقبل؟ لو آزرني فحسب ابن أمرام وابن بيشوا! لكن المصري متعنت! إنه ينغلق على نفسه. واليهودي يرفض الإنصات إلي. أشعر أني وحيد. وحيد جداً.

الزمن الأول .

جريمة القتل الرابعة. هذه المرة كان شيمون بازجُونا هو من عثر

على جثة مِيحاحيل. دعاني للحضور فورا. أوه! منظر تلك الحنجرة المذبوحة النازف دمها! وتلك النظرة! كيف لها أن تنسى تلك النظرة المفتوحة على الفناء، وحدقتي الرجل الممددتان، وقد خبا نورهما؟ وتعابير الوجه! أي يأس ينضح منها! يأس ورعب.

ما العمل حينما نجابه ما يستعصي سبر أغواره؟ الموت! الموت هنا! الموت!

ما مآلنا؟ أي مآل؟

هل الدور آت علي؟ أشعر أن الملزم ينغلق. ارحمنا!»

عم الصمت.

كان موركار هو المبادر:

ـ هل أدركتما شيئاً من ذلك؟ مقارنة بهذا الخليط من اللهجات الغريبة، يبدو أن النص المشفر أكثر وضوحاً، تقريباً. من يكون كل هؤلاء الأشخاص الذين أتى ذكرهم.

وبمثابة جواب، قام البروفسور باستفسار كلاريسا:

ـ كم الساعة؟

ـ إنها التاسعة والربع. لماذا؟

مد يده نحو الهاتف وركب رقماً، بعد ثلاث رنات، تردد في السماعة صوت تشوبه لكنة أجنبية رهيبة:

ـ باكوفيا في الاستماع.

ـ فاسيلي، هذا وليام ماكلين، أتمنى أن لا أكون قد أيقظتك من النوم؟

انطلقت ضحكة مجلجلة على الطرف الآخر من الخط.

ـ حتى يتم إيقاظي، ينبغي أولا أن أكون قد نِمتُ. أنت تعلم بأني أكره النوم. كل ذلك الوقت المهدور. ما عدا ذلك، كيف هي أحوالك؟

ـ أنا في حاجة إلى خدمة منك. هل تستطيع المجيء حالا؟

ـ إلى بيتك؟ هل رأيت حالة الجو؟

ـ أجل فاسيلي، إنه أمر مهم. طيب، أظن أن الأمر كذلك.

بدا أن الرجل متردد، لكن ليس لوقت طويل.

ـ حسناً، أعِدّ لي شراب «تُودِي» جيد، أنا قادم.

أغلق وليام السماعة.

ـ والآن، همست كلاريسا، هلا شرحت لي الأمر؟

تجاوز اللغوي مكتبه ومشى صوب المدفأة.

ـ إنك تعرفينني منذ أمد طويل. تعلمين أني لست شخصاً قد يستسلم لتأثير حكايات لا تصدق، ومع ذلك أقر بأني مبلبل. مبلبل لأسباب ثلاثة. يعتمد الأول على حكايتك! تلك الجثة الظاهرة والمختفية على الفور. ويتصل السبب الثاني بنسيج الأوراق ونسيج الغلاف؛ هذا دون ذكر شفرة بابينتون. وكما سبق لك ملاحظة ذلك، لأي سبب سوف يجهد شخص ما نفسه لحَبْك مثل هذا السيناريو؟ هل مخبول؟ صانع مقالب؟ يشق علي الاقتناع بذلك. وينبني السبب الثالث على ذلك الإيرلندي المغتال، الذي ذكره المفتش ستيوارت. ذلك الشبه بـ ضحيتكِ. هل ترين؟ هناك عدد مفرط من المصادفات.

ـ وأنت لا تؤمن بالمصادفات، أعرف ذلك.

حينها جاء موركار للالتحاق بهما.

ـ لكن ما الشديد التميز في ذلك النص؟

ـ لست متخصصاً في الكتب المقدسة. إلا أني أعرف على الأقل من يكون ييشوا.

ـ يسوع... أجابت كلاريسا.

ـ يسوع... زكى ماكلين ذلك. المسيح الذي دُرِّس لك. إننا نميل دوما إلى نسيان الأمر، لكنه كان يهوديا. وكلمة يسوع ليست سوى تحريف لكلمة «لِيسوس» اليونانية. لكن الاسم الأصلي هو ييشوا.

ثم عاجل بالمواصلة:

ـ هناك أيضاً ذلك الإلماع إلى سيدة ماجدلا. لا داعي ليكون المرء عالم لاهوت للتعرف عليها في ماري مادلين، التي كانت تلقب بمريم المجدلانية.

اخترق برق الغرفة. في غضون ثانية، غمرت المكتب ومضة مائلة إلى الصفرة قبل أن تندثر.

ـ حسناً، سلَّمت كلاريسا. نوافقك على بيشوا ـ يسوع، والزَّانية. ما زلت لم أر ما المزعج في هذه الخربشات، التي ليست سوى متوالية من الجمل المتنافرة والأسماء القادمة من المريخ.

ـ وجرائم القتل؟ لاحظ وليام. ماذا تصنعين بها؟

استعاد وريقة من على المكتب ثم قرأ:

«ثلاث جرائم قتل؟ يلييل، إلمياح، والآن حكمياه. على من يأتي الدور؟ من؟...»

أمالت كلاريسا خدها بازدراء:

ـ لَغْو...

ـ لغو؟ كلامك يذهلني. أين هي عبقريتك مسز غراي؟ أين حس

التحليل الذي لا يضاهى، وروح الاستنباط؟ أنا محبط منك. هذا ما يحصل حينما يعتزل المرء الناس.

ـ شيء من الاحترام، سيد ماكلين! هل أنت مدرك فحسب لهذا اللغو الذي قرأت للتو؟ طول حياتي لم أسمع بمثل هذا الهراء.

وبمثابة رد، تلا ماكلين بصوت عال:

«*أوه! منظر تلك الحنجرة المذبوحة النازف دمها! وتلك النظرة! كيف لها أن تنسى تلك النظرة المفتوحة على الفناء، وحدقتي الرجل الممددتان، وقد خبا نورهما؟ وتعابير الوجه! أي يأس ينضح منها! يأس ورعب.*

ناول الوريقة السيدة العجوز:

ـ أليس ذلك ـ تقريباً بالتفاصيل نفسها ـ هو وصفك للجثة الذي عرضته علي! تعلمين أن لدي ذاكرة فيل! أقتبس عباراتك: كانت حنجرته مذبوحة بالتحديد أسفل عقدة الحنجور. دمه يسيل منقذفاً على نحو متقطع، مخلفاً بركة أرجوانية على السّجّادة». إنها الكلمات! الكلمات عينها!

وضع اللغوي يديه على وركيه وحدّق في كلاريسا:

ـ إذن؟ لغو؟

غطى حجاب حدقتي السيدة العجوز. انتزعت الوثيقة من يدي مخاطبها وانغمست في قراءتها. حينما انتهت، رفعت ناظريها، وهي مرتبكة:

ـ من يكون ذلك الشخص الذي اتصلت به؟

ـ فاسيلي. فاسيلي باكوفيا. أستاذ تاريخ الأديان بالجامعة ويتكلم بطلاقة ست لغات، بما فيها العبرية.

ـ باكوفيا؟

ـ لقد ولد بمدينة بوخارست منذ ستين عاماً تقريباً. إنه صديقي، لكنه على الأخص عقل متقد. إجازة في الفلسفة في سن الواحدة والعشرين، دكتوراه ستة أعوام بعد ذلك. له كتب كثيرة، كما أنه جاب أنحاء أوربا زمناً طويلاً، منتقلا من محاضرة إلى ندوة؛ وذلك امتياز استثنائي حينما نعلم النظام الذي كان يسود آنذاك في رومانيا. سنة ١٩٨٥، اقترحت عليه جامعة غلاسكو منصب كرسي تاريخ الأديان. لم يتردد.

ـ وتظن أنه يستطيع مساعدتنا؟ سأله موركار.

ـ هناك حظوظ قوية. أجل.

ثم أضاف، وبصوت منخفض تقريبا:

ـ سوف نكون في حاجة إليه...

ومن جديد سمع صوت الرعد. وكاد من شدته أن يحجب جرس الباب. كان رجل في الستين يقف عند عتبة الباب. حينما رآه موركار حدث نفسه بأنه لم ير أبداً طول حياته الفتية شخصاً ضخماً وبديناً مثله. وعلاوة على ذلك كان له ذراعان وساقان قصيرة، وجه مدور أوجن، يكسوه شاربان كثان أسودان.

ـ يا له من ماخور! أقسم الرجل وهو يغلق مظلته القَطُور. يا له من مطر شديد! قل بأنك تحبني، يا ماكلين، وإلا عدتُ أدراجي.

دخل الشقة وهو يتدحرج أكثر مما يخطو:

ـ وحدها امرأة معشوقة تستحق أن نهب إليها في مثل هذا الظرف الخِراء!

ولما انتبه بغتة لوجود كلاريسا وموركار، توقف دفعة واحدة:

ـ أوه! المعذرة.

ـ لا داعي للاعتذار، يا سيدي. أنت على حق.

ثم أضافت بنصف ابتسامة:

ـ فيما يخص أدب التودد...، يا حسرة، كثيراً ما تمطر، والرجال المتوددون أضحوا قلة. إنك تستحق ميدالية على مجيئك.

قام فاسيلي باكوفيا بخطوة إلى الأمام، أمسك اليد التي ناولتها السيدة العجوز ولثمها بشفتيه وهو ينحني:

ـ فاسيلي باكوفيا. احتراماتي، سيدتي...

قام ماكلين بواجب التعارف:

ـ مسز كلاريسا غراي. من المؤكد أنك سمعت عنها.

ارتبكت سحنة الروماني.

ـ مسز غراي! أصرّ مضيفه. مؤلفة الروايات البوليسية.

ـ أ، أ... ذلك أني لا أقرأ أبداً هذا النوع من الروايات. لا أجد الوقت لذلك.

ـ لا داعي للاعتذار، سيدي، قالت الروائية.

ثم أضافت:

ـ باستثناء رواياتي، كل الروايات الأخرى لا طعم لها.

٨

بعد أن استعرض الملاحظات التي مده بها ماكلين، عبَّ الجرعة الأخيرة من مشروب السكوتش الساخن الذي صُبَّ له:

ـ ممتع، كان ذلك أول تعليق له. ممتع جداً.

بهذا القدر أو ذاك حاول أن يثبت كتلة جسمه السمين في الأريكة:

ـ ماذا أقول؟ لقد فهمت جيداً شروحاتكما. أعترف أن القضية غريبة جداً؛ أقصد على الأخص بالقول تلك الجثة المختفية وتوأمها الذي عثر عليه على بعد أميال كثيرة من لاملاش. لو لم تقع جريمة القتل تلك، تعرفان جيداً أني ما كنتُ لأصدق قيد أنملة هذه المهاترة. ومع ذلك، أنا على استعداد لأوضح لكما مضمون هذه المفكرة...

ـ الصفحات الأولى، قال ماكلين مصححاً. لم أفك سوى رموز أربعة منها.

ـ الصفحات الأولى... لم أعثر فيها على شيء إلا ما تعرفانه مسبقاً: إنها حقاً أسماء شخصيات إنجيلية. أما البقية...

وقام بحركة من يديه تؤكد على عجزه، ما لم يكن ذلك تعبير عن لامبالاة.

ـ هويتهم؟ سألته السيدة العجوز.

ـ لنأخذهم حسب الترتيب: «ابن أمرام». ليس هناك من شك ممكن... إن الأمر يتعلق بمُوشِي.

ـ موشي؟ رددت كلاريسا.

ـ **موسى**، إن أحببتِ.

ـ موسى المعروف؟

ـ لا أعلم أن هناك غيره بذلك القدر نفسه من الشهرة، سيدتي. أجل. موسى المعروف. تنبئنا التوراة أنه كان ابن **أمرامو يُوشِفِيت**. أما عن أصل اسمه، فذلك لغز في حد ذاته. منذ قرون والمفسرون يجهدون جهداً حتى يقدموا لنا تفسيراً معقولاً. لقد فرزتُ عدداً من الفرضيات، ولا تبدو لي أي منها مقنعة. والأكثر شيوعاً تتمثل في القول إن أصل الكلمة الاشتقاقي يستلهم الظروف التي تمت فيها نجاة موسى. وهكذا فإن الأميرة المصرية التي عثرت عليه في مهده المصنوع من البردي قد اختارت اسم **موشي** لأنها «خلصته من الماء». إذ تدل الكلمة العبرية **مِشِيتِي** على «المياه». وهذا التأويل مضحك، لأنه يعني أن ابنة الفرعون ـ مصرية قحة ـ كانت تتقن النحو العبري.

لقد قلت فرضيات كثيرة، ذكرته كلاريسا.

ـ أي نعم! ولن أجازف بتعدادها لكما! لكن لدي ميل خاص إلى النظرية التي قال بها فرويد، وإن كانت غير تامة. وحسب عالم النفس النمساوي الشهير، لعل الاسم موسى هو كتابة للكلمة المصرية «موزيس»، أو «مُوز»، التي تعني «طفل» أو «ابن». وهكذا يدخل ضمن القائمة الطويلة لآل ثوتمزيس، أو بثاهموزيس. وإن قبلنا بالمنهج المدنس الذي يتمثل في كسر المحرمات الإنجيلية، فإن فرضية وجود موسى ما له اسم مصري لا تبدو لي مستبعدة تماماً.

في الخارج، ضاعفت الريح من شدتها وكانت الزوابع تحدث ثورانا يصم الأذان.

- لو عدنا إلى المفكرة، اقترحت الروائية، التي بدا جليا أنها استنفدت صبرها. ماذا عن باقي الأسماء المذكورة؟

- ييشوا... ييشوا تعني في العبرية «يهوه يُخَلِّص». لو وضعنا جانبا التأويلات المفرطة، تبدو لنا قصة غير مؤكدة مثلما هو الشأن بالنسبة لأصل اسم موسى.

وثبت كلاريسا على أريكتها:

- هل تقصد بذلك القول إن يسوع لم يكن له وجود؟

كانت غاية فاسيلي أن يطمئنها:

- إن تلك الفكرة لم تدر بخلدي بتاتا. ولنقل إن وجود يسوع لم تشهد عليه سوى نصوص ليس هو من قام بتأليفها، إن الكتابة الوحيدة التي اقترفها في حياته تتلخص في كلمة خطَّها على الرمل بإصبعه.

- وما أهمية ذلك؟ اعترضت السيدة غراي. أليست تلك خاصية أغلب بناة الأديان؟ لم يخط محمد ولا موسى سطراً واحداً. وفي مجالات أخرى، نستطيع ذكر سقراط، دعامة الفلسفة الغربية، وكذلك بوذا. أ ولهذا السبب نشكك في وجودهم؟

جمع الروماني يديه حول كرشه العظيم:

- أنت محققة مسز غراي، لكن اسمحي لي أن أكون دقيقاً. إذا كانت القضية لا تطرح بالنسبة للمسلمين والمسيحيين، فإنه خلافاً لذلك، يعتبر موسى بالنسبة لليهود هو صاحب المؤلفات الخمس التي يتشكل منها العهد القديم.

ـ والأناجيل؟ قالت كلاريسا بإصرار، وأعمال الحَواريين؟ ماذا تصنع بها؟

ـ اطمئني، أنا لا أنكرها ولا أرفضها، لكن فقط باعتباري مؤرخ أديان، المبدأ عندي أن أفكر وأقيم الحجج، مثلما قد يفعل ذلك محلف بمحكمة الجنايات. الوقائع ولا شيء غير الوقائع. وحسب ما فهمت، تكتبين روايات بوليسية، أليس كذلك؟

كان ما صدر عن مسز غراي أقرب شبها إلى القرقرة منها إلى الإجابة.

ـ أفترض إذن أنه حينما تتصورين مجرمَك، فإنك تجهدين حتى تقيمي ضده براهين مادية وملموسة. والعجيب أن خادِمك هذا يتصرف بالمثل.

وأعاد الكرّة:

ـ الوقائع ولا شيء غير الوقائع. وكوني على يقين أن أغلب من جاء ذكرهم في مختلف النصوص المقدسة ما كان سيتم الاعتراف بهم من طرف محكمة جديرة بهذا الاسم. تمعني واقعة الميلاد المروية عن لوقا. إبّان حكم الملِك هيرودوس عرج الملَك جبرائيل على الناصرة وحدّث مريم ـ وهي عذراء مخطوبة لرجل اسمه جوزيف وقد أبلغ الملاك الفتاة الشابة: «لا تخافي، لأن الرّب اصطفاك. وها إنك سوف تحملين وتضعين غلاماً وتسمينه باسم يسوع».

رفع باكوفيا سبابته:

ـ تذكري: «لقد تم ذلك في عهد هيرودوس» وأضيف تدقيقاً، إذ إن الملوك الذين حملوا الاسم نفسه ليسوا قلة، وبأن الأمر يتعلق

بهيرودوس الأكبر. ويواصل لوقا، وهنا أقتبس منه: «بيد أنه حدث في تلك الأيام أن ظهر مرسوم القيصر أغسطس، القاضي بإحصاء كل الدنيا المعمورة. وقد جرى هذا الإحصاء، الأول، بينما كان كيرنيوس هو حاكم سوريا». هل تدركين أين مكمن التناقض؟

ودون أن يفسح مجال الرد لمستمعيه، استرسل:

ـ إننا نواجه معطيين تاريخيين لا يقبلان الجمع. إننا نعرف السنة، وتقريباً اليوم الذي توفي فيه هيرودوس: أسبوعاً قبل عيد الفصح اليهودي، بين يومي ١٢و١٣ مارس من العام الرابع قبل الميلاد. وقد كان ذلك بعد كسوف للشمس بقليل، أخبر عنه الكثير من الشهود العيان. أما عن كيرينيوس، فلقد كان يشغل منصبه حقاً في سوريا، لكن فحسب انطلاقاً من العام السادس أو السابع من الميلاد، وذلك تاريخ الإحصاء المذكور.

وجعل الثلاثي شهوداً على كلامه:

ـ بما أن هيرودوس مات في العام الرابع قبل الميلاد، فإن إخبار مريم لم يتم بعد هذا التاريخ، حيث قيل لنا إنه تم إبّان حكم هيرودوس. هل أنتم موافقون؟

لم يسَع ماكلين وكلاريسا سوى الموافقة.

ـ أما عن الإحصاء، فقد جرى على أقل تقدير في العام السادس من الميلاد، تاريخ تعيين كيرينيوس.

ثم أخذ نفساً قصيرا:

ـ الخلاصة: لقد بقيت مريم حبلى لما يقارب عشرة أعوام! هكذا...

ـ سيد باكوفيا، قاطعته السيدة العجوز. إنك في حضرة مؤمنة.

كاثوليكية من جهة أمي، وبروتستانتية من جهة أبي. أعترف بأني لا أمارس الشعائر، لكني مؤمنة مع ذلك. ماذا تقصد بقولك؟

أخذ الروماني يضحك:

ـ هوني عليك، لا أريد قطعاً زعزعة عقيدتك، لكني أريد فقط إثارة انتباهك إلى حقيقة أن النصوص المقدسة ممزوجة بالتناقضات والسخافات.

موركار الذي التزم حتى تلك اللحظة بالإنصات بوداعة، قرر أن يشارك في النقاش:

ـ وماذا عن الأناجيل؟ في دروس التعاليم المسيحية التي علموها لنا، شرحوا لنا دائماً أنها كانت من عمل شهود عيان. هل ذلك غير صحيح؟

ـ سؤال وجيه، يا ولدي. إن هذه الشهادات موجودة بالفعل، لكن تنقصها الدقة تماماً.

توقف ثم سأله:

ـ موركار؟ ذاك هو اسمك؟

ـ أجل.

ـ إذا يا موركار، لا بد أنك تعرف بأن خطر التحريف، بل والخيانة يلازم كل ترجمة Traduttore traditore[1] مثلما يقول الإيطاليون. شخصيا أعتقد أنه إذا كان الحواريون قد تكلموا وكتبوا بالإغريقية، فإن بنيتهم الذهنية ظلت مع ذلك أرامية قبل كل شيء. غالبا ما تكون هناك مجازفة عند التفكير داخل لغة والكتابة بأخرى.

(١) تعني حرفياً المترجم خائن، ويقصد بها أن الترجمة خيانة.

وبمشقة كبيرة انتشل عالم اللاهوت نفسه من الأريكة وقال لماكلين:

ـ لقد أصابني هذا النقاش بالعطش. أما لديك جعة؟

انصرف البروفسور نحو المطبخ، بينما نهض موركار:

ـ أظن أني سوف اذهب للنوم. جفوني تطبق على بعضها. أعترف أن هذا النقاش أصابني بالدوار.

ودَّع السيدة غراي وباكوفيا وجده ثم انسحب.

ـ إذن، استفسر عالم اللاهوت وهو يلوح ببصره نحو كلاريسا. بماذا توحي لك هذه المعلومات؟

لم تحر السيدة العجوز جوابا. كانت شاردة في مكان آخر. يجرفها سيل من الأفكار المتضاربة. بدأ كل شيء بقضية بوليسية، مشهد من المحتمل أن يكون تافها بعد كل شيء لولا اختفاء الجثة الغامض. والآن ها إن كل شيء ينسف من الداخل. ويدعوها ذلك للتساؤل عما إذا كانت تشهد بداية مغامرة شديدة التعقيد بدرجة عالية. نوع من لعبة الصبر التي ينبغي لها الكشف فيها عن كل ورقة.

مدَّت يدها نحو باكوفيا:

ـ سوف يكون ذلك لطف منك لو ناولتني الملاحظات التي دوَّنها وليام.

استجاب لها الروماني.

تصفحت الورقات بسرعة:

ـ ماذا عن «القاتل المأجور» و«ابن أمينة» و«شيمون بارجونا، وكل تلك الأسماء ذات الجزس العبراني، مثل يلييل، إلمياح، كالييل، حكمياه...؟

ـ مبدئيا، القاتل المأجور قد يكون هو يهودا، أقول مبدئيا، إذ مثلما هو الشأن بالنسبة لبعض شخصيات الملحمة الإنجيلية، فإن أصل اسمه موضع تساؤل بدوره. البعض يشتق الاسم «إسكارْيُوتْ» من اللاتينية «سِيكارِي»، قتلة مأجورون، «رجال سكاكين»، وذلك لفظ استعمله المؤرخ اليهودي جوزيف فلافيوس للإشارة إلى «المتعصبين»، وهي حركة قومية عارضت بشدة الاحتلال الروماني.

بعد أن كدّه الوقوف، ألقى باكوفيا بثقله على الأريكة وهو يزفر:

ـ آه لو علمتما مقدار معاناتي من كوني بدين بهذا الشكل. إنه كابوس حقيقي. أحياناً يخيل إلي أني أحمل ديناصوراً على كتفَّي.

ـ ابذل مجهوداً إضافياً أخيراً. من هم الآخرون؟

كان ماكلين هو من بادر إلى الجواب:

ـ إياه ـ هيل، يلبيل، إليمياح، كالييل، حكمياه، ميحاحيل. منذ مدة ليست بالقصيرة، أعلنت بعض العقول النيِّرة أن الملائكة، إن وجدت، لها بطاقة تعريف ودفتر حالة مدنية.

ـ أنا لا أفهم قصدك. الملائكة؟

ـ إياه ـ هيل، يلبيل، إليمياح، كالييل، يفترض أنها أسماء ملائكة. لقد وجدت بكثرة في الكتب الباطنية. بل إن البعض منها يذكر رتبة تلك المخلوقات المجنحة. وغني عن القول، رقمها التسلسلي وطالع سعدها.

قهقه باكوفيا.

ـ جنبني، من فضلك، التعليق على هذا الكلام الفارغ.

ـ و«ابن أمينة»؟

ـ لا شك قطعاً في أنه يرمز إلى النبي Mahomet. واسمه، **محمد**،

بالعربية، الذي يعني «المحمود»، كان متداولاً بما يكفي. وكان اسم أبيه عبد الله وأمه آمنة. ماذا يسعني قوله زيادة على ما تستطيعان أخذه من الكتب؟

أخذ نفساً قصيراً:

ـ أما عن شيمون بارجونا ذاك، فهو ليس إلا بطرس.

ـ القديس بطرس؟

ـ اسمه الحقيقي بالأحرى هو كِيفاً الذي يعني حجر بالأرامية. والاشتقاق الإغريقي هو ما أعطاه لقب بيثروس، مذكر كلمة بيثرا، «حجر».

شعرت الروائية بالاختناق. حولها، كان كل شيء يدور، يترنح. نهضت بغتة نحو ماكلين الذي كان عائداً وفي يديه جعّتان.

ـ ألا يمكنك فتح النافذة قليلا؟

ـ وهذا الطوفان؟ سوف نغرق.

صعرت العجوز خذها متذمرة وعادت للجلوس.

ـ صديقَيّ، صاح باكوفيا. إذا لم يكن لديكما سؤال آخر، سوف أغادر للنوم. أقصد محاولة النوم.

ـ سوف أسمح لنفسي بأن ألتمس منك العون مجددا، قال ماكلين. رغم تخبط هذا النص، إني عازم على مواصلة نقله. هلا قبلت؟

ـ بالتأكيد، ولو من أجل متعة اكتشاف إلى أي مدى يسعى مؤلف هذه المفكرة جرّنا خلفه.

استدار صوب كلاريسا:

ـ أليس عندك دواء ضد الأرق؟

ـ بلى، أجابت السيدة العجوز بمرح: اقرأ رواياتي.

٩

ما إن غادر البيت حتى رفعت السيدة غراي ذراعيها إلى السماء:

ـ هذا الرجل حالة خاصة، يا وليام! ومحطم أيقونات حقيقي!

ـ اعترفي على الأقل بأنه محيط على وجه أكمل بمعارفه الدينية.

لوحت الروائية بيدها في الهواء بازدراء:

ـ كل ما أريد الإقرار به هو أن في القرن السادس كانوا سيلقون به في المحرقة بسرور

ـ لا شك في ذلك. لكننا لم نعد في القرن السادس، وجاليليو وداروين، لو كانوا على قيد الحياة، لكان لهم الحق في التعبير دون أن تصيبهم اللعنة.

ـ ومع ذلك فأنا لا أستحسن كثيراً تلك الطريقة في التلاعب بالمعتقدات.

هز ماكلين كتفيه:

ـ آسف، عزيزتي، إنه لا يتلاعب. إنه رجل علم ومؤرخ. يذكر وقائع، يدرسها، ويسعى ليميز الغث من السمين. هل لي سؤالك؟

ـ تفضل.

ـ هل تقبلين أن يقال عنك، بعد موتك، كلام سخيف؟

وبنبرة ساخرة قال:

ـ مسز غراي، الروائية المشهورة، ولدت بالموزمبيق. كانت معظم رواياتها منحولة بابتذال. عرف عنها ميلها إلى النساء من جنسها، و...

ـ كفى! إنك مثير للضحك.

ـ هذا يغيظك، أليس كذلك؟ تصوري، لو كنتُ موسى أو محمد أو يسوع، لغضبتُ عند سماع هذه السخافات تقال عني.

ـ أتفق مع رأي جدي.

استدارت كلاريسا ووليام نحو عتبة الصالون حيث ظهر موركار مثل عفريت خرج من قمقمه.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ لم أستطع النوم. أشعر بصداع رهيب في رأسي.

أشارت الروائية نحوه بسبابة وعيد:

ـ لقد سمعتك!

ـ لأنك تؤمنين حقاً بكل تلك القصص عن التفاحة والأفعى والطوفان؟

ـ كفاك لغوا! هل تعرف ما هي الاستعارة؟ الحكاية الرمزية؟ إن الإنجيل يقوم على الاستعارات والحكايات الرمزية التي يجب فك شفراتها. هكذا ينبغي قراءته، وليس بالمعنى الحرفي. وليس بعدسة مِجَهر روماني ملحد.

تحققت من ساعة معصمها:

ـ الثانية صباحا!

ـ لقد فاتك الباص الأخير. سوف أرافقك، قال ماكلين.

ـ لا داعي.

ـ إذن، اسمحي لي بأن أطلب لك تاكسي.

ـ لا تفكر في ذلك! في هذه الساعة، سوف يتطلب مني ذلك عشر جنيهات على الأقل. كلا. أفضل المشي. لقد توقف المطر، والفندق غير بعيد. قليل من الهواء المنعش سيكون مرحب به. بالمقابل، سوف ألتمس منك أن تعيرني مظلة. في حالة ما إذا...

ـ إنك لا تُحتملين، قال ماكلين بتذمر.

ـ لقد ألمحت إلى صديقك أنك تأمل إنهاء فك الرموز. هل تظن أن في وسعنا اللقاء غدا؟

ـ حتما. ما إن أستيقظ، سوف أذهب لزيارة جانيت. ثم، يجب علي حضور اجتماع يرأسه العميد. في وسعنا اللقاء بمكتبي حوالي منتصف النهار.

ـ ممتاز. منتصف النهار إذاً.

ضمت إلى صدرها طرفَيْ مطريتها وانحنت بعض الشيء بفعل زوبعة. كان الإسفلت ما يزال مبللا وحدثت نفسها بأنها سوف تتلف زوج الأحذية الذي اشترته خمس سنوات من ذي قبل، بسعر الذهب، من عند مِيبول.

كانت تتقدم وفي وقت معا لم يكف موسى ويسوع والآخرون عن العدو في ذهنها.

بم ينبغي لها أن تحتفظ من هذا السيل من المعلومات؟ ما العلاقة التي قد تكون لها بذلك المجهول الذي جاء ليلقى حتفه بمنزلها في لاملاش؟ أين هي الصلة وأين يجب البحث عنها؟ تساءلت عن الكيفية التي كان آرشيرودنبار سوف يتصرف حسبها في قضية بمثل

هذا التعقيد. برودة الدم قبل كل شيء والمنهجية: الاستنطاق والملاحظة

جريمة القتل الرابعة. هل الدور آت علي؟ أشعر أن الملزم ينغلق.

من فسيفساء الجمل تلك المنتزعة من المفكرة، لم تذكر كلاريسا سوى ثلاثة أو أربعة منها.

إنه مقتنع مثلي: إننا في بداية الرعب فحسب.

بداية الرعب... هل هناك جرائم قتل أخرى في طور الإعداد؟. *للعثور على مرتكب هذه الفظائع يجب السعي للكشف عن الدافع الذي يحضه على اقتراف الجرم.*

انتبهت الروائية إلى أنها كانت تضحك خفية. الدافع؟ والمشتبه فيهم؟ والأهم من ذلك جسد وهوية الضحية. لم يكن لديها شيء. ملفها كان فارغا.

وبعد التفكير بتمعن في كل شيء، فإنها لن تخلد في غلاسكو، لكن قبل العودة فإنها ستتابع نسخ تلك المفكرة الغريبة إلى آخر مطاف. يجب عليها أن تعرف.

كان لتساقط بعض قطرات المطر على قماش مطريتها وقع مجلجل. لحسن الحظ، لم يعد الفندق بعيداً جداً. فتحت مظلة ماكلين وأسرعت الخطى.

وتقريباً في اللحظة نفسها سمع خلف ظهرها وقع خطوات مستعجلة.

أحد ما يسير خلفها.

كانت ردة فعلها الأولى هي العزم على الالتفات، لكنها لم تجرؤ.

أسرعت الخطى.

قام من يتبعها بالمثل. نظراً لثقل خطواته ولوقع كعبيه على الرصيف، لم يساورها شك في أنه رجل. كان يدنو منها.

هل كان عليها أن تواجهه؟

لا. في ذلك مجازفة كبيرة.

أسرعت الخطى.

علامة فندق «الأرجيل» المضيئة كانت بارزة الآن على بعد مائة متر تقريباً. مائة متر... مائة ميل.

شدت بيدها المظلة بقوة، خطر ببالها منظرها وهي مستغرقة في الدفاع عن نفسها بهذا السلاح المضحِك. عليها أن تهدئ من روعها. أن تحافظ على برودة أعصابها. المؤكد أنه ليس سوى شخص عائد إلى بيته في وقت متأخر بعد دعوة عشاء. لا أكثر. خمسون متراً. ثلاثون.

لم تعد تمشي، صارت تركض تقريباً.

هل كانت تسمع لهاث مطاردها أم كان ذلك نفَسُها؟

قبضتْ يدٌ على كتفها.

صرخت برعب واستدارت بمواجهته.

كان هناك رجل، لصق في العتمة. لشدة ما كان قريباً منها، كان في وسعها أن تشم بخره؛ قريب بإفراط حيث شق عليها تمييز ملامحه. ثم إنها لم تسع لذلك من فرط ما كان الرعب يغمرها.

تمتمت شيئاً ما. سمعت تهديدا.

ـ لا! صرخت. اتركني!

رجع الغريب إلى الخلف. استغلت الفرصة لتضربه بالمظلة المفتوحة بالكامل على وجهه، وهرعت نحو الفندق.

حينما وصلت إلى العتبة، اندست في الباب الدَّوار وقد كادت يداها تعلقان فيه. ظل جُون موظف الاستقبال بالليل متحيِّراً لرؤية تلك السيدة العجوز التي بدت وكأنها صادفت الموت في طريقها. منقطعة الأنفاس، تهاوت كلاريسا بين ذراعيه.

ـ ماذا هناك، مسز غراي؟ ماذا وقع؟

بين شهقتين، تمتمت الروائية:

ـ شخص ما... شخص ما...

ودون أن تلتفت، أشارت إلى الشارع بإصبعها:

ـ لقد اعتدِي علي.

ـ اعتدي عليك؟

سحبها موظف الاستقبال برفق نحو أحد المقاعد التي تزين البهو:

ـ هل أنت مصابة؟ أ تريدين أن أتصل بطبيب؟

أومأت أن لا.

ـ ربما كأس من الماء؟

رفضت على الفور.

ـ كأس براندي؟

وافقتْ.

سوف أحضرها لك.

لزمت السيدة العجوز مكانها، وعينها تحدق في باب الدخول.

في الخارج كان المطر، الذي عاد ليهطل بشدة، ينبجس على مصراعي الباب الزجاجيين.

لماذا تعرضتْ للاعتداء؟ هل اعتديَ عليها فعلا؟ وبقدر ما كان

التوتر يخف، ونبضات قلبها تستعيد إيقاعها، كانت أفكارها تزداد وضوحاً. ألم يكن هلع الساعات الأخيرة مسؤولاً عن رد الفعل الذي بدر منها؟ ومن القليل الذي تذكره، لم يكن الغريب مسلحاً. إذاً؟ لص بسيط نشال كان يستهدف حقيبة يدها؟ كلا. إن لصاً جديراً بهذا الاسم لا يبادر في اعتدائه بوضع يده على كتف ضحيته.

ـ كأسك البراندي، مسز غراي. لقد سمحت لنفسي بأن أذبت فيها قطعة سكر.

أمسكَت كأس الكونياك وأدنتها من شفتيها. وفور ذلك ظنت أنه سيغشى عليها.

«المعتدي» عليها كان يقف تحت المطر ويحدق فيها عبر مصراعي الباب. في عينيه لا يلمع بريق أية عدوانية، بل يستشف منهما ما يشبه الارتباك.

سقطت الكأس من بين يديها بينما كان الرجل يدور على عقبيه.

ـ مسز غراي! هل أصابك مكروه؟

أشارت بسبابتها مباشرة إلى الأمام:

ـ إنه... هو... إلحق به!

هرع موظف الاستقبال إلى الخارج غير مبال بالأمطار العاتية النازلة من السماء. طاف بنظرة حول الزقاق، لم يكن يتبين شيئاً، لكن ما يكفي رغم ذلك لملاحظة أنه كان مقفراً!

ـ آسف، مسز غراي، قال لما عاد أدراجه. ليس هناك أحد.

وأضاف:

ـ لعله هرب. هل تريدين أن أخبر الشرطة؟

سحبت نفسها بمشقة خارج المقعد:

ـ لا، لا جدوى من ذلك. شكراً على كل شيء، جُون. سوف أذهب للنوم.

ـ هل أنت متأكدة؟ ألا ترغبين في كأس براندي أخرى؟

لا، شكراً مرة أخرى.

عكست لها مرآة المصعد صورة وجهها. تجاعيدها الغائرة مسبقاً أصبحت محفورة أكثر، عيناها المسوَّرتان كانت تنطقان تعبا شديدا، قالت إنها الآن، على هذا النحو صارت تشبه امرأة عجوز.

ـ *من فضلك، كم الساعة؟*

ـ ٨ و ٢٥ د.

ـ صباحاً، بالطبع.

ذلك الرجل الشاب بلباس مئزر الحفل، الذي صادفته على متن العبَّارة يومان من ذي قبل... بالطبع! هو من لمحته في الباص الذي كان يقلها بداية الليل نحو بيت ماكلين. ذلك الذي سبب لها خوفاً شديداً منذ لحظات، إنه هو أيضا؟ لم يفعل سوى تعقبها كل ذلك الوقت؟ لو كانت أصغر بأربعين سنة، لكانت قد استمتعت نرجسياً باعتبار هذه المثابرة راجعة لجمال جسمها. لكن الآن! تفرست الملامح الذاوية التي كانت تعكسها المرآة. من أجل مطاردتها على هذا النحو، لا بد أن يكون ذلك الغلام عاشقاً للعتقيات. «كلما شاخت زوجتي، كلما ازداد عشقي لها». ربما هذه الكلمة الصادرة عن السِّير **مالُوان**، عالم المصريات وزوج العظيمة أغاثا كريستي كانت تبعث على الابتسام. لكن هذا المخبول لم يكن يملك شيئاً مما لدى السير **مالوان**، وكلاريسا ليست هي المسز كريستي.

فتح لها المصعد الممر نحو الرواق المؤدي إلى غرفتها.

هنيهة بعد ذلك، كانت ممددة تحت المِلاء، والنور مطفأ، يدمرها ألف سؤال وسؤال.

احتمال وجود صلة من قريب أو من بعيد لهذا الشاب بالرجل الذي جاء للموت بمنزلها أخذ يغمر تفكيرها. في هذه الحال، لماذا كان يتخذ مثل هذا السلوك المفرط؟ لماذا لا يقاربها دون مواربة، بدل الاكتفاء بتعقبها هنا وهنا؟ هل من الممكن أنه هو القاتل. لا، ذلك غير معقول.

إذن، هي صدفة؟

أطفأت مصباح السرير، وغاصت الغرفة في الظلام.

على بعد بنايات معدودة من هناك، يجلس موركار فوق سريره، لم يكن قد نام بعد. تلك الكرة الصغيرة التي استقرت باطن معدته في بداية الليل تؤلمه الآن تقريباً. لم يكن ذلك ألما حقيقياً، وإنما شيء آخر يصعب عليه الإحاطة به. في أذنيه، في بدنه تتردد بإلحاح موسيقى يوهان سبستيان. كانت تتدفق شلالا بين أصابع كاتلين، تصم الغرفة، تحجب أصداء الدنيا. ما طبيعة هذه العاطفة الخارقة؟ أين منبعها؟ لا علم لموركار بذلك. لم يكن في وسع موركار أن يعرف لأنها المرة الأولى التي أحس فيها ذلك. سيول جارفة من السكر الذي يعجزه عنه الوصف، وعلى الأخص ذلك الفقد، تلك الهوة السحيقة من الفقد.

كان يستعيد منظره، وهو واقف، يضم ذراعيه إلى صدره، خلف المرأة الشابة بالغرفة الصغيرة التي يؤثثها البيانو فقط. كان رأسها محنياً على ملامس البيانو، وعينها تشع نورا. وهو، القريب جداً منها، كان في وسعه أن يشم رائحة شعرها إن لم يكن ذلك عبق بشرتها. لا علم له بذلك. لم يكن في وسعه تمييز الفرق؛ مثلما أنه لا يستطيع أن

يحدد بيقين إن كان مصدر عاطفته الجيَّاشة مأتاه من كاتلين أم من موسيقى يوهان سبستيان.

عنف تلك الأحاسيس الجديدة هل هو مؤقت أم سوف يستمر إلى ما لانهاية له؟ وإن استمر، لن يكون رديفاً لمعاناة وحده حضور المرأة الشابة قد يخفف من وطأته. أجل. بالتأكيد. بالقرب منها، ألمه سيكون أخف. لا بد له من أن يستمر في التشبع بحضورها، بكلماتها، بصوتها، إلى أن يشفي غليل هذا العطش الغريب الذي يعمه. حينها سوف يشفى. لحسن الحظ، لن يطول انتظاره: عليهَ أن يلتقي كاتلين في حدود الظهيرة بقاعة الشاي الصفصاف. كانت هي من استعجل هذا الموعد. بعد أن أغاظها الجهل الذي أبان عنه موركار أثناء الغذاء حينما حدثته عن شغفها بماكنتوش، فقد تطوعت لسد ثغرات جهله ذاك وقد عاجلها بالقبول بأشد ما يكون الانقياد.

لم تبق إلا ساعات معدودة.

أغمض عينيه، وقد اطمئن بعض الشيء، واستسلم للنوم.

كان جرس الهاتف هو ما أيقظ كلاريسا. تلمست بحثاً عن السماعة ورفعتها.

ـ مسز غراي؟

كان الصوت غير معهود.

ـ عذراً على هذا الاتصال الباكر. كان لا بد من الحديث إليك.

ـ من أنت؟

حولت عينها صوب عقارب الساعة المشعة التي تلمع أسفل شاشة التلفاز: السادسة صباحاً.

على الطرف الأخر، رد الصوت:

ـ إنك تعرفينني... أقصد، لقد تلاقينا.

صاحت دون أدنى شك: أنت فتى العبّارة!

ـ أجل...

ـ وفتى الباص. الفتى الذي اعتدى عليّ!

ـ لا. لا. كنت أود أن أكلمك فحسب. لقد أخفتني بشدة...

ـ أنا؟

أضاءت السيدة العجوز النور:

ـ يا لوقاحتك! هل يحدث مراراً أن تتعاطى لهذا النوع من اللهو؟ ماذا تريد مني؟

ـ المفكرة... هل ماتزال في حوزتك؟

انتفضت كلاريسا بقوة:

ـ المفكرة؟ لكن... كيف وصل إلى علمك خبرها؟ من...

ـ أجيبيني، أتوسل إليك! هل المفكرة ما تزال في حوزتك؟

سمعت نفسها ترد بالإيجاب وأدركت زفرة ارتياح.

ـ لا تفارقيها بتاتا! فكي شفرتها بأسرع ما يكون. الوقت يستعجلنا، مسز غراي. كل لحظة تمر تقربنا من النهاية. **نهايتنا.**

كان يشق عليها مواكبته لشدة ما أصبحت سرعة صوته مستعجلة.

هلا أجبت عن أسئلتي من فضلك؟ علي أن أعرف من تكون. كيف تعرف بوجود هذه المفكرة. ثم...

قاطعها:

ـ تجاوزي لي ذلك، أرجوك. أن أكشف لك عن هويتي لن يفيدك في شيء. كما أنك لن تصدقيني. وإن أخبرتك لن يصدقك أحد.

ـ الرجل المقتول... هل كنتَ تعرفه؟ أجبني!

ـ أجل. كان يقرب لي جداً. بل أكثر من ذلك. لقد كان...

توقف، بحثاً عن العبارة المناسبة.

ـ اسمه؟ سارعت كلاريسا. اسمه؟

ـ غابرييل.

ـ غابرييل؟ وماذا أيضا؟

لم تكن السيدة العجوز تبحث عما يكبح جماحها. لقد كانت تصيح تقريباً.

ـ هدئي من روعك، توسل إليها الغريب. هدئي من روعك.

من الواضح أن توتر مخاطبته كان له آثار مدمرة عليه. لكنه مع ذلك وجد ما يكفي من الطاقة لمواصلة حديثه:

ـ *نحن في حاجة لمساعدة منك. لقد أخبرني غابرييل بذلك*: ربما *كان في وسع مخلوق من عالمهم السفلي أن يجد الحل...*

واستظهر مثلما يفعل كل طفل:

ـ السيدة كلاريسا غراي، ٦ غلينكير مونامور رود. لاملاش، جزيرة آران، اسكتلندا. فكي شفرة المفكرة، سوف تفهمين كل شيء. فكي شفرتها! ليس هناك لحظة تستحق الهدر. وإلا سوف يقتلنا هو جميعا وتطبق علينا الظلمات.

وختم وهو يزفر من الإجهاد:

ـ إن حياة السيدة ماكلين رهينة ذلك. أسرعي!

ـ جانيت! أوضح لي كلامك!

لم يأت أي جواب. وحل مكان صوت الغريب إشارة متواصلة من

نغمة واحدة. لقد قَطع الاتصال. ذهلت الروائية، والسماعة لصق خذها، صعقة. وقد تطلب منها الأمر ثواني معدودة حتى عادت إلى رشدها وطلبت رقم الاستقبال.

- جون؟

- نهارك سعيد، مسز غراي.

- هل تحققتَ من رقم هاتف الشخص الذي حولته إلي الآن؟ في أيامنا هذه، يبدو أن ذلك أمر ممكن.

- أخشى أنني لم أفهم القصد. عن أي شخص تتحدثين؟

- عن الشخص الذي حدَّثني للتو، اللعنة!

- المعذرة مسز غراي، لكني لو أحَوّل لك أية مكالمة. لم يتم أي اتصال هاتفي طيلة الليل.

ثم استدرك:

- أوه! مكالمة واحدة للغرفة ١١٢. وكانت عن خطأ.

بلعت السيدة العجوز ريقها بمشقة:

- هل تقصد أنه لم يكن هناك أي اتصال لأجلي؟

- لا. ولا اتصال. ثم لو أن ذلك حدث، لكنت تصرفت بأن لا أحوله لك بعد الانفعالات التي عشتها مساء أمس.

وأعادت لنفسها، وصوتها منكسر:

- لا، ولا اتصال.

وهي جالسة على حافة السرير، شدت رأسها بين يديها. كيف يستقر الجنون؟ هل يتسلل خلسة، درجانا، هل يتسلل إلى دماغنا على طريقة حصان طروادة؟

ومثل إنسان آلي، توجهت للحمام وبللت مرات عديدة وجهها بالماء العذب.

إن حياة السيدة ماكلين رهينة ذلك...

عادت إلى الغرفة وذرعتها جيئة وذهاباً. التحرر من القلق. عليها أن لا تقع في شراك الريبة. أن تفكر.

ذات يوم حينما كانت تعد روايتها بستاني **هالينغتون**، قرأت ما يلي: «*الهلوسة إدراك يفتقد للموضوع*». أمر يشبه قليلاً انقطاعا للحواس التي تدور في «الفراغ» وتبعث إلى المجالات الأخرى «الشعورية» تهييجات لم يثرها أي موضوع. *لكن هناك المفكرة*. لقد كانت «الموضوع» الذي يناقض هذا التحليل. إنها *البرهان* الوحيد على أن الأحداث التي عاشتها كلاريسا لا يمكنها أن تدخل في خانة الهلاوس.

إن حياة السيدة ماكلين رهينة ذلك...

عادت نحو الهاتف وركبت في الإطار رقم البروفسور.

أجاب بعد الرنة الأولى.

ـ ويلي ـ نادراً ما تنادي عليه باسمه المصغر ـ، هذه كلاريسا. يجب أن نلتقي فورا.

ـ ماذا حل بك؟ يبدو أنك مبلبلة.

ـ سوف أشرح لك فيما بعد. هل في وسعنا اللقاء بعد ربع ساعة من الآن في الجامعة؟

ـ مستحيل. إنك تعلمين بأن علي الذهاب لزيارة جانيت. نلتقي لاحقاً.

ـ في هذه الحال، ألحق بك في المستشفى. انتظرني.

ـ لا تذكرين ذلك، لقد أخبرتك عن الاجتماع مع العميد.

ـ ليذهب العميد إلى الجحيم! إن الأمر يخص حياة جانيت. أظن أنها في خطر.

خيمت لحظة صمت في الطرف الآخر من الخط قبل أن يجيب ماكلين:

ـ سأكون في انتظارك بمكتبي.

١٠

كان ماكلين يمشي جيئة وذهاباً، فريسة التخبط العظيم، وهو يمرر كفه على طول لحيته بتوتر.

ـ ماذا أقول لك، كلاريسا؟ إما أن هذا الرجل الشاب من صنع خيالك ـ هو الآخر ـ وإما...

ـ من صنع خيالي؟ هل لديك شك في كلامي؟ أنت؟

ـ لم أقل أبداً إني أشك فيه. أنا أتساءل، وذلك لا يعني الشيء نفسه.

استسلمت للتهالك فوق التشيسترفلد:

ـ أستحسنُ الفرق.

ـ هيا، عزيزتي، لا تكوني مفرطة الحساسية! أحاول فقط أن أكون عقلانياً في هذه الحكاية التي ليست كذلك. قبل أن تقطعي علي حبل كلامي، كنت سأذكر إمكانية ثانية: من المحتمل أن هذا الرجل الشاب موجود. وفي هذه الحال، سوف يبدو الأمر مأساوياً.

ـ لماذا مأساوي؟ سأل موركار الذي كان يجلس أمام الحاسوب.

ـ قد يعني ذلك أننا نواجه قضية أشد تعقيداً بدرجة مغايرة لما كنا نتوقعه وبأن الأمر سوف يخصنا جميعا. إن في الكلمات التي

استعملها هذا الشخص الغامض ما يكفي من البيان. ألم يصرح قائلاً: «كل لحظة تمر تقربنا من نهايتنا»؟

ـ **نهايتنا**. لقد تحدث بصيغة الجمع.

ـ وقال أيضاً: «سوف يقتلنا جميعاً وتُطبقُ علينا الظلمات». وعلى الأخص، وهذا ما يبدو في نظري أشد أهمية، لقد ذكر مرض جانيت. كان عليك أن تريها هذا الصباح. شبح... لم أعد أعرف فيم أفكر.

أشارت الروائية إلى ماكلين بأن يدنو.

ـ لنفترض أني أصبت بالشيزوفرينيا أو أن مرضاً غامضاً يعمل داخلي خلسة مني، هل تعتقد أن هذه الإصابة، حتى ولو كانت شديدة، قد استطاعت جعلي أتصور «لا شعوريا» موضوعا على هذا القدر من العِلم؟

أخرجت المفكرة من حقيبتها وأشهرتها:

ـ هل كان في وسعي أن أصنع الحبر، والورق وهذا الغلاف القبطي؟ وكتابة نص ديني، أنا التي لم أفتح إنجيلاً منذ دروسي في التعاليم المسيحية؟ هل تعتقد أن في وسعي فعل ذلك؟ وتلك الجثة الثانية التي عثر عليها المفتش ستيوارت... هل هي بدورها خلق من بنات أفكاري؟

لزم اللغوي الصمت. كل شيء يصرخ في وجهه بأن كلاريسا كانت تقول الحق، بينما في الوقت عينه، كان يصعب على عقله العلمي أن يتقبل الأمر.

ـ اللعنة! صاح موركار، أنا لا أفهمك.

اشار إلى المفكرة:

ـ أجوبتك موجودة هناك! تبلبل نفسك، وترتاب من كل شيء، بينما يكفيك أن تباشر العمل. أمر سخيف، أليس كذلك؟

استدار نحو جده.

ـ إذا كان ذلك الرجل يقول الحق وبأن حياة جانيت في خطر فعلا، إذن فإن ذلك ليس سخفاً، وإنما انعدام للضمير.

نظر ماكلين إلى حفيده مدة طويلة قبل أن يجيبه:

ـ أنت على حق. سخيف هي الكلمة المواتية.

مد يده نحو السيدة العجوز:

ـ اعطني المفكرة.

امتثلت للأمر دون أن تنبس بكلمة.

أخذ المفكرة، ثم وضعها بقوة فوق المكتب:

ـ سوف أحتاج إليك، موركار. بالنظر إلى ما وصلنا إليه سابقاً، أراهن كثيراً على أننا سنجابه من جديد أسماء توراتية أو ألفاظ غامضة. في هذه الحال سوف نحتاج مرة أخرى لإضاءات باكوفيا. حينما سوف أنتهي، أمدك بالأسماء وتنقلها إلى صديقي عبر النت. بالمناسبة، سوف أخبره.

أمسك الهاتف واتصل بالروماني. كانت المكالمة مقتضبة.

ـ أهو موافق؟ سألت كلاريسا بقلق.

ـ موافق ومسرور. لن يقر بذلك، لكنه يستمتع كثيراً بهذه الحكاية.

جلس إلى مكتبه ثم أبرز جيداً الورقة الصغيرة التي دون عليها شفرة ستيوارت بعناية فائقة:

ـ لو تقبلتما نصيحتي، اذهبا للقيام بنزهة. قد يطول هذا الأمر.

وبمثابة جواب، رمق الفتى الشاب ساعته اليدوية.

ـ ماذا هناك؟ مهما يكن، ليس لديك موعد؟

ـ بلى، بالضبط. عند الظهر. مع كاتلين.

ـ كاتلين؟ تعجبت الروائية.

ـ أجل. تريد مني أن أتعرف على أعمال ذلك المعماري الذي تعشقه. تعلمين ذلك مليا. لقد تحدثنا عنه أثناء الغذاء: ريني ماكنتوش.

نظرت الروائية إلى الفتى بتمعن. لم يكن البطء هو أول عيب في حفيد ماكلين.

ـ في هذه الحال، قالت، أتركك لصديقتك الجديدة. سوف أذهب للتجول في الحديقة. لم أستسغ أبداً دور المرافق بشكل كبير.

ـ لا تتأخر كثيراً، نصحه ماكلين.. سوف نحتاج إليك. أمنحك ساعتين، لا أكثر.

أومأ موركار إشارة صغيرة على سبيل التحية وغادر المكتب برشاقة.

ـ يا له من فتى غريب الأطوار، حفيدك ذاك، عقبت الروائية. هل كنتَ تعلم أنه مغرم بالفيزياء الكوانتية؟

طفق اللغوي يضحك:

ـ أول خبر. لم تكن الرياضيات أبداً مادته الدراسية المفضلة. مما خلف استياء أبويه، بالمناسبة.

ـ رغم ذلك، لو سمعته يحدثنا عن الإلكترونات واليورانيوم، وقط عالم فيزياء نسيت اسمه.

ـ شرودنغر؟

ـ هو ذاك.

ـ عجيب! لعله أحرز تقدما إذن!

فتح المفكرة ثم همس:

ـ هلم إلى العمل...

ـ بعد طول تفكير، قررت كلاريسا، أفضل الانتظار هنا. سوف أستلقي على أريكتك التشيسترفلد وأنتظر بهدوء حتى تفرغ.

لم يحر ماكلين جوابا. كان مستغرقاً في ملاحظاته سلفا.

ها قد وصلنا إليها، قالت كاتلين وهي تشير إلى الواجهة الخام الواقعة بالرقم ٢١٧، سوشيهول ستريت. واحسرتاه، الطابق السفلي يشغله صانع حلي. لم يكن الأمر كذلك حينما كانت البناية ما تزال في ملكية السيدة كرانستون. هيا ندخل.

وكأن قاعة الطابق الأول خرجت لتوها من آلة إرتقاء الزمن لصاحبها هـ. ج. ويلز. دفعة واحدة، يجد المرء نفسه منغمسا في قلب سنوات ١٩٠٠. كراسي ذات مسند ظهر عالي، موائد لها أقدام بزوايا قائمة، أرائك مخرمة، جدران منجدة برسومات متعددة الألوان. وبعناية فائقة رصت مصابيح وضاءة يشع منها نور شفاف كان يمنح للمجموع جوا دافئاً ورقيقاً. كل شيء هنا كان يتنفس بداية القرن العشرين.

ـ لقد رسم ماكينتوش كل شيء، شرحت كاتلين، من عاكسات الضوء إلى الملاعق. منذ افتتاحه، عرف المكان نجاحاً واسعاً ولم يكن الواحد يقتر في أداء أكثر من بِنْس لفنجان الشاي حتى يرى الناس ويروه.

ـ ممتع، عقَّب موركار على مضض. لكن ألا تعتقدين أن ذلك متقادم اليوم شيئاً ما؟

ـ متقادم؟ بتاتاً إلى الأبد. الفن، الحقيقي، لا يتقادم. إن ما تراه هنا هو إنجاز لعقل يسبق عصره بكثير. لم يكد يبلغ حينها ٢٨ سنة، وقد كان ريني مستبصراً سلفاً. عليك أن تذهب من أجل إلقاء نظرة إلى مبتكراته الأخرى. إن مدرسة غلاسكو للفنون، وأنا أكتفي بذكر واحدة منها فحسب، تعد منارة للفن المعاصر. لقد استلهمها كل المهندسين المعماريين الأوربيين. الهندسية، التكعيبية، الخطية. لقد أحاط بجميع الأشكال.

أخذت نفَساً عميقاً:

ـ أشعر أني مرتاحة البال هنا. لقد اعتقدت دوما أني كنت سأشعر بالسعادة لو عشت في تلك الحقبة.

نظر إليها الرجل الشاب خلسة. صحيح أن وجهها بدا مشرقاً.

ـ هل تأتين مراراً إلى قاعة الصفصاف.

ـ في كل مرة يسعني ذلك. وإلا أذهب إلى قاعة الشاي الأخرى، قاعة بوشانان ستريت.

أشار إلى مائدة غير مأهولة.

ـ هلا نجلس؟

ـ بكل سرور.

بينما كانت تنحني على القائمة، وجدها موركار سانحة للتحديق في تفاصيلها. وسط هذا الديكور القديم، وجهها المضاء بتلك الأنوار الناعمة، كانت تشبه تلك المرأة ذات الشعر القمحي الطويل، وهي شخصية مركزية في لوحة بوتتشيلي: ولادة فينوس. ذات يوم، منذ

أمد بعيد، رأى تلك اللوحِة، واستقرت إلى الأبد في ذاكرته. وقد تساءل مراراً هل يمكن لمخلوق من هذا النوع أن يوجد في الحقيقة.

ـ سوف آخذ الوُو لونغ، قالت كاتلين، وأنت؟

ـ لا معرفة لدي بذلك. وما الوُو لونغ؟

ـ إنه شاي أسود، مخمَّر. أفضله على الدّازجِلينْغ.

ـ أسود؟

ـ تقريباً. ابتكار صيني.

ـ مرحباً بالوُو. على كل حال، بكل صراحة لستُ شغوفاً جداً بالشاي. كنتُ أفضل جعة.

ـ آسفة. ليس هناك جعة في قاعة الشاي هذه. في المقابل، لديهم حلوى لذيذة. نطلب حلوى هاتي كيتس؟

ـ بكل فرح.

رفعت في استحياء يدها اليمنى بحثاً عن نادلة وعلى الفور شعر بأنه سجين هيئة أصابعها نصف المطوية في الاتجاه المعاكس للضوء: أصابع تمنى أن يلف عليها أصابعه؛ أصابع أراد لو يمرر عليها شفتيه ولسانه مثلما قد يفعل مسافر مغلول، يلعق كالمحموم قطرات قليلة من بركة جف ماؤها. من أين أتى هذا الألم الغامض، تلك النوازع الهائلة التي تتكشف له والتي لا عهد له بها؟ إن ما كان يربكه على الأخص هو تلك السرعة الخارقة التي هجم بها عليه ذلك السيل من المشاعر. مسامه، شرايينه، دمه، جميعها ملآنة بها. لو قدر لها أن تختفي، اختفى هو أيضاً. لو تجسدت فيه، سوف يواصل الحياة.

ـ الأمور على ما يرام؟

كبح رجفة:

ـ أجل، كاتلين، على ما يرام.

صمت مطلق يخيم على مكتب الجامعة.

بستاني منهمك في تشذيب الوشائع التي تحيط مجمع غيلمورهيل.

كانت كلاريسا تتابعه منذ مدة. للمرة العاشرة، مرر الرجل جانب يده على طول جبينه ليمسح عنه العرق. لما أضجرها ذلك المنظر، قررت الروائية العودة لقراءة الكتاب الذي عثرت عليه في خزانة ماكلين: الخطاب المرئي، للمؤلف إرنست ويلهلم فون بروك. ممل حد الموت.

وبينما كانت تبادر إلى الحركة، رأت أحداً ما يعبر المجمع ويخطو نحو البستاني. للوهلة الأولى ظنت أنه مستخدم أو ربما أستاذ. إلا أن ذلك الجسمان كان فيه شيء مألوف. وكلما دنا، صار شخصه أكثر وضوحاً. كان رجلاً شاباً، ذو قامة طويلة، ضامر، نحيل تقريباً. الآن في وسعها تبين شعره. أصهب، مجعد. همست:

ـ موركار! لكن ماذا يفعل هنا؟ هل عاد سلفاً؟

أجاب ماكلين غمغمة، وهو غارق في الوثائق.

واصلت رصد تحركات الرجل الشاب.

كان هذا الأخير قد مر بالقرب من البستاني ثم واصل طريقه ولم يتوقف. لما وصل إلى الطرف الأقصى من المُجمَّع، دخل المكان الظليل ثم اختفى.

«لن يتأخر في الصعود، قالت. لعل الضجر أصاب كاتلين من هذا الفتى المتعجرف أحياناً.

انصرفت واستلقت فوق الشيسترفيلد ثم انغمست من جديد في كتاب إرنست ويلهلم فون بروك.

حينما وضع ماكلين نقطة الِختم، كانت الساعة تقرب من الخامسة بعد الظهر.

كانت الروائية غارقة في النوم.

ـ كلاريسا، استيقظي! لقد انتهيت.

ـ إذن؟ همست، بصوت ممدود.

ـ إذن... لا شيء.

ـ ماذا تقصد قوله؟

ـ لا شيء ينير طريقنا على وجه الخصوص. لا شيء... وإلا هذا... مقطع مذهل.

كان يهم بالقراءة حينما فتح الباب مواربًا، وقد بدا منه وجه موركار.

ـ المعذرة. لقد تأخرت.

ـ لا بأس في ذلك، أجاب ماكلين. انتهيت للتو من فك الشفرة.

وسَّع الفتى مصراع الباب:

ـ لم آت بمفردي.

اختفى خلف كاتلين.

ـ آمل أني لا أزعجكما، قالت الفتاة الشابة، بقليل من الحرج. لقد أصر موركار كثيراً. لقد شرح لي أنكما عزمتما على فك شفرة المفكرة المذكورة. أقر أني لم أقدر على مقاومة إغراء ذلك. هذه القضية شديدة الغرابة.

وعاجلت بالتدقيق:

ـ إن كان حضوري يزعجكما، يمكن لي...

ـ كلا، قاطعها ماكلين، ليس هناك من أسرار دولة. تفضلي بالجلوس. سوف يرفع الستار.

قال لموركار آمرا:

ـ اجلس أمام الشاشة وقم بتدوين الملاحظات حينما أطلب منك ذلك.

والأوراق الصغيرة في يده، استدار من حول المكتب وجاء للوقوف وسط الغرفة:

ـ هل أنت مستعدة، كلاريسا؟

ـ لحظة، قالت الروائية.

سألت موركار:

ـ صحيح أنك كنتَ بالمجمع منذ ساعتين من قبل؟

ـ بالمجمع؟ لا على الإطلاق.

ـ أوَ تمزح؟ لقد مررت بالقرب من البستاني ثم سلكت طريق المكان الظليل.

ـ لا بد أنك مخطئة، مسز غراي. كنت رفقة كاتلين بقاعة شاي الصفصاف. ورجعنا معا.

توسل تأكيداً من المرأة الشابة:

ـ أليست تلك الحقيقة؟

ـ تماماً. لم نفترق ولو لحظة واحدة.

ـ ذلك مستحيل! تعجبت السيدة العجوز. كنت عند النافذة. لقد رأيته.

تبادل الفتى والفتاة إيماءة حرجة.

ـ لكن مهلا يا كلاريسا، احتج ماكلين، بما أنهما يقولان لك أنهما كانا معا. لعل نظرك خدعك. تشابه عليك مع طالب آخر.

علت رعدة شفتي الروائية. ثم لفظت بصوت مهموس:

ـ أجل. لا ريب في ذلك. لعل الأمر تشابه علي. أعذرني. وضعت يدها على ذراع ماكلين:

ـ هيّا وليام. نحن ننصت إليك...

١١

«كلاريسا غراي، أنت تقرئين لي لأني وجدتك. تقرئين لي لأنني لم أعد موجودا.

ما السبيل لتفسير ذلك؟ أين أجد الكلمات للتعبير عما يستعصي قصصه؟ كنا خالدين، منذ الأزل، وها نحن الآن على صورة مخلوقات الأكوان الأخرى. ضعاف، معرضون للعطب، سفساف تراب محكوم عليها أن لا تكون غير ذلك: سفساف تراب. هل تصرفنا بعُجب أم نحن ضحايا تعساء لتواضعنا الكبير؟ في الحالين معا، أنا، غابرييل، أصرح أني غير مذنب، سواء بالنسبة لي أو لإخوتي. لم نكن نعلم، لم نعلم شيئاً أبداً، بما أن الرّب ـ إن كان ما يزال موجوداً ـ جعلنا دائماً في عداد الجاهلين. بالمناسبة، هل سبق له أبداً أن كان موجوداً؟ أعرف أن البعض منا لا يقسم إلا باسمه، بينما لم يؤمن به آخرون أبداً. أنا، لم أعد أعرف شيئاً. نحن لوحدنا... كم نحن لوحدنا... منذ أمد بعيد والوحدة هي قدرنا.

إن من يزرع الموت في هذه الأنحاء يمتلك بالتأكيد قدرة عظيمة. المأساة، هي أننا جميعا هنا نمتلك قوة عظيمة. موشي، بالطبع، ييشوا، ابن أمينة وغيرهم. هل تسرب إليهم الشر في لحظة ضعف؟ في البدء، كنُت أشك. الآن، ترسخ يقيني بذلك وهذا اليقين يجعل نفسي تنزف.

أجل إن مَنْ يَقتل له قدرة عظيمة، وإلا كيف نفسر أنه أصبح سيداً على الموت، وجعله خاضعا له، ومن يدري، أسيراً لديه؟ يغمرني النفور. النفور والخوف. لأني خائف منذئذ، ليس من أني سوف أموت، بل لأني سأرحل باكراً قبل أن أجد حلاً للسر الذي يأبى الوصف. سر حضور الكواكب وفتحات الكون، سر تلك البوابات المفعمة بالسواد، والتي لن تخبرني أبداً إلى أين ونحو ماذا تقودنا، ونحو من. لن أعرف أبداً ما تحويه تلك المدافن في بطن المجرات، ولا من أين تنبعث وشوشة الرميم تلك التي تزحف منذ الأبد في الصمت.

لن أختبر الحياة الدنيا وتمزقاتها، ولا مصير الإنسانية. سوف أموت وأنا مقيم على جهلي أشد مما كنتُ عليه يوم خلقي، أشد فقراً من العهد الأول حيث وهبني صورة وهو ينطق اسمي.

متى؟ في أي وقت سيبرز عدُوي؟

رغم ذلك، لم يسبق أبداً أن تهاونتُ، لقد خضعتُ مثل كلب مطيع، يحن للمداعبة. أكيد أنه ليس لدي مزايا، لأن التمرد عندي مجهول، وكل فكرة سلبية عني غريبة. خلقتُ لغاية وحيدة لا سواها: أن أخدمه، لقد خدمته. آه كم خدمته! وكان حماسي حارقاً يكفي معه أن أضع يدي على النجوم لأراها تشتعل على الفور.

عشية موته، بث لي رفائيل شكوكه.

رفائيل، كان ضهيي. نَفَسي، سعتي.

لقد تم اغتياله، مثلما فُعِلَ بالآخرين.

كنّا عشرة، لم نعد سوى ثلاثة: دانيل، ساميل، وأنا.

وأوقاتنا معدودة. الآن، لا خيار لدي سوى أن أخرق القوانين

وأتخذ مظهراً بشرياً مثلما صنعتُ في عهود أخرى. أعلم أن النتائج سوف تكون مرعبة. لكن مقابل هذا الثمن فحسب، يا كلاريسا غراي، سوف تصلك ملاحظاتي. ثمن حياتي».

توقف ماكلين، الوقت الذي يقيم فيه أثر قراءته، ثم استرسل:

«الزمن الأول.

لقد اكتشفت أمراً يبدو لي من الأهمية الكبرى بمكان. أمر لشدة ما يقلب الكيان فإن نفسي ترفض تقبله. لشدة ما هو مرعب فإن موتي يغدو مأمولا. ولسوف أناديه بكل ما أوتيت من قوة الصراخ.

علي التأكد منه بوضوح تام. هل يسمح لي الوقت فحسب؟

كل شيء سيكون في العدد ١٩ والتوأم في ٠,٨٠٩».

عم الصمت من جديد.

ترقب البروفسور رد فعل كلاريسا.

- هذا كل ما في الأمر؟

- لا، قبل هذا المقطع الذي قد أصفه بالاستهلال، هناك مجموعة من الشروح المقتضبة المكتوبة بالصيغة نفسها التي في المقاطع المقروءة:

الفترة نفسها.

لا يريد يهودي طرسوس أن يفهم شيئاً. المغفل على الدوام، لديه اقتناع راسخ بأن جرائم القتل هذه ليست من تدبير شخص واحد، وإنما هي من صنع أشخاص كثر. إنه يخطب على مسامع الناس بأن يهودا وأهله هم المذنبون. رد فعله ذاك لا يباغتني. لطالما كان هذا المرتد حانقاً على الإثني عشر.

الفترة نفسها.

إدوم يتهم «من كافح الرَّب بقوة» والعكس بالعكس. متى ستتوقف هذه التناحرات بين الإخوة؟ لقد سئمتُ. إنها دائماً صراعات المصالح نفسها التي تتواصل عبر الأزمنة.

الفترة نفسها.

لقد ثارت ثائرة ابن آمنة. لم يستسغ الشتيمة المغلفة بالكاد التي رماه بها يهودي طرسوس بخصوص ما لا أدري. بسرعة تصاعدت اللهجة خاصة حينما سأله اليهودي تأكيد الأحاديث التي يفترض أنه خاطب بها الناس جهراً في الوقت الذي كان يقيم فيه بمكة والمدينة، وقد أكد ابن آمنة كلامه:

ـ أجل، لقد قلت بحق هذا الكلام. قلتُ بحق: «تقاتلون اليهود، فتسلطون عليهم، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول الحجر: يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله».

الزمن الأول.

ما يزال التوتر محتدماً بين اليهودي وابن آمنة، وقد دحض هذا الأخير بشدة أن يكون يوما من المحرضين على الجهاد وليثبت حسن نيته ذكره بالجواب الذي رد به يوما على عائشة، أصغر زوجاته، حينما سألته قائلة: «يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال المحمود: لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور».

رد يهودي طرسوس بحنق شديد: «افتراء! أنت كذاب!».

في هذه اللحظة بالضبط حال ييشوا دون الرجلين وأشار بسبابته إلى الطرسوسي آمراً إياه بالصمت. كانت ملامحه مرعبة، يخيل للمرء أن الشرر يتطاير من حدقتيه. «كفى! يا سليل الخونة، يا مغتنم الفرص الشقي!» اكتفى اليهودي بأن سدد نحوه نظرة كلها ازدراء ثم توارى.

ينبغي علي القول إن ابن آمنة ينعم برضا ييشوا منذ اليوم الذي قال فيه لأحد أتباعه «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله».

ولعل ييشوا قد سُرَّ بهذا الجواب. وهذا أمر طبيعي، حينما نعلم ما نعرف عنه.

الفترة نفسها.

لقد عاتبت المجدلانية ييشوا بحدة لأنه انحاز في الدفاع عن رجل مكة. صرخت فيه، كيف يسعك الانحياز إلى جانبه وهو القائل: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل، فذلك من نقصان عقلها. فإن لم يكونا رجلين، فرجل وامرأتان».

وخلافاً للمتوقع، رد ييشوا بغضب: إنه محق.

الفترة نفسها.

يعملان ما في الوسع حتى لا يلتقيان. لكن هناك، لم يستطيعا تفادي بعضهما. إني أقصد بذلك الحديث عن زوجتي الشيخ ابراهام: سارة وهاجر. كان المشهد مرعباً. وأرفض أن أنقل هنا العبارات التي تبادلتاهما. وقد كان ولد كل منهما ـ إسماعيل وإسحاق ـ مجبراً على التدخل للتفريق بينهما. لكن الأمر لم يكن سهلا.

الفترة نفسها.

للمرة الأولى، رفع موشي يده على هارون. لو كان بالقرب منه سلاح ما لانقلب العراك بينهما إلى مأساة. يجب علي الإقرار بأن حفيظة المصري راسخة. أنا على يقين أن ما شجر بينهما يفوق قصة العجل تلك، ولو أن موشي، في هذا الصدد، لا يترك مناسبة تمر

دون أن يذكر بخيانة أخيه. سعيت جاهداً لاستنطاقهما، لكنهما لاذا بخرس مطلق.

أتساءل إن لم يكن كل هؤلاء الناس قادرون على القتل...؟.

ـ ها أنتم ترون، ختم ماكلين. صرتم تعلمون كل شيء.

توجه بالكلام إلى موركار:

ـ أنقل هذه الأسماء إلى باكوفيا: يهودي طرسوس، هارون، إدوم، هاجر، سارة، إسماعيل، إسحاق، «من كافح الرَّب بقوة». وفي أعقاب ذلك، اسأله إن كان بالصدفة يعني له الرقمان ١٩ و٠,٨٠٩ فكرة ما.

استدار نحو كلاريسا:

ـ إذن؟ ما رأيك في ذلك؟

ـ وكيف تتصور أن يكون رأيي؟ لو أني فقدت عقلي بالكامل، أقول لك إننا إزاء يوميات شخصية تدعى غابرييل، تصف مجموعة حوادث (ترددت قبل أن تهمس بصوت خفيض) تقع في الجنة.

ـ وهذا انطباعي أيضاً. ومن ثمة من غير المستبعد استنباط أن مؤلف هذه المفكرة مخادع مرح.

ـ تمهلا! صاح موركار. لقد توصلت للتو بأجوبة السيد باكوفيا. أقبلا.

اقترب الثنائي، الذي لحقت به كاتلين، من الحاسوب. كانت الشاشة تعرض رسالة الروماني:

من: BACOVIAVASILE BACOVIA@MAILCOM. SC

بتاريخ: الاثنين ٢٠ يونيو ٢٠٠٢، س ١٧ و٤٥ د

إلى: WMACLEAN@GLASGOWUNIV. SC

الموضوع: رجفة الهذيان.

صديقيّ العزيزين

آمل أنكما تستمتعان مثلي. لا أعرف أين توجد باحة الاستراحة، لكن هل لذلك أهمية حقيقة؟

يهودي طرسوس. لا يسعه أن يكون غير شاول، المعروف باسم القديس بولس، وهو شخصية يحوم حولها سجال كبير. بل إن نفوذه بصفته حواري قد كان مثار نزاع شديد حتى وسط الطوائف النصرانية التي كان قد أسسها.

إِدوم. إنه عِيسُو. لُقِّب بـ إدوم (الأحمر) من العبرية دَمْ (الدم) لأنه كان أشقرا. ويجعل منه التقليد جدًّا للأدوميين، شعب الصحراء الواقعة بين البحر الميت وخليج عقبة. ابن إسحاق وربيكا، كان هو أخ يعقوب التوأم، أكبر منه حسب الكتاب المقدس. ويحكى أن يعقوب انتزع منه البُكورية مقابل طبق من العدس.

من كافح الرّب بقوة. إسرائيل بالعبرية. يتعلق الأمر بالماكر الصغير، أخ عيسو. وقد أخذ اسمه من عراكه ذات ليلة مع مَلَك أرسله إليه الرب. ما لم يكن مع الرب ذاته؟

سارة. زوجة الشيخ أبراهام، وبما أنها كانت عاقراً، أوعزت إلى أبراهام: «اذهب إلى جاريتي هاجر. ربما رُزِقْتُ منها بأولاد»، أذعن أبراهام. ووهبته هاجر طفلاً سُمِّي إسماعيل. لكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، حيث بعد ثلاثة عشر سنة من ذلك حلت المعجزة: إذ أن سارة ـ التي كانت تبلغ حينها حوالي تسعين سنة ـ ولدت بدورها طفلا، حمل اسم إسحاق.

هاجر. جارية مصرية لدى أبراهام وسارة.

إسماعيل. بكر أبراهام وهاجر. والاشتقاق العبراني لإسمه، إشماعيل، يعني «الرب يسمع». ويفترض أنه جد العرب. وبالنسبة للمسلمين، فإليه وأبيه أبراهام يعود الفضل في بناء الكعبة، تلك البناية المحيِّرة، الواقعة وسط الحرم المكي.

إسحاق. ابن أبراهام وسارة، وأب يعقوب، اسمه العبري إشحاق يعني «ضحكت سارة».

هارون. أخ موسى.

آمل أن تعود عليكما هذه الشروح بالفائدة.

فاسيلي

حاشية: فيما يخص الرقمين: ١٩ و٨٠٩،٠، من المؤسف أنه لا يسعني مساعدتكما. لم يكن علم الأرقام، والملائكة من مكامن قوتي.

وما كادوا يفرغون من قراءة الرسالة حتى رنَّ الهاتف.

وتعرف ماكلين فوراً على صوت فاسيلي باكوفيا.

ـ لقد خطرت ببالي فكرة تخص الرقمين الغريبين. هلا أوصلتني بالمسز غراي؟

أذعن البروفسور.

ـ نهارك سعيد، مسز غراي، استرسل الروماني. إنك تقيمين طبعاً على جزيرة آران؟

ـ تماماً.

ـ إذن، تصوري أن في الجهة المقابلة بالتحديد، على جزيرة ليندسفارن، يقيم واحد من أصدقائي القدامى، صموئيل شلونسكي. إنه يعيش تقريباً عيشة الزهاد في الجزيرة المقدسة، وأنت تعلمين

بالتأكيد أنها في ملكية راهب من التيبت. إذا كنتِ عازمة على المضي في هذه المغامرة، أظن أن في وسعه أن يساعدك.

ـ ذلك لطف جم منك، سيد باكوفيا، لكني سوف أنسحب. لقد أضحت هذه القصة بلا معنى. لم يعد لدي ما ألبسه، كما أني اخسر مدخراتي في مصاريف الفندق. قضي الأمر. سأرجع إلى لاملاش.

ـ ماذا؟

كانت نبرة من الإحباط ترشح من صوت الروماني:

ـ حقيقة؟ أمر عجيب، كنت على استعداد لوضع يدي في النار اعتقاداً مني أن امرأة من طينتك ستذهب مع هذا اللغز إلى آخر المطاف.

ـ ليس الأمر هنا لغزاً، بل إنه أحجية. لطالما نفرت من الأحاجي.

سُمِعَتْ ضحكة صغيرة على الطرف الآخر من الخط.

ـ ألست منزعجة قليلاً على الأصح؟

ـ مم، سيدي العزيز؟

ـ من أنك تواجهين حدود قدرتك. ملكة الرواية البوليسية وقد أعجزها مخادع من العامة. ليس في ذلك ما يفرح، أليس كذلك؟

ـ لك أن تتخيل ما تريد، سيد باكوفيا.

أخذت نفساً من الهواء ثم ختمت بخشونة:

ـ الروائية تقول لك وداعا.

وما إن وضعت السماعة حتى ثارت غاضبة:

ـ ألم أقل لك إن هذا الشخص مجنون؟ من يظن نفسه؟ أن يجرأ على الحديث إلي بتلك النبرة!

ـ هدئي من روعك. إنه يشاكسك. هذا كل ما في الأمر. أخبريني بالأحرى... هل أنت عازمة فعلا على العودة إلى آران؟

ـ بالتأكيد.

صارت ملامح ماكلين عابسة. الظاهر أن الخبر لم يدخل عليه السرور.

ـ ماذا هناك؟ تعجبت كلاريسا. مهما يكن إنك لا تريد مني أن أستقر بغلاسكو؟ إنك ترى جيداً بأنه لم يعد ثمة ما نجنيه من تلك المفكرة. إذن؟

ـ لكن رغم ذلك، لديكم اسم المؤلف، لاحظت كاتلين بغتة. وفي هذا تقدم لا بأس به.

ـ غابرييل الغامض ذاك؟ وإذن؟ لقد سبق للجنتلمان غريب الأطوار الذي اتصل بي في الفندق أن مدني بهذا الاسم. هل تعرفون عدد الغابرييلات الذين يعيشون على هذه الأرض؟

ـ بالتأكيد، رد موركار. لكن كم واحد من بينهم هو الملاك الأعظم؟ إذ لا ريب في أن الأمر يتعلق به. الملاك الأعظم جبرائيل.

وضعت السيدة العجوز قبضتيها على وركيها ونظرت إلى الرجل الشاب بسخرية:

ـ الملاك الأعظم جبرائيل... هكذا لدينا بين أيدينا اليوميات الحميمة للملاك الأعظم جبرائيل. هل تدرك فحسب جسامة أقوالك؟

ـ والجثة؟ ذكَّرتها كاتلين بخجل. ماذا تصنعين بها؟

ـ لا شيء! صاحت كلاريسا بقوة. لا شيء! لم يكن لها وجود. لقد حلمت. كنت ضحية هلوسة. لم يسبق أبداً أن كانت هناك جثة. وهذه المفكرة دعابة سوداء.

أمسكت حقيبتها اليدوية، وممطرتها وخطت نحو الباب.

ـ انتظري لحظة! صاح ماكلين. ينبغي أن أحدثك.

سحبها من ذراعها خارج المكتب. ولما صارا في الغرفة المتاخمة، أغلق الباب ثم وشوش:

ـ كلاريسا، هل يمكنك أن تقدمي لي خدمة عظيمة؟ أستحلفك، لا تردي بالنفي.

غضنت السيدة العجوز جبينها وانتظرت التتمة.

ـ هل يمكن أن تصحبي معك موركار؟

حركت فمها بالكلام للاعتراض، لكنه عاجل بالاسترسال:

ـ أياماً معدودة فحسب. لا أشعر بأن لي من القوة للقيام بدور المربي، وأكثر منه بدور الجد. أحتاج لأن أكون بجانب جانيت. لا تسأليني عن السبب، لكن شيئاً ما يصيح بي أن حضوري وإعلان حبي لها قد يساعدانها على الخروج من تلك الظلمة. أرجوك، كلاريسا. أياماً معدودة فحسب.

بدا الاضطراب على وجه الروائية. التعايش مع موركار، بينما كان هذا الفتى يتمتع بموهبة إزعاجها.

ـ إذن؟ قال ماكلين بما يشبه الأنين تقريباً. أنت موافقة؟

ـ أفكر...

ـ أياماً معدودة...

ـ أفكر...

رجعت درجها ونادت على كاتلين:

ـ أخبريني... العدول عن سفرك إلى برشلونة عند العزيز جورج، ألا رجعة فيه نهائيا؟

لأنها فوجئت قليلاً، استغرقت المرأة الشابة بضع ثواني قبل أن ترد:

ـ لا رجعة فيه. أجل.

ـ ممتاز! ما رأيك في قضاء أسبوع بلاملاش؟ سوف تكونين ضيفاً عندي. الطقس جميل. الجولات لا عد لها وسوف ننتهز الفرصة لاستئناف روايتي.

ـ ذلك أني...

ـ اطمئني. لن أجبرك على البقاء وجها لوجه معي. أنا على وعي بالضجر القاتل الذي قد يسببه مثل هذا القرب. لكن سوف يكون موركار هناك. وسوف يستمتع صديقنا بأن يتجول بك عبر أنحاء الجزيرة.

أحدّت النظر صوب الرجل الشاب:

ـ أليس كذلك، موركار؟

ـ أنا؟ في لاملاش؟

استقصى تأكيداً في عيني جده.

ـ أجل. لن تكون تلك فكرة سيئة، شرح هذا الأخير. أنت تعرف الظروف. جانيت في حاجة إلي. لن يتطلب الأمر سوى أسبوع واحد. هل تقبل؟

هز موركار كتفيه بوقاحة:

ـ لم لا؟

استدار صوب كاتلين:

ـ أو تذهبين أيضا؟

وكد سؤاله بملامح متوترة، وهو يجمح عينيه تماماً في عيني المرأة الشابة، مثل اليوم الذي طلب فيه منها أن تعزف له باخ.

ومثل ذلك اليوم، سمعت نفسها تجيبه:

ـ أجل.

١٢

«ظل آرشي رودنبار مستغرقاً في التفكير هنيهة:

ـ هل هاتفتَ الآنسة سبانسر؟

ـ أجل، وسوف تكون مسرورة هي ووالدها لحضور العشاء معك هذا المساء.

ـ حسناً، قال رودنبار، وبدا كأنه يحلم.

شرب دفعة واحدة ما تبقى من مشروبه العشبي، أعاد الفنجان إلى مكانه الأصلي وسط الصينية ثم واصل:

ـ يجمع السنجاب البندق، يدخره للخريف بغية الاستفادة منه لاحقاً. ينبغي للإنسان أن يأخذ العبرة من أخيه الحيوان. وهذا ما فعلته دوما. كنتُ الهر المتربص بالفأر، الكلب الجيد الذي يتشمم طريقه دون أن يحيد عنها أبداً. وكنت السنجاب أيضاً، يا جورج الطيب. لقد ادخرتُ واقعة صغيرة هنا، وأخرى هنا، والآن سون أذهب إلى مخزني للبحث عن بندقة محددة، وضعتها جانبا، منذ، يا ترى... حوالي عشر سنوات تقريباً. هل تسايرني، جورج؟

ـ لم يخطر ببالي، سيدي، أن في الوسع ادخار بندقة كل هذه المدة الطويلة، لكنني أعرف الآن، أنه يتم صنع العجائب من المعلبات.

نظر نحوه رودنبار ثم ابتسم».

وأصابعها معلقة فوق ملامس لوحة مفاتيح الحاسوب، كانت كاتلين تنظر بصبر تتمة النص. كانت تعرف بحكم التجربة أن هذا الانتظار قد يطول.

ألقت نظرة شاردة إلى النافذة. كان البحر يتسلل بتؤدة عبر الصخور الثلاثة التي تشرئب برؤوسها أعلى من الأمواج. بعض المتجولين كانوا يمشون على طول الشاطئ. يمنة، نازحاً بعض الشيء، كان موركار جالسا يحدق في الأفق. بين الفينة والأخرى كانت يده اليمنى تنغلق على قبضة من الرمل الذي يجعله يتسرب من خلل أصابعه. لقد كانت كلاريسا أول الواصلين إلى لاملاش؛ لحقت بهما كاتلين يومين عقب ذلك. لقد ارتأت أنه من اللازم قبل سفرها أن تحسم الأمور مع العزيز جورج. هل تعرفها على موركار هو ما دفعها للتصرف بذلك الاندفاع الأهوج؟ لا، دون شك. لقد استفحل الوضع قبل ذلك بكثير.

موركار...

كم كانت دهشتها عظيمة حينما رأت أنه هو من جاء لانتظارها عند نزولها من العبّارة وليست السيدة غراي! دنا منها على نحو أخرق شيئاً ما وطبع على خدها قبلة خفية وعاجل بأن يشرح لها ـ وكأنه يبدد الحرج ـ أن كلاريسا عهدت إليه بالسيارة التريومف لأنها أحست بأنها متعبة جداً مما يمنعها من قطع الطريق.

حتى ذلك اليوم لم تشعر أبداً تجاه أي فتى بكل تلك العواطف المتضاربة، مع عجزها عن تحديد لماذا كان يغريها. كانت تشعر بأنها منجذبة نحوه وفي وقت معا تراودها الرغبة في الابتعاد عنه. في كل مرة، ودون أن تجد تفسيراً لذلك، كان الشعور الأول هو الغالب.

كانت تريد «الذهاب بعيدا» في موركار، ربما لفهم ذلك المزيج من العُجب والتواضع الذي ينبعث من شخصه.

داعبت ملمس الحاسوب، دائماً في انتظار التتمة.

لكن كلاريسا ظلت مقيمة على صمتها، جالسة على أريكة في الصالون، غارقة في خواطرها.

الليلة الأولى التي تلت مجيئها إلى الجزيرة، لم تتوقف كاتلين عن التقلب فى سريرها ولم تظفر بالعثور على الطريق إلى النوم. لماذا قبلت هذه الرحلة؟ كي لا توجع المسز غراي التي بدت متأثرة جراء قضية المفكرة تلك أم خضوعا لطلب موركار؟ قيد مباغت كان من المستحيل عليها التخلص منه. يا للفرق الشاسع بينه وجورج العزيز ذاك! في آخر المطاف شعرت بالارتياح لإنهاء علاقتها قبل الإبحار إلى آران. كانت تفضل أن تقوم بذلك وجهاً لوجه معه، بدل الهاتف، لكنها شعرت رغم ذلك بأنها أصبحت حرة. لن تقضي بعد ساعات في الاستماع إليه وهو يمتدح جمال معادلة ما، أو بهاء هندسة الفضاء. بالتأكيد، المسكين لم يفهم شيئاً. ومثل كل رفاقها السابقين، تحولت دهشته إلى سوء نية. هو المفرط الكمال! من يحبها كثيرا! لماذا يعتقد الرجال الذين يحبوننا أن الحب يكفي! انتقل الفتى من الاعتراض إلى العدائية. وكم حاولت إقناعه! لكن لم تجد حججها صدى عنده. لم يكن يرغب في فقدها. هذا كل ما في الأمر. وعليه، الملاذ الأخير، كان هو السلاح الأكبر: «لا أحب بشرتك يا جورج، لقد سئمت منك دوما في الفراش».

كان الجواب هو ما ابتغته: نقرة غاضبة في السماعة. لقد رجع جورج إلى حساباته الخوارزمية.

انتشلها جرس الباب من تأملها. خطر ببالها بسرعة: «إنه موركار

الذي عاد، لكن وهي تتجه نحو المدخل، رأت عبر النافذة أنه كان ما يزال في المكان نفسه.

فتحت الباب. رجل مهيب القامة كان يقف عند الدرج:

ـ نهارك سعيد، آنستي.

ردت كاتلين على التحية وترقبت موافقة مضيفتها قبل أن تدعو الشخص للدخول.

ـ ستيوارت؟ قالت الروائية دون أن تغادر أريكتها. ما سبب تشريفك لي بهذه الزيارة؟

بدا جسمان الشرطي وقد استحوذ على الغرفة بأكملها.

خطى بتؤدة ثم وقف قبالة السيدة العجوز:

ـ كيف حالك، مسز غراي؟

ـ مثل شخص تنتزعه من النوم أزمة تصلب المفاصل. ألا تعرف ذلك، يا هذا، تصلب المفاصل؟ إنها جرح.

ـ أتصور ذلك.

اشار إلى الأريكة:

ـ هل أستطيع الجلوس؟

ـ إنك تقطع جلسة عمل. لكن رغم ذلك، تفضل. ما زلت أحافظ على ما يشبه التربية الحسنة.

نادت على كاتلين:

ـ خذي الوقت لفعل ما يحلو لك. سوف نستأنف العمل لاحقاً.

ـ تمام. سوف أنتهزها فرصة للذهاب للعوم

ـ إذن؟ استفسرت كلاريسا.

أخرج ستيوارت من جيبه غلافاً من نوع كرافت ثم وضعه على فخديه قبل أن يسأل بصوت محايد:

ـ هل كان مقامك في غلاسكو ممتعاً؟

ـ مزعجاً بعض الشيء.

ـ مزعج؟

ـ كان لا بد لصديقة أن ترقد في المستشفى عاجلاً. إنها زوجة البروفسور ماكلين.

ـ آمل أن الأمر ليس غاية في السوء؟

ـ لم يقرر الأطباء بعد. علينا الانتظار.

ـ أمر محزن بحق.

لزم الصمت، ثم:

ـ هل يعني لك اسم فاسيلي باكوفيا شيئاً؟

زوت السيدة العجوز ما بين حاجبيها:

ـ أجل. إنه صديق البروفسور ماكلين.

ـ كيف تعرفتِ عليه؟

ـ لقد أخبرتك للتو. عن طريق ويلي، أقصد، البروفسور. قدمه لي ذات ليلة بمنزله. حدث ذلك منذ حوالي أربعة أو خمسة أيام.

ـ وبعد ذلك، هل رأيته من جديد؟

ـ ماذا لو أخبرتني بما يحدث؟

نحنح ستيوارت جرعة من حلقه ثم أعلن:

ـ لقد تم قتل فاسيلي باكوفيا.

حركت السيدة العجوز رأسها إلى الخلف من شدة الفزع.

ـ قُتِل؟ متى؟

ـ أمس الأول، ليلاً. خادمته هي التي عثرت على الجثة، أمس صباحاً.

نهضت كلاريسا، وهي تترنح، وتوجهت صوب المنضدة الصغيرة حيث تتربع زجاجة شيري. سقت نفسها بكرم ثم دعت الضيف:

ـ هل تنادمني؟

ـ بكل سرور.

ملأت كأسا ثانية إلى منتصفها ورجعت إلى مجلس المفتش.

ـ لا أستطيع تصديق ذلك... همست مراراً وتكراراً.

ثم بغتة:

ـ لماذا أنا؟ أقصد، لماذا أنت هنا؟ لم أكن صديقة حميمة للسيد باكوفيا.

فض المفتش الغلاف وأخرج منه ورقة ناولها للروائية:

ـ لأن سلطات غلاسكو المكلفة بالتحقيق التمست مني الاتصال بك، اعتماداً على بعض المعلومات التي وجدت بمنزل الضحية. احكمي بنفسك...

تناولت نظارتها. يد خربشت بخط سريع:

كلاريسا غراي... الاتصال بشلونسكي...

الرقم ١٩؟

قيمة طقوسية؟

الرقم ٩=؟ تسع ربّات ولدن من زيوس خلال تسع ليال من الجماع. المخاض؟ يبدو أن تسعة يمثل انتهاء خلق ما.

السماء؟ الأرض، الجحيم؟ يمثلهما رقم ثلاثي. تسعة هو مجموع العوالم الثلاث. التوأم في ٩٫٨٠٩؟

ـ إذن؟ سألها ستيوارت. تقولين إنك لم تري أبداً السيد باكوفيا من جديد. لكن، إن نحن صدقنا ملاحظاته، فإن لقاءك الأول قد أثر فيه. هل أنا على خطأ؟

أخذت الروائية جرعة من الشراب ولزمت الصمت. كل محاولة للرد تعني أن تكشف له القضية كاملة ووجود المفكرة... أولا، لن يصدقها؛ ثانياً، إخفاؤها معلومات عن الشرطة قد تكون له عواقب وخيمة.

أخذت نفساً قصيراً:

ـ لقد عمل السيد باكوفيا أستاذاً لتاريخ الأديان، وكان في ضيافة ماكلين ذات مساء كنت حاضرة هناك بدوري. لقد تحدثنا في كل المواضيع وفي لا شيء. في علم الأعداد من بين مواضيع أخرى. أعتقد أن الملاحظات التي سجلها نابعة من الأسئلة التي طرحتها عليه.

ـ ومن يكون شلونسكي؟

ـ لعلي أتذكر أن الأمر يتعلق بصديق لباكوفيا، شغوف بعلم الأعداد

ـ لعل أسئلتك كانت فائقة الأهمية حيث أنه سعى إلى الاتصال بذلك الرجل، أليس كذلك؟

هزت كلاريسا كتفيها.

ـ أوه! إنك تعرف العلماء. يحبون التنقيب. كل ذلك كان عديم الأهمية.

نظر ستيوارت إلى الروائية العين في العين، ولم يكن يصدق كلامها؛ ذلك بادي للعيان. بكياسة، تناول الغلاف من جديد ثم أخرج منه وريقات عديدة.

ـ إنهم يحبون التنقيب هنا وهنا، مثلما تقولين. وما رأيك في هذا؟

لم تتجاوز كلاريسا ناصية الصفحة الأولى:

من: BACOVIAVASILE BACOVIA@MAILCOM. SC

التاريخ: ١٠ يونيو ٢٠٠٢ س ١٧و١٥ د

إلى: WMACLEAN@GLASGOWUNIV. SC

الموضوع: رجفة الهذيان.

أي سحر ذاك الذي به وضعت السلطات يدها على الرسالة الإلكترونية التي بعث بها الروماني؟

سألته لحجب اضطرابها:

ـ أين وجدتم هذه الرسالة مجددا؟

ـ بكل بساطة في القرص الصلب بحاسوب المرحوم باكوفيا. إن هذه الحوايا تعتبر ثروة حقيقية بالنسبة للشرطة. ليست لديك معرفة بالمعلوميات، أعتقد؟ اعلمي أن حرق وثائق في مدفئة قديمة أكثر آمانا من رميها في سلة مهملات حاسوب شخصي. إذا لم تتبعي بعض الإجراءات فإن أغلب ما تكتبينه يظل محفوراً في الدوائر المدمجة، ويمكن استردادها أسابيع، بل شهوراً بعد ذلك.

فرغت الروائية من شرب كأسها الشيري ثم قالت:

إن هذه الرسالة تؤكد لك بحق مضمون حديثنا خلال تلك الليلة. في وسعك ملاحظة أن النقاش كان يدور حول الأديان. وليس في هذا ما يثير الدهشة حينما يسعفنا الحظ في اللقاء بمتخصص في الميدان.

رتب ستيوارت الأوراق الصغيرة في الغلاف بينما كانت ابتسامة غامضة تدب في شفتيه.

ـ اسمحي لي بسؤال شخصي: هل تشعرين تجاهي بقليل من التقدير؟

ـ الجواب هو أجل.

ـ إذن، لماذا تكذبين علي؟

خجلت السيدة العجوز رغما عنها.

أضاف المفتش تدقيقاً:

ـ سوف أقتبس من الذاكرة كلام السيد باكوفيا: «يزداد يقيني رسوخا بأن مؤلف هذه المفكرة الذي بعث بعد وفاته هو مخادع مرح. لقد تلاعبت بكم الجثة على نحو قذر».

ضم ذراعيه إلى صدره وتأمل الروائية:

ـ إذن؟

لأنها لا تملك حيلة، لم يكن في وسعها سوى تكرار:

ـ إذن..

ـ ماذا لو أخبرتني بالحقيقة كاملة؟ أليس من السهل فعل ذلك؟

لاذت بخرس صبياني تقريباً.

ـ لا أعرف إن كنت تقدرين الأمور، أضاف الشرطي، لم تعد القضية تتعلق بشبح. إننا نواجه جريمة قتل. حقيقية. بجثة حقيقية، تضاف، مع عجزي عن إثبات الصلة، إلى جثة الأيرلندي التي عثر عليها في طريق كوري. كما أنني لم أخبرك بكل شيء...

حدق فيها بحِدَّة مباغتة:

ـ لقد مات باكوفيا بعد قطع رأسه تقريباً. لقد نحر نصل قاتله حنجرته بعمق إلى حد أن رأسه لم يكن موصولاً سوى بالغضاريف. صدفة عجيبة، أو ليس كذلك؟

ـ ذُبح؟ تمتمت كلاريسا. ذبح؟ مثلما ذُبح الآخر؟

ـ لأنني لم أفحص «الآخر»، لا يسعني تقديم جواب، للأسف.

اخترقت نظرة كلاريسا المفتش وكأنها لم تعد تبصره، لكنها كانت ترى شيئاً غير مرئي يقع خلفه، في البعيد جداً.

ـ حسناً، أعلنتِ بصوت حازم. سوف أخبرك بكل شيء. لكني أحذرك: لن تصدقني.

ثم أضافت بسرعة فائقة:

ـ ليس أكثر من تصديقك لي في المرة الأولى.

ـ أنا أنصت إليك.

باحت له بكل شيء. المفكرة، شفرة ماري ستيوارت، الحضور الدائم للشاب الغريب، المكالمة الهاتفية، وبينما كانت تختم سردها، بزغت فجأة فكرة أصابتها بالغثيان: *ماذا لو كان مرض جانيت* جزء من هذه *الأحجية*؟ ألم يصرح الرجل الشاب: «إن حياة السيدة ماكلين رهينة ذلك... أسرعي!» وقد مات باكوفيا، هل جانيت هي التالية؟

وبمجهود أخير، أسرَّت بإحساسها وسكتت، مجهدة. تحول انتباهها بصورة آلية نحو النافذة المشرعة على البحر. كانت في حاجة لهواء منعش، لفضاء. شعرت بأنها مخنوقة. في المغيب، كانت كاتلين وموركار يسبحان بالقرب من بعضهما. بقرب مفرط، حدثت نفسها...

ـ إنها حكاية عجيبة حقاً، قال ستيوارت في نهاية المطاف.

ثم قالت ساخرة:

ـ أنا روائية، يا طوماس، هل نسيت ذلك؟ لدي خيال جامح.

وما كادت تنهي جملتها حتى انتبهت أنها نادت عليه باسمه الشخصي.

ـ صحيح، قال دون أن يعقب على رفع الكلفة، لكن شيئاً ما يحدثني أن خيالك قد وجد هذه المرة أستاذه.

رفع كأسه:

ـ هل تتفضلين علي بكأس شيري أخرى؟

هرولت إلى غاية الزجاجة، بينما كان يسألها:

ـ وكيف هي حال السيدة ماكلين؟

ـ حالها مستقرة، للأسف.

عاد للجلوس:

ـ لو تأذنين لي بهذا الرأي، خيراً فعلت حينما تخليت عن هذه القضية. فيها شيء (بحث عن الكلمة المناسبة) غير سليم.

ـ غير سليم؟

ـ إننا في اسكتلندا، لا يجب أن يغيب عنك ذلك.

ـ وما العلاقة؟

ـ موطن ما لا يقبل التفسير. يخيفني كل ما لا يقبل التفسير.

ـ يخيفك؟ وأنا كنت أظن أنك واقعي.

استوى ستيوارت في جلسته:

ـ أنا رجل شرطة، لكني أنا كذلك وقبل أي شيء اسكتلندي. إننا نقيم في بلد يتنفس ما هو خارق. المسالك وأراضي الخثة والبحيرات والمرتفعات. بل حتى عَلَمُنا! لقد ظل القديس أندرو، حامينا، وهو

مربوط إلى صليب، في بلدة من بلاد الإغريق النائية، يدعو للإنجيل إلى أن مات. وقد حدثت للملك أنغوس رؤيا يحثه فيها القديس أندور على السير قدما نحو أعدائه بصليب أبيض قُطْري يتوسط سماء زرقاء. هذا اللواء الذي أوصله إلى النصر هو علمنا الوطني. عَلم أسطورة! لكِ أن تبتسمي، لكني أعلمُ، إذ كنت شاهداً على ذلك، أن في بعض البيوت يتردد في بعض الليالي صدى بكاء العفريتة بِينْ سِيذْهِي، حينما يتأهب الموت للانقضاض على أحد أفراد العائلة. غير بعيد من هنا، لعلك تعلمين بأن في ماكري مُوزْ تنتصب حلقات غريبة من الحجارة التي تسكنها روح الكهنة الدرويدس. والكِيلْبِي، ذلك الحصان السحري الذي قد يتخذ صورة رجل لجذب الفتيات الكواعب بعيدا، يعدو عبر ودياننا في ليالي البدر. وتذكري أيضاً السِّيلكيز، عرائس البحر القادرة على تغيير صورتها حسب هواها، حتى تظهر تارة على هيئة بشر وأخرى في صورة فقمة. ولن أحدثك عن النِّيسِي. وحش بحيرة النِّيس عندنا. كل شيء، عندنا، يسبح في الأوهام. لسنا بلدا، نحن أسطورة مُجَسمة.

ـ أنت على حق. لكننا أيضاً عقول ديكارتية. العالَم مدين لنا بالبنسلين والتلفزيون والغولف.

ـ ديكارتيون وسِلْتِيون. وهالُوين ليست أقل تقليد من تقاليدنا.

ثم كرر:

ـ أنا أحتاط من الخوارق، كلاريسا غراي. احترسي من ذلك أيضاً...

وعمَّ الصمت من جديد.

نظرت السيدة العجوز ليديها في شرود. منذ أن عادت إلى لاملاش

وهي تتألم بقسوة. ترفض اللجوء إلى مضادات الالتهاب التي تخرب معدتها. لكن يجب أن تذعن للأمر رغم ذلك.

ـ ماذا تنوي فعله؟ سألته في آخر الأمر. أظن أنك سوف تجبر على إخبار غلاسكو بكل ما قلته لك؟

ـ هل تمزحين؟ في أسوأ الأحوال سوف يحبسونك؛ وفي أحسنها، ينزلون هنا ويحاصرونك بالأسئلة. لا. لن أخبرهم إلا بما هو أساسي. لقد تعرفت على باكوفيا عند ماكلين، ودار النقاش حول الأديان. هذا كل ما في الأمر.

همست:

ـ شكرا، طوماس... أنت شخص خيّر.

قام بحركة مراوغة، وقد أصابه الخجل فجأة.

ـ أخبرني، واصلت قائلة. هل حصلت على معلومات جديدة عن ذلك الايرلندي الذي عثر عليه مقتولاً في طريق كوري؟

ـ أجل. لا صلة بحركة «إيرا». كان ينتمي لعصابة إجرامية ومات ضحية تصفية حسابات. شرطة دابلن تتعقب أثر قاتله.

ـ غريب، رغم كل شيء. كيف تفسر ذلك الشبه مع جثتي؟

ـ إنها الصدفة. لا جواب لدي.

أشارت إلى الورقة التي خط عليها باكوفيا آخر ملاحظاته:

ـ هل يمكنني الاحتفاظ بها؟

زوى حاجبيه:

ـ ألم تقولي بأنك تخليت عن القضية؟

ـ تماماً. لكن ليس لهذه الخربشات أي علاقة بقصة الملاك التي لي. إنها ذكرى فحسب من باكوفيا المسكين ذاك.

دفع الورقة نحوها:

ـ احتفظي بها. لدي نسخة منها.

لزمت الصمت لحظة، ثم:

ـ في نهاية المطاف، إننا نعرف بعضنا منذ سنوات، ولا أعلم شيئاً عنك؟

ـ ربما ليس هناك الكثير مما يستحق معرفته.

ـ هل أنت متزوج؟ هل لديك أطفال؟

ـ لا. لستُ رجلاً قابل للزواج. إن الدببة مخيفة.

تسللت سماء المغيب إلى غرفة الجلوس. بسطت كلاريسا يدها نحو المصباح الموضوع قرب الأريكة.

نهض ستيوارت بينما سطع النور.

ـ سوف أودعك. لديك أعمال. سوف أخبرك بالجديد.

تظاهرت بالنهوض، لكنه أوقفها بإيماءة:

ـ لا داعي للإزعاج.

وبينما كان منصرفاً نحو الباب، سمعها تقول:

ـ إذا لم يكن لديك ما يشغلك السبت عند المساء، تعال للعشاء إذن بالبيت. إني أكره الطبخ، لكن من أجلك سوف أقوم بمجهود.

دار على عقبه، وعيناه مشرعتان:

ـ إنك غير جادة؟

ـ بلى، أجابت بابتسامة خفية. إني أكره الطبخ.

ـ في هذه الحال، سوف أتكفل بالتحلية. أعتبرُ معلّما في فن إعداد كعك الجزر. على الأقل ننجح في هذا الأمر. موعدنا يوم السبت، مسز غراي.

انتظرت كلاريسا بضع لحظات. حينما تناهى إليها صوت ابتعاد سيارة ستيوارت، هرعت إلى الهاتف، وركبت رقم خدمة المعلومات.

ـ شلونسكي، همست لعاملة الهاتف، صموئيل شلونسكي. ليس لدي عنوانه، لكني أعرف بأنه يقيم في ليندسفارن.

١٣

كان موركار مستلقيا لصق كاتلين. في الغرفة الغارقة في الليل البهيم، يقرأ جسدها، وجهها، بيديه. وبتؤدة، كانت أصابعه تتخذ شكل انحناءات ووديان. البشرة ناعمة، وعبق طهارتها المنبعث منها له طعم المِلح. هو ذاك إذن جسد المرأة؟ جزيرة. غرق. لسانه يلامس في خجل استدارة نهد؛ تصلّب الثؤلول عند ملمس ريقه. لم يعد موركار يعرف هل هو الذي يتغذى من كاتلين أم إن كاتلين هي التي كانت تطفئ عطشها بملمس شفتيه.

نقل خذه إلى أسفل بطن المرأة الشابة بحركة طفل يعاني من الجوع. خلف جدران الغرفة تسمع نبضات البحر التي تغمر نبضات قلب كل منهما.

دس فمه بفلق الفخذين، على نحو خجول تقريباً، وهو يخشى رفضا، يخاف من أن يكسر البلور، من أن لا تصير المعجزة إلى آخر شوط فيها. أن يشعر بها وهي تنفرج، وتمنح نفسها، تهبه دون تحفظ أشد ما فيها من حميمية. أخذته الحماسة وشرب من النبع.

انتصبت قليلاً.

الكون بأكمله كان هناك، مجسما في تلك الفُرجة، ذلك الجرح الذي يهب الحياة. العالم، الكون، درب التبانة، الكواكب، حركة

النجوم، الإشعاع الغريب للأجرام، كلها اتحدت في هذه المليمترات المعدودة من الجسد والدم والماء.

لم يسبق لموركار أن كان أقرب إلى الحقيقة من تلك اللحظة. الحقيقة الوحيدة. وإلى تلك الساعة لم يعرف من الثريا سوى تلألؤها الجليدي. الآن يدرك حرارتها. وذلك شيء ممتع.

كانت كاتلين تئن.

هل كانت تلك لذة أم ألم؟ لذة بالتأكيد. لشدة ما كان تمازج جسديهما ممتعا بالنسبة لموركار، فإن الأمر لن يكون غير ذلك بالنسبة لها أيضاً. شيء ما يخبره بأنه ما كان للإتحاد بينهما أن يصير تاما لو لم يلج فيها. قام واستلقى فوق المرأة الشابة، صدره لنهديها، بطن لبطن، نَفَس لنفَس. أطلقت صرخة الخلاص حينما صارا جسداً واحداً.

الآن أصبح كل شيء جلياً، واضحاً. تجلى السر النهائي بكل براءته، وأدرك أن الخلود الحقيقي لا يسعه إلا أن يكمن هناك في تلك اللحظة الدقيقة وفي مائهما الممزوج.

سوف يلفيهما الصُبح ملتحمان في بعضهما.

لاح الصبح تواً من عمق البحر.

اندسّت كلاريسا في قميص النوم الحريري؛ وهو الترف الوحيد الذي متعت به نفسها، ذلك لأنها اغتنمت فرصة اقتناء أمتار من ثوب البخارى مقابل ثمن معقول لدى بائع متجول بمدينة مدْراس.

توجهت مباشرة إلى المطبخ. في الخارج، كانت السماء كئيبة، تنكتها غيوم رمادية.وسخة، وبينما كان الماء يغلي في الإناء وضعت فوق المائدة صحنها المقدس وفيه عصيدة الشوفان، وحضّرت عصير

الليمون الهندي المنعش، وأخرجت من البرّاد بيضتان وشرائح لحم خنزير مقدد، ومربى البرتقال الحامض. عشر دقائق بعد ذلك كان فطورها جاهزاً.

وبينما كانت تهم بحمل عصير الفواكه إلى شفتيها رأت الرجل الشاب بلباس البرانس دوغال. هل تجلى للتو في إطار الباب أم كان هناك قبل تلك اللحظة؟

أسقطت الكأس التي تهشمت على البلاط بصوت مجلجل بينما رفع الرجل الشاب يده بإيماءة متوسلة:

ـ لا! لا تخافي! لا أريد أن ألحق بك أي أذى.

تظاهر بالتقدم نحوها.

ـ ولا حركة! صرخت قائلة، إلزم مكانك!

ثم أضافت:

ـ أنا أحذرك: لستُ وحدي. ابني وخطيبته في الطابق السفلي.

ابتسم الشخص في لين.

ـ هيا، يا سيدة غراي، تعلمين جيداً أنه ليس لديك أولاد. إنه موركار، حفيد البروفسور ماكلين، وكاتلين، سكرتيرتك. أكرر ذلك: لا تخشي شيئاً. اسمحي لي فحسب ببضع دقائق. إنه يتعقب أثري. لن يتأخر في العثور علي.

ـ إنه؟ عمن تتكلم؟

ـ عن الذي قتل فاسيلي باكوفيا وكل الآخرين. وقريباً سوف يحين دور جانيت ماكلين: هذا المساء... غدا...

ـ جانيت سوف تموت؟

ـ إنها تقريباً في عداد الموتى مسبقاً. إنها مسألة ساعات. أنا بدوري ميت مع وقف التنفيذ.

داعب شعره بيد متوترة.

ـ أنت أيضاً سيدة غراي. لا يسعك تجاهل أن خطراً عظيماً يحدق بك. أتساءل لأي سبب غامض لم يسع إلى القضاء عليك. لكن دورك سوف يحين. ذلك مؤكد.

ابتدأ الحوار دون علم السيدة العجوز.

ـ إن القاتل يمتلك قدرات هائلة. لعلك تدركين هذه الحقيقة، أليس كذلك؟

قام بخطوة واحدة إلى الأمام، وإزاء غياب أي رد فعل منها، تشجع ودنا أكثر من ذلك، ثم أصبح قبالة المائدة وبكل بساطة جلس على الكرسي الشاغر وهو يختم بالقول:

ـ وإلا بم تفسرين كيف صرنا، نحن، مخلوقات فانية بائسة؟

ـ نحن؟

ـ إياه ـ هيل، يلبيل، إلمياح، كالييل، رفائيل، ميحاحيل، وبالطبع أعلانا شرفاً، من سعى دون جدوى إلى الاتصال بك.

تململت كلاريسا فوق كرسيها.

ـ لو تفضلت وشرفتني بالشروع من البداية؟

ـ لا أطمع في أكثر من ذلك، مسز غراي. منذ أيام وأنا أسعى إلى الحديث معك، على متن العبّارة، في الباص، والمرة الأخيرة حينما كنتِ عائدة إلى الفندق، كدت أنجح في ذلك، إلا أنك أخفتني بشدة.

في ظروف مغايرة، كانت هذه الملاحظة الأخيرة ستجعل كلاريسا تقهقه ضحكاً.

ـ ماذا لو أخبرتني عمن تكون؟

ـ دانييل. أنا من الملائكة التي تنتمي للمقام الأدنى. كنت أدور في فلك جبرائيل. كاتم أسراره، صديقه، وفق إحدى الكلمات التي تستعملونها.

ـ أنت...؟

امتنعت عن النطق بالكلمة، وكان هو من بادر:

ـ ملاك، أجل.

عضّت شفتها السفلى:

ـ ملاك...

ـ أجل، أعرف ذلك. أنا أفزعك لأني لست مثلما تتخيلين. ثم إننا لا نفهم لماذا اخترتم هذا التصوير العجيب. الجناحان، الهالة، إلخ. وعلى الأخص لماذا أعلنتم أن لا وجود سوى للملائكة الذكور ـ وهذا أسوأ من ذاك ـ أو الذين لا جنس لهم؟ بل توجد أيضاً ملائكة إناث وعددهن ثلاثة: يلييل، إياه ـ هيل وساميل.

ـ ويجب عليّ أن أصدقك...

ـ لأن الشك ما يزال يستبد بك؟ كيف أمكنك ذلك؟ لقد قرأتِ المفكرة رغم كل شيء، وقمتِ بفك شفرة ملاحظات جبرائيل. لقد وهب حياته للقاء بك وأنت تشككين؟

مال بجذعه نحوها:

ـ يجب عليك تصديقي، مسز غراي! ليس فحسب لأنني شاهدت جبرائيل ميتا، ولكن أيضاً ـ كدتُ أقول على الأخص ـ لأنك امرأة. ماذا تفعلين بغريزتك؟ أليست تلك هبة تميزكن عن الذكور؟ لا بد لها أن تقول لك صارخة بأني لا أكذب عليك!

رفعت كلاريسا ذراعيها ثم تركتهما يهبطان:

ـ ضع نفسك مكاني... سيد دانييل، واعلم أن غريزتي الأنثوية لا تمنعني من أن أكون شخصاً عقلانياً. إضافة لذلك، ولسوء حظك، لستُ من الملازمين للكنيسة، ولا متعصبة للكتاب المقدس. أنا شديدة التدين... لكن لإيماني حدود.

حرك رأسه بوقار:

ـ أشعر بالخجل من الإعتراف بذلك، لكني أتفق مع هذه المسألة الأخيرة. أحياناً، أتساءل إن لم أكن في أعمق أعماقي ملحدا، ومن باب الحرص، لنقل إني عَامِه.

ـ ملاك عامِه...

ـ وهل ذلك ذنبي؟ لم يسبق لي أبداً أن رأيت ذلك الكائن أو القوة العليا التي يسمونها الرّب. إنه مثار لكل الإشاعات، عندنا أيضاً هناك أتباع وهناك معارضون.

ـ عندكم؟

كان دانييل ينوء تحت عسر المهمة.

ـ إنه المكان الذين تسمونه، أنتم البشر، «الجنة».

صعقت كلاريسا. بينما كان صوت داخلي يصرخ لها بأنها ليست على صواب، فإنها أرادت رغم كل شيء إقناع نفسها بأن الخبل، الذي يتحكم منذ البداية في هذه الحكاية غير القابلة للتصديق، قد وصل أوجه. وبعد أن استمدت نفساً عميقاً، تحدثت بصوت فيه من الهدوء بقدر ما تسمح به حالها.

ـ هلا أوجزنا. أنت ملاك عامِه قادم من الجنة.

أمن الآخر على كلامها بتلقائية مثيرة.

ـ هات برهانك.

ـ المعذرة؟

ـ لقد فهمتَ قصدي جيداً. إذا رغبتَ في مواصلة هذا الحوار، هات برهاناً على ما تقول.

ـ أي برهان؟

ـ وما أدراني به! ليس لديك جناحان، ولا هالة، لكنك تمتلك بعض القدرات، أليس كذلك؟

ـ أوه! قليلة جداً!

ـ في هذه الحال، سيدي العزيز، أخشى أن يكون حوارنا قد وقف عند هذا الحد.

نهض ومشى إلى غاية النافذة المفتوحة على الحديقة الصغيرة المجاورة لجهة المنزل الخلفية. شاهدته كلاريسا وهو يحدق في الجوار، مترقباً لشخص أو شيء ما. بعد أن اطمأن قلبه، أغمض عينيه، وتلا ـ لأن الأمر تعلق حقيقة بتلاوة:

ـ *جون كيتس. العبقرية. الجمال في طبيعته الخالصة. آه! لو أمكنني الاستسلام لشغفي الآخر: الشعر. لكن هل كان قرائي سيتبعونني؟ الكتابة باسم مستعار؟ لقد فكرت في ذلك: ماري ويستماكوت.*

وبالزخم نفسه، استرسل:

ـ *الحرية. كنتُ حرة. تعذبني أزمات تصلب المفاصل، وحيدة، لكني حرة. كما أني أفتخر كثيراً لأني نجحت في الحصول على هذا الغرض الثمين جداً. في البداية، رغم ذلك، لا شيء كان يعدني للعيش إلا مقيّدة. لأن أبي، اللورد أرشيبالد غراي، رجل الأعمال المرموق، عضو البرلمان، المحافظ المتزمت ومنشئ الاستبداد، كان*

قد ربّاني للوظيفة الأنثوية الوحيدة التي تصورها: وظيفة الأم والزوجة... يا لجانيت المسكينة. كل أولئك الناس الذين يعانون ونقول عنهم بأنهم لا يستحقون ذلك. سوء الحظ الذي يبطش بهذا المخلوق ويرحم غيره، بهذا الطفل وليس بأخيه. لعبة حظ بغيضة... لا ندري من يتحكم فيها ولا لأي سبب.

ثم قرر أن يفتح عينيه وأحدَّ النظر في السيدة العجوز:

ـ *عزيزتي، مسز غراي، ينبغي أن تعلمي بأن السعادة تكتب بحبر أبيض على صفحات بيض.*

ـ توقف! صرخت كلاريسا. توقف!

واصل رغم ذلك، غير مبال بالاضطراب الذي يحدثه. صارت نبرة صوته معدنية، أشد برودة من كتل الجليد العائمة، أبعد من كل المجرات الأزلية. كان ينبعث من تلك النجوم الميتة منذ ملايين السنين والتي يصلنا بريقها حتى اليوم.

ـ *كان اسمه جان، عجنني وكأني مخلوقة من طين. عشقت كل لحظة، أحببت يديه الموضوعتان عليّ. لقد تنفستُه، لقد ذبتُ فيه.*

وثبت كلاريسا من مقعدها ثم زمّت بكفها شفتي الرجل الشاب.

ـ اصمت! قلتُ لك. اصمت!

نكص على عقبيه وقد أصابته الدهشة:

ـ اهدئي، لم أقصد إفزاعك، إنَّكِ...

ـ هل أنت مدرك لما فعلته للتو؟

كانت تتكلم وهي تشهق، يكاد الدمع يطفر من عينيها.

ـ كنتِ تأملين في الحصول على برهان...

ـ أن تكشف عن خواطر الناس؟ أن تعري نفوسهم! أن تنقب في حياتهم الحميمة! ألا ترى بأن ذلك أمر فظيع؟

ـ لقد حذرتك. للملائكة قدرات قليلة، وعلى الأخص الملائكة من المقام الأدنى. لم أتوفر سوى على هذا البرهان لأعطيه لك. لا تؤاخذيني على ذلك. نفسكِ مِلْكٌ لك، وخواطرك أيضاً. ما أنا إلا نشّافة. أمتص ذيول حياة بعض المخلوقات، لكني غير قادر على نقلها إلى أي كان، سوى إلى صاحبها.

ـ لكن ومع ذلك، فهذا أمر فظيع. لقد تصرفت مثل أي سارق بشع.

ـ لا، مسز غراي، بل مثل مرآة، لقد أصبحت لبضع لحظات انعكاسا لك، هذا كل ما في الأمر.

انصرفت للجلوس وانزوت على نفسها في صمت.

ـ يجب أن نتحدث الآن، قال وهو يلحق بها. رجاء، إن الوقت يعاجلنا. إنك لا تريدين موت جانيت، أليس كذلك؟ ولا أن تموتين، ليس الآن؟

مسحت خلسة خديها المبللين:

ـ أنا أنصت إليك.

ضمت يديها في وضع متخشع.

ـ بدأ كل شيء بمقتل كاليبل. لقد وجدناه (تردد بخصوص الكلمة) ذا صباح أو ذات ليلة. الـ...

ـ قاطعته على الفور:

ـ ذا صباح أو ذات ليلة؟

ـ ذلك أننا لا نمتلك التصور نفسه للزمن الذي لديكم. النهار،

الليل... تجري الأبدية خارج الفصول والساعات، والمغيب، والفجر. لكن لا تقاطعيني، من فضلك. لقد أخبرتك، الوقت يعاجلنا.

رأت الكلمات اللاتينية المكتوبة في المفكرة تمر أمام عينيها: Tempesta unus, eadem tempesta . . . «الزمن الأول، الزمن نفسه»... التفسير يكمن هناك إذن.

تابع كلامه:

ـ هكذا وقعت أول جريمة قتل. وجدنا كاليل وقد ذُبحت حنجرته. كان ذلك فظيعاً. تنبعث من كيانه أقصى درجات الرعب، بل كنا نحن أيضاً مرعوبين. ولذلك ما يبرره. نحن الملائكة أصبحنا مخلوقات فانية. فانون! هل تدركين ما يعنيه ذلك؟ إلى تلك اللحظة، أهوال النهاية، الانشطار، وتوقف كل شيء، كانت تلك أشياء لا نعرفها. وجدنا للديمومة، نعيش للديمومة. فكرة أن كل شيء توقف، دفعة واحدة، لم يسبق لها أن جالت بخواطرنا. الخوف، الهلع، التساؤل، كانت لأمد طويل غريبة عنا. إلى أن...

الظاهر أن وصف حاله الجديدة أغرقه في يأس شديد. أمسكت كلاريسا عن أن تفصح له بأن إدراكه لذاته لم يثر فيها أي شفقة، وبأن ما يصفه هو مصير الملايير من البشر.

ـ بعد مقتل كاليل، جاء الدور على إلمياح. نساء ـ ملائكة متن أيضاً. كنا نعاني من العجز، مجرد شهود على عد عكسي شنيع.

قام بالعد مستنداً إلى أصابعه:

ـ عشرة، تسعة، ثمانية...

ـ عشرة؟ ردت.كلاريسا. لماذا تبدأ بعشرة؟

ـ لأن هذا هو ـ ثم صحح ـ ذاك كان عددنا يبلغ عشر ملائكة

موزعين إلى مقامين. ثلاثة عُلْويون وسبعة سُفْليون. في هذه الساعة التي أحدثك فيها، لم يتبق سوى اثنان: ساميل وأنا. ساميل كانت ملاكاً رئيساً. ملاك ـ امرأة. لكنها ماكثة في مكان ما ولا تجرؤ على الظهور لخوفها الشديد.

ـ لستم سوى عشرة؟

ابتسمت على الرغم منها:

ـ وأنا التي كنت أظن أن لدى كل واحد منا ملاك حارس.

ـ وهذه واحدة أخرى من أفكاركم المسبقة. إننا نجد عناء في حماية أنفسنا؛ وإذا كان علينا إضافة إلى ذلك الاهتمام بالبشرية...

ـ أشار إلى إبريق الشاي:

ـ لقد يبست حنجرتي.

دفعت الفنجان نحوه وانتهزت الفرصة لاستفساره:

ـ إزاء هذه الكارثة، كيف كان رد فعلكم؟ مهما يكن، لم تظلوا مكتوفي الأيدي متطلعين إلى الضحية الموالية؟

ـ بالطبع لا! على الفور اضطلع جبرائيل بإدارة العمليات ونظمنا أنفسنا سعيا لاستجلاء أمر المحرض على هذه الجرائم الشنيعة. لكن في واقع الأمر، تجاوزتنا بسرعة صعوبة المهمة.

ـ على الرغم من قدراتكم؟

ـ لقد أخبرتك مسبقاً، إنها ليست بتلك القوة التي يستمتع البشر بتخيلها، هذا دون أن نضيف إليه كوننا ضحايا عجز هائل: معرفة الشر غريبة عنا كليا، إننا نفتقد هذا الحس ـ واسمحي لي عن هذه العبارة ـ المخادع جداً الذي يختص به البشر. كيف لنا أن نفك شفرات تصرفات مؤذية، كيف لنا أن نستبقها، بينما نجهل كل شيء

عن الفكر الذي يقودها؟ للانتصار على الشرير، من اللازم التفكير كما يفكر الشرير. وهذا المسلك غريب عنا.

ـ والرب في كل هذه القضية؟ لماذا لم تلتمسوا منه العون؟ لقد كنتم تقيمون في الجنة، صحيح، أليس كذلك؟ لا يمكن للمرء أن يحلم بوضع أحسن من ذلك، وإذا ما صدقتُ الكتاب المقدس، من المفروض أنكم خلقتم **لأجله**! الجيش السماوي، إنه أنتم!

ململ دانييل رأسه بأسى:

ـ أوه! مسز غراي. ليست صرخات الاستغاثة هي ما كان ينقص، عليك الوثوق في ذلك. راكعين، وقوفاً، ومتضرعين... لقد جربنا كل أشكال الصلوات، بكينا بكل أنواع القسم. للأسف، لم نتلق أدنى رد. لم يكن هناك ولا ذرة إشارة. لاشيء. الصمت.

بطواعية أفلت زفيرا:

ـ أو لستم مخلوقاته أيضاً؟ هل يستجيب لكم حينما تتضرعون إليه؟

أشار إلى أصابع السيدة العجوز المشوهة:

ـ أنظري إلى أصابعك... هل حدث لكِ أن صليتِ من أجل أن يذهب هذا المرض؟

ـ مررت بحالة الضعف هذه، أجل. في حركة يائسة.

ـ ولم يُستمَع إليك؟ إننا ـ بمقدار أقل ـ نعيش الحال نفسها.

ـ هناك serial killer[1] في الجنة، حدثت السيدة العجوز نفسها بصوت مهموس، وملاك عامِه، وربٌّ غير مبال. لكل هذا منطق مطلق، لكن تابع، مهما يكن.

(١) بالإنجليزية في النص، وتعني: قاتل بالجملة.

ـ كان جبرائيل شغوفاً بمؤلفاتك...

ـ هلا أعدت على مسامعي ما قلت؟

ـ إنها الحقيقة الجازمة. كان جبرائيل يلتهم رواياتك، بل إنه من شدة عدم اصطباره لا يتحمل انتظار نشر كتابك القادم، يتسلل إلى بيتك ليقرأ المخطوط وهو ما يزال في طور الكتابة من خلف ظهرك. لماذا أنت مندهشة إلى هذا الحد؟ آه! فهمت! دائماً تلك الصور النمطية! تصوري، إننا نقرأ كثيراً. مكتبتنا تضم كل كتب العالم. لحسن الحظ. وإلا صارت الأبدية لا تطاق بالنسبة لنا. فيما يخصني، أنا أهوى كامي. هل تعرفين أسطورة سيزيف؟ تحفة. لأمد طويل كان هو كتاب مرقدي. ربما بسبب فكرة العبث التي أبان عنها بشكل عجيب: «الاستيقاظ، ركوب الميترو، ساعات في المكتب أو في المعمل، الأكل، النوم ثم الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة والسبت على الإيقاع نفسه...» لن تصدقيني، لكنه يشبه وجودنا قليلاً. إننا نعيش في خمول، ويستبد بنا الضجر إلى أن يأتينا أمر وعندها نبعث في مهمة إلى عالمكم.

ـ أمر من الرَّب إذن...

ـ اعتقد. وما السبيل للتأكد من ذلك؟ أمر شديد في كل الأحوال، دفعة لا تحتمل. ونحن في حالة ذهول، ننطلق ونتبع الأوامر حرفيا. بعد إنجاز مهمتنا، يتم قذفنا إلى حالنا الأولى وكل شيء يعاد من جديد: *النوم والاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت*...

ـ ماذا لو عدنا إلى جرائم القتل تلك وإلى صديقك جبرائيل؟

ـ أنت على حق، لقد أذرعتُ في الكلام. ومثلما قلت لك، كان جبرائيل يحب حبكاتك البوليسية. يعتقد بأنك عبقرية حقيقية. وهكذا،

ذات يوم، نظراً لعجزنا، قال بفكرة أن يُعهد لك بالتحقيق. كان يعتبر أنه إذا وُجِد هناك شخص في العالم قادر على كشف القاتل، فلن يكون غيرك.

- شكراً على إطرائك، لكن، رغم أن ذلك قد يؤلم أنانيتي، يشق علي كثيراً تصديق أن رفيقك جبرائيل اصطفاني للسبب الوحيد المتمثل في استحسانه لرواياتي.

- أنت على صواب، هناك، وهذا ما أعتقده على الأقل، عناصر أخرى عديدة أثرت في مسلكه: نفورك من العالم، منفاك، رفضك لمراتب الشرف، وعلى الأخص هناك عنصر جوهري: أنت امرأة.

قطبت كلاريسا حاجبيها.

- أجل، استرسل دانييل، في نظر جبرائيل، النساء أسمى من الرجال. إنهن كذلك بفضل غريزتهن، حسهن المرهف، قدرتهن على مقاومة المعاناة، ملكتهن المتمثلة في حمل الحياة ومنحها. وإذا أضفنا إلى ذلك التبصر، والحس التحليلي الذي لكاتبة روايات بوليسية، فإن مجموع ذلك يبدو فعالا بدرجة عالية. لكل هذه الأمور اختارك جبرائيل.

- أن أجري تحقيقاً في الجنة، هذا ما كان ينقص منجزاتي.

- ما زلت لا تصدقين كلامي. لماذا تصرين عل السخرية؟

تهربت من الجواب وسألته:

- لماذا تذكر مفكرة جبرائيل متتالية من الأسماء الإنجيلية؟ أقصد بالكلام موسى والآخرين. ما معنى هذا العدد: ١٩ وهذه الجملة الملغزة: «التوأم في ٠,٨٠٩»؟

- ليست لدي أي فكرة عنها. لكن خلافاً لذلك، فيما يخص

الشخصيات، التفسير بسيط: إنها تجاورنا. تقتسم معنا المكان نفسه. تجد هنا وهنا ممثلين عن التوراة، والعهد الجديد، والقرآن، لكن كذلك بعض أتباع بوذا وبضعة علمانيين. كل هذه المجموعة لا تتعدى ثلاثين فرداً. لا تسأليني لماذا وحسب أي معيار يتم الفرز. سأكون عاجزاً عن الإجابة. الشيء الأكيد: منذ مدة طويلة لم تأت أفواج جديدة. للأسف. من الممل أن يرى المرء الوجوه نفسها. لكن عدا كون هذه الشخصيات تعيش إلى جنبنا، هناك سبب مهم جداً لحضورها في المفكرة.

صب لنفسه فنجانا آخر من الشاي قبل أن يعلن:

- لا أعرف كيف وصل جبرائيل إلى هذه الخلاصة: بالنسبة له، لم يكن هناك أي شك في أن الجاني كان موجوداً بين هؤلاء الناس. آخر عمل قام به هو وضع قائمة بأسماء الذين يشك فيهم أكثر.

دسّ يده اليمنى في الجيب الداخلي لسترته وأخرج منه ورقة مطوية على أربع أعطاها للسيدة العجوز:

- هاهي.

فتحت الورقة وقرأت:

موشي

ييشوا

محمد

هذه المرة، لم تمنع نفسها من إطلاق ضحكة مدوية:

- موسى، يسوع، محمد؟ القاتل بالجملة قد يكون واحداً من هذه الشخصيات المرموقة؟

- كان موقناً من ذلك.

ـ لنكن جديين. هل تتخيل يسوع أو محمد يحمل خنجر جزار في يد وهو منهمك في ذبح ملاك؟

أمال دانييل خده من الشك:

ـ أقر بأن ذلك لا يمكن تصوره، لكن جبرائيل، بدا مقتنعاً بذلك.

ـ على أي أساس؟ أية دلائل؟ أي باعث يدفع أنبياء لقتل نظرائك؟ لكل جريمة قتل هناك دافع، هل تفهم؟ لا يقتل المرء مجاناً، لمتعة القتل ببساطة. وإلا فهو مجنون.

ـ بمَ أجيبك؟ أكرر لك أنها الخلاصات التي وصل إليها جبرائيل. ليس لدي معلومات أكثر من ذلك. للأسف. في الآونة الأخيرة، صار صديقي... كيف تنعتون ذلك؟ مريضاً بالشك؟ هو ذا المصطلح؟

زكت ما قاله.

ـ لم يعد يجرؤ على البوح لي. كان يرى التهديد في كل مكان. وصار منعزلاً. منعزلا. خائر البدن والنفس.

ـ دعنا نلخص: قاتل بالجملة يصول في الجنة. ونظراً لعجزكم عن تحديد هويته، جاء جبرائيل إلى بيتي ليكلفني بالقضية ويبث لي شكوكه. وصل إليه القاتل وذبحه في عين المكان. هكذا إذن؟

ـ تماماً. لكن علما بأنه كان محكوم عليه مع وقف التنفيذ، فقد اعتنى بوضع المفكرة في صندوق الودائع ببروديك. هكذا، تحسباً لاغتياله بدوره، يبقى هناك دليل. وللأسباب نفسها، رأى أنه من باب الحرص أكثر أن يعهد لي بقائمة المشكوك فيهم وكلفني بأن أحملها إليك في حال اختفائه.

ـ وما الداعي الذي جعلك تنتظر كل هذه المدة الطويلة لحملها إلي؟

أجاب دانييل بسؤال:

- ألـم يكن من الأنسب أن أترك لك متسعاً من الوقت لفك شفرة المفكرة واستيعاب جزء من عناصرها؟

- إن اسعفتني الذاكرة، لقد كتب جبرائيل في مفكرته: «*الآن، لا خيار لدي سوى أن أخرق القوانين وأتخذ مظهراً بشرياً مثلما صنعتُ في عهود أخرى*». اشرح لي...

- حتى ولو كنا نماثلكم في الخلقة، ليس في استطاعتنا التدخل في الأرض كما نحن. نصير عندها تراباً. لذا نحن مجبرون على انتظار أن يموت إنسان ما لنتخذ مظهره. أنا بذاتي انتهزت فرصة موت شاب كان يعبر الطريق وهو شارد الذهن، هنا في الجزيرة، في شارع من كِيلْدُونان، بعيداً عن ممر الراجلين.

- استخلص من ذلك أن صديقك استحوذ على جسد ذلك المجرم الأيرلندي الذي قتل على طريق كوري؟ ومن ثمة الشبه...

نهضت الروائية بغتة وتوجهت نحو لوحة صغيرة بيضاء كانت تستعملها على سبيل المُذكرة، معلقة فوق المَجْلى. تناولت قلم اللبد الأحمر المثبت فيها بحبل صغير وكتبت بخط منكسر:

- السابعة مساء. الواحدة وخمس وأربعين دقيقة. فاصل: خمس ساعات. أندروسان/ بروديك. أوكازي؟ لكن قبل ذلك؟

استخبرته:

- متى تحدثت إلى جبرائيل للمرة الأخيرة؟

- اليوم الذي ناولني فيه قائمة المشكوك فيهم. بالضبط قبل أن يتجسد من أجل لقياك.

ـ يعني اليوم نفسه الذي ركب فيه من أندروسان إلى بروديك. هل في وسعك تحديد ساعة لقائكما الأخير؟

ـ ... أعتقد أن ذلك كان حوالي الخامسة والنصف بعد الظهر حسب توقيتكم الأرضي. إني أتذكر ذلك لأنه قال لي بأن أتبعه إلى أندروسان. كان يعلم بأن رجلين سوف يلقيا حتفهما. الأول في أندروسان نحو الساعة السادسة، والثاني، في اليوم الموالي عند الفجر، بِكيلدونان.

ـ تلبس إذا بجسد الأول وترك لك الثاني.

ـ بالضبط. لماذا هذه الأسئلة؟ ما تلك سوى تفاصيل.

اهتاجت الروائية:

ـ أنصت إلي بانتباه، سيد دانييل. أنا مؤلفة روايات بوليسية، وبهذه الصفة حقاً اختارني صديقك جبرائيل. وقد ذكرت بذلك، إن كان قد اختارني فذلك لقدرتي على تفكيك القرائن، ولو كانت تافهة. إن العناصر «الأرضية» لأُحْجِيَّتِك لا تتناسب.

ـ أية أهمية! إن أنفك ملاصق للوحة بينما عليك الرجوع إلى الخلف!

ـ لعمري، إنك غير مدرك للظروف! تقتحم علي مطبخي لتخبرني بأنك ملاك، عامه فوق ذلك، بأن قاتلا يمرح في الجنة وأنه قد يكون مختفياً بين موسى وعيسى، وتتويجاً لكل ذلك، تحكي لي أن الملاك الأعظم جبرائيل شخصياً ـ القارئ المتحمس لرواياتي ـ قد تجسم في جسد صعلوك أيرلندي كي يأتي ويعهد لي بالتحقيق. ولا ينبغي لي السعي إلى سبر أغوار الأشياء؟

لقد صرخت دون أن تفطن لذلك.

رد عليها بالشدة نفسها:

ـ كنت تطلبين برهاناً! ألم أعطه إياك؟

تناولت الفنجان وصبت الشاي:

ـ علي أن أفكر.

ـ لا وقت لديك لهذا! غدا، أو هذا المساء، ربما تكونين ميتة. وأنا كذلك.

كاد أن يجهش بالبكاء.

ـ ربما نفتقد التبصر، نحن الملائكة. لكن كم إن ريبتكم تصيب بالجنون، أيها البشر.

ـ وما شأنك بذلك؟ لكل نقاط ضعفه.

وأردفت باستعجال:

ـ لدي سؤال أخير ـ شديد الأهمية ـ لم أطرحه عليك. لو قبلتُ خوض هذه المغامرة، هل في وسعك إخباري بأي سحر قد يسعني التصرف؟ حسب آخر الأخبار، المتهمون في الجنة وأنا على الأرض. هل لديك نية لقتلي حتى أستطيع استنطاقهم؟ إذ تعلم جيداً أن كل محقق جدير بهذا الاسم يجب عليه أن يقوم باستنطاق وفق القواعد الجارية. إذن؟

ـ فعلاً. هذه حجة دامغة. لكني أعرف أن جبرائيل فكر في حل. لا بد أنه مسجل في مكان ما بملفاته. سوف أبحث عنه.

ـ جيد جداً. إذن أقترح عليك بأن نلتقي حينما تكون قد عثرت عليه.

نهض، والتعب بادي عليه،وتهاوت منه في زفير:

ـ هل لدي الخيار؟ إلى وقت قريب، مسز غراي. بالطبع، إن لم أمت قبل ذلك.

١٤

متدثرة بسترتها، كانت تسير على طول الشاطئ المقفر ما يزال. لا ثنية تكدر صفحة البحر. كل شيء كان هادئاً جداً، ساكنا جداً. إلى الشرق يبرز ظل الجزيرة المقدسة الأدكن.

تخيلي أن في الجهة المقابلة بالتحديد، على جزيرة ليندسفارن، يقيم واحد من أصدقائي القدامى، صموئيل شلونسكي.. إذا كنتِ عازمة على المضي في هذه المغامرة، أظن أن في وسعه أن يساعدك.

لم يكن في وسع خدمة المعلومات الهاتفية أن تمدها بعنوان ذلك الرجل. لكن لم يكن لديها شك في أنها حينما تصير في عين المكان، سيكون من السهل العثور عليه. ليندسفارن لم تكن جَزِيرة، بل جُزَيْرة.

«غريزتي الأنثوية لا تمنعني من أن أكون شخصاً عقلانياً. لقد كانت عقلانية طول حياتها. وأعمالها تشهد على ذلك. إن حبكاتها المنسوجة بدقة شبه رياضية لا تترك مجالا للخيال الجامح. لابد من أن تكون الخطة متماسكة؛ والشخصيات المتحكم في قيادها، لم يكن مسموح لها بأدنى انزياح. لقد تناهى إلى سمعها بعض المؤلفين وهم يشرحون أن في بعض الأحيان، مع توالي الصفحات، يحدث أن يفلت الأبطال من القيد. أما كلاريسا، لم تعش أبداً هذا الوضع. ولو طرأ عليها، لتصرفت على الفور لعلاج الأمر وأعادت المتمرد إلى الصفوف. مما يدعو للتساؤل إن لم يكن موقف الدقة القصوى ذاك إرثاً مسموماً من

والدها العزيز، الصارم في كل شيء، المتزمت في أفكاره. لقد صنعت كل شيء حتى لا تسقط في ذلك الفخ؛ الأكيد أن الأمر لم يكن بما فيه الكفاية، حيث من الواضح أن بعض الجينات العنيدة ما تزال تؤثر في رؤيتها إلى العالم.

ربما نفتقد التبصر، نحن الملائكة. لكن كم إن ريبتكم تصيب بالجنون، أيها البشر.

ماذا لو أن هذه القضية ـ رغم المظاهر ـ كانت تستقيم دقة بالقدر الذي في الحبكات المتخيلة على مر الروايات؟ بعد كل شيء، ألا يؤمن جزء من البشر إيمانا راسخا بأن موسى فلق مياه البحر الميت، وأن عيسى أبرأ الأبرص والأكسح، وكثّر من الخبزوالسمك، وبأنه بعث حيا، وأن مريم العذراء رزقت ولداً دون أن تفقد بكارتها، وأن القرآن تم إملاؤه على محمد من الرّب بذاته، وبأن جهنم حق، والشيطان ويوم الحساب... ولِمَ تكون فكرة وجود قاتل في الجنة أمراً لا يصدق؟

يجب عليك تصديقي، مسز غراي! ليس فحسب لأنني شاهدت جبرائيل ميتا، ولكن أيضاً ـ كدتُ أقول على الأخص ـ لأنك امرأة. ماذا تفعلين بغريزتك؟

ـ لقد استيقظتِ باكرا؟

صرف صوت موركار الروائية عن تأملاتها. لم تنتبه لمقدمه. كان عاري الصدر، بلباس السباحة، ويتفرسها بنصف ابتسامة.

ـ في سني هذه، النوم حتى الظهيرة ترف لا يحق لنا الاستمتاع به، ردت عليه. هل كاتلين ما تزال نائمة؟

تظاهر بالبراءة ليجيبها:

ـ وهل أنا حارس كاتلين؟

ـ بالتأكيد لا. كان مجرد سؤال مني.

سارا بضع خطوات جنبا إلى جنب، ثم قال موركار ملاحظا:

ـ خيل إلي أني سمعت تردد أصوات منذ حين. هل قام أحد بزيارتك؟

ـ أحد جيراني.

ـ باكرا؟

دارت على عقبها:

ـ ألست فضولياً بعض الشيء؟

ـ أقر بذلك. أحياناً.

ـ إنها عادة سيئة.

استأنفا مسيرهما على طول الشاطئ، إلى أن خرق الفتى الشاب الصمت من جديد:

ـ لو كنتُ مكانك، لتخليتُ عن كل شيء.

ـ آه؟ عجيب أمرك. لقد أظهرت فيما مضى، خلاف ذلك، بأن لك رأياً مغايراً بالمرة.

ـ كان ذلك قبل مقتل باكوفيا.

تفرسته باندهاش.

ـ موت باكوفيا؟ كيف تناهى إليك الخبر؟

ـ سمعت المفتش ستيوارت يخبرك بذلك.

ـ الظاهر، صديقي، أن لك أذنان بالمرصاد. وما السبب الذي يجعل موت باكوفيا يدفعني لصرف النظر؟

لم يحر جواباً.

ـ إذن؟ قالت بإلحاح.

ـ لأن الضحية المقبلة قد تكون أنت، مسز غراي.

الثقة التي نطق بها تلك الكلمات جعلت بدنها يقشعر. ولأنها لم تجد سبيلاً إلى الجواب، خرجت من المأزق بأن دارت على عقبيها:

ـ لا أحد سيد على حياته. أنا عائدة. وأنت؟

ـ سوف أذهب للعوم قليلاً.

ـ حسناً. لكن حاذر: التيارات في هذه الأنحاء لا تؤتمن.

ما إن عادت حتى توجهت إلى المطبخ. وضعت الماء ليغلي. الشاي البارد لهذا الصباح ترك في فمها مذاقاً مرّاً. التحقت بها كاتلين:

ـ هل كان نومك جيدا؟ سألتها كلاريسا.

أطرقت المرأة الشابة وكأنها تخشى من أن تكون ليلتها قد خلّفت علامات تثير الشبهة.

ـ جداً. وأنت، مسز غراي.

ـ منذ أكثر من أربعين عاماً لم أعد أعرف كيف هي ليلة حقيقية. أعتقد أنه السن، المقرون بذلك الإحساس بهدر الوقت. هل تعلمين أن الإنسان يقضي أكثر من ثلاث أرباع حياته في النوم؟ أمر سخيف، أليس كذلك؟

أشارت إلى الخزنة:

ـ تجدين الشوكولا المسحوق الذي يخصك على الرف الأعلى، وحبوب الإفطار. الحليب في البرّاد.

تصرفت المرأة الشابة وهي تستخبر:

ـ هل لديك النية للكتابة اليوم؟

ـ ذلك واجب. لدي تأخير في الرسائل التي يجب الرد عليها. هل اتصلتِ بالسيدة بِتِيكُوتْ.

ـ أجل. لقد وعدتني بأنها سوف تحضر للقيام بأشغال النظافة بعد الظهر.

ـ سوف أكون ممتنة لك بمراقبتها. إنها لطيفة، لكن لديها ميل قبيح للانصراف قبل الأوان.

مرَّ بعض الوقت.

ثم لفظت كاتلين:

ـ إني لا أتوقف عن التساؤل عما قد تعنيه الخاتمة التي كتبها جبرائيل.

ـ أية خاتمة؟

ـ *التوأم في* ٠,٨٠٩. أتساءل إن لم تكن هناك في الجامعة مؤلفات تتطرق إلى علم الأعداد أو نظرية الأعداد. سوف يكون من المفيد...

كانت كلاريسا تهم بالرد حينما رن جرس الهاتف. أخذت على الفور السماعة الحائطية. في بضع ثوان تغيرت ملامحها. انقبضت أصابعها بشدة على الجهاز حتى صارت أناملها بيض ناصعة بلون العظام. عندما أغلقت السماعة كان لا بد لها من الاستناد إلى الثلاجة حتى لا تتهاوى.

بعد أن دخل بغتة إلى المطبخ، أسرع موركار نحوها وأمسكها من ذراعها.

ـ مسز غراي! ماذا حل بك؟

هرعت كاتلين لمد يد المساعدة إلى الرجل الشاب.

أشارت السيدة العجوز بنظرها إلى مقعد واستسلمت لرفقتهما نحوه.

ـ هل تفضلين أن نستدعي طبيبا؟

رفضت بإيماءة.

ـ إنه ماكلين. نطقت أخيراً بصوت مخنوق. جانيت دخلت في غيبوبة.

ـ هذا غير معقول! صاح موركار.

ـ بلى! لقد حدث ذلك ليلا.

ـ وما السبب؟ ما رأي الأطباء؟

ـ مما تيسر لي فهمه، إنهم حائرون تماماً.

حدّق الشابان في بعضهما، وكانا مذعوران.

ـ لابد أن البروفسور منهار، قالت كاتلين بصوت مكتوم.

ـ منكسر، أجل.

هل ستموت جانيت؟

إنها تقريباً في عداد الموتى مسبقاً.... إنها مسألة ساعات. أنت أيضاً مسز غراي. لا يسعك تجاهل أن خطراً عظيماً يحدق بك.

أخذت كلمات دانييل تنقر رأس كلاريسا.

هذه المرة، طفح الكيل. سوف تتخلص من هذا الصعلوك، فوق الأرض أو في الجنة!

نهضت دفعة واحدة وانصرفت نحو غرفة الجلوس تبحث عن مفاتيح سيارتها.

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟ قالت كاتلين مذعورة.

كانت تقود بسرعة فائقة. دمَّر غضبها دفعة كل تحفظاتها، كل شكوكها. لا يهم إن كانت في نهاية المطاف ضحية تلاعب شيطاني، لا يهم إن وسمها السخف، الآن تريد أن تعرف، *عليها* أن تعرف. بنظرة ثابتة، لم تتوقف عن استعراض بعض الكلمات المتبادلة مع الملاك. نعم، *الملاك*، قالت بصوت خفيض، مصممة على أن ترسخ نهائيا هذه الخلاصة في ذهنها.. كانت تحتاج فقط إلى برهان أخير. وحيد.

ـ متى تحدثت إلى جبرائيل للمرة الأخيرة؟

ـ اليوم الذي ناولني فيه قائمة المشكوك فيهم. بالضبط قبل أن يتجسد من أجل لقياك.

ـ هل في وسعك تحديد ساعة لقائكما الأخير؟

ـ.. أعتقد أن ذلك كان حوالي الخامسة والنصف بعد الظهر حسب توقيتكم الأرضي. إني أتذكر ذلك لأنه قال لي بأن أتبعه إلى أندروسان. كان يعلم بأن رجلين سوف يلقيا حتفهما. الأول في أندروسان نحو الساعة السادسة، والثاني، في اليوم الموالي عند الفجر، بِكيلدونان.

لقد ركبت كلاريسا عبَّارة السابعة ونصف. وبالتالي، فإن الرجل الشاب الذي حل دانييل في جسده لم يلق حتفه إلا بين شروق الشمس وتلك الساعة.

بالكاد خفضت من سرعتها حينما دخلت الميناء، انعطفت عبر زاوية آلما روود قبالة المفوضية.

ـ هل المفتش ستيوارت هنا؟ صاحت وهي تهرع إلى الاستقبال.

ـ مسز غراي؟ قال عون الخدمة، بغير قليل من الدهشة. أجل، إنه في مكتبه. أخشى أن لا يكون بمفرده. إني...

لم تنتظر التتمة وانطلقت مسرعة في الممر الذي ينفتح يمنة.

أما الآخر فلم يسعفه الوقت لتعقبها حيث وصلت مسبقاً أمام باب مكتب المفتش. ودون أن تتكبد عناء طرقه، دخلت إلى الغرفة:

ـ يجب أن أكلمك. الأمر عاجل!

تفرسها ستيوارت، مشدوها. وبالمثل كان حال الرجل الجالس قبالته.

ـ الآن؟ سألها الضابط حائرا. أليس في وسعك الانتظار؟ لن أنشغل عنك طويلاً.

ـ الآن. برْطَمَت الروائية.

ـ مسز غراي...

استحوذت على المقعد الوحيد المتوفر واكتست سحنة واجمة.

تبادل المفتش والزائر نظرة حرجة. أدرك هذا الأخير الرسالة الصامتة ثم انسحب وهو يسدد أثناء ذلك نظرة مستنكرة نحو الدَّخيلة.

ـ أنت محظوظة، نبهها الشرطي. إنه صديق.

ـ أنصت إلي، طوماس، أحتاج إلى مساعدة منك. بالتأكيد لديك معارف في مشرحة كيلدونان ومشرحة أندروسان.

ـ أوه... كل ذلك رهين بالمعلومة التي تسعين إليها.

ـ ليس في الأمر تعقيد كثير، ولا ما يخرق القانون. أود لو أعرف إن كان قد مات رجل ظهيرة الثامن من يونيو، في اندروسان بين الساعة ١٧و٤٥ دوالساعة ١٨و١٥ د. وشخص آخر، في اليوم الموالي، عند الفجر، هنا، على الجزيرة، بيكلدونان، قبل الساعة

السابعة ونصف صباحاً. هناك تفصيل: هذا الأخير، وهو شاب في الخامسة والعشرين تقريباً، قيل إن سيارة دهسته.

ـ قطعا، غمغم ستيوارت، إنك لا ترحميني. ألم تتعهدي إلي بأن لا تواصلي هذه القضية؟ ألم...

ـ أرجوك، ثق بي. أريد فقط أن أشبع فضولي. لا أكثر.

ـ لا أصدق كلمة مما تقولين!

ـ بلى. إنها الحقيقة التامة!

ـ هل يمكنك على الأقل إخباري من أين هبَّ عليك هذا الاهتمام المباغت بأعزائنا المختفين؟

ـ كن لطيفاً. لا تطرح علي أسئلة. أعدك بأن أشرح لك كل شيء في ساعته وحينه. متى تستطيع الحصول لي على هذه المعلومات؟

مدد المفتش ساقيه وهو يسند رقبته إلى الجدار:

ـ لنقل خمسة عشر يوما؟

ـ خمسة عشر يوماً؟ لا يخطر ذلك ببالك! سوف يكون قد فات الأوان.

ـ عشرة؟

ـ لا، طوماس. تلزمني غداً.

افتر فمه عن ضحكة خفية:

ـ هل دعوتك للعشاء ما تزال قائمة؟

قطبت حاجبيها.

ـ وما صلة هذا بذاك؟

ـ أجيبيني.

ـ بالتأكيد. يوم السبت.

ـ اليوم الثلاثاء. بعد أربعة أيام إذن.

نفد صبر السيدة العجوز:

ـ إني أجيد العد! أجل. أربعة أيام.

ـ لا أطعمة مجمدة. اتفقنا؟

ـ أي لعبة منك هذه، اللعنة؟

ـ هذا مقابل ذاك. لا أطعمة مجمدة.

اغترقَت نفَساً شديداً:

ـ موافقة.

في الحين أخذ ينقر على لوحة مفاتيح حاسوبه:

ـ ماذا تصنع؟

ـ أستجيب لطلبك. للقسم الثاني منه على الأقل.

ـ هناك؟ برذالة الحديد هذه؟

ـ رذالة الحديد هذه، مثلما تقولين، تضم سجلات كل الوفيات الناجمة عن حوادث أو المشتبه بها التي وقعت على الجزيرة خلال التسعين يوم الأخيرة. بعد ذلك، سوف يتم نقل وتخزين هذه المعلومات في حاسوب مركزي بإدنبره.

دقائق معدودات بعد ذلك، سُمِع خرير خافت. واصل ستيوارت النقر ثم نهض، وأمسك ورقة خارجة من أحشاءِ آلة طابعة وقرأ بصوت غير متحيز:

ـ جيمس أوكنور. ولد ليوم ٣٠ مارس ١٩٧٦، يقيم في ٢٣، مايبش روود بكليدونان. دهسته سيارة من نوع روفر، رقمها BR602

XP، بينما كان يعبر خارج ممر الراجلين. ٨ يونيو. السادسة وأربعين دقيقة.

دفع الورقة تحت أنف السيدة العجوز وهو يختم:

ـ أنت محظوظة.

تسارعت نبضات قلب الروائية. هكذا، دانييل قال صدقاً.

ـ وبالنسبة لرجل أندروسان؟

ـ لقد تم ذلك. أرسلتُ بريداً إلكترونياً إلى زملائي؛ لا بد سوف يجيبونني في الساعة الموالية.

نهضت بوجه طفل مشرق وبعفوية طبعت قبلة مسموعة على خد ستيوارت:

ـ كم أنت لطيف، طوماس! شكراً لك.

أمسكها من ذراعها وقال بحزم:

ـ تذكري ما قلته لك، كلاريسا: أنا أحتاط من الخوارق، كلاريسا غراي. احترسي من ذلك أيضاً...

تظاهرت بالأمان:

ـ أجل، أجل. بالتأكيد...

جالسة خلف مقود سيارتها التريومف، كانت تطير فرحاً. إنها تمسكه، برهانها ذاك. أخرجت مذكرة من حقيبتها وخربشتْ:

١ ـ جثة جبرائيل.

٢ ـ تذكرة خدمة الودائع والمفكرة.

٣ ـ نسيج المفكرة، والصفحات والحبر.

٤ ـ مرض جانيت.

٥ ـ توأم جثة أوكازي.

٦ ـ مقتل باكوفيا.

٧ ـ قدرة دانييل.

٨ ـ الشاب الذي دهس في حادثة السير.

٩ ـ ميت أندروسان؟

وعن النقطة الأخيرة ليست متأكدة من شيء بعد، لكن لم يخامرها شك ولو لحظة بأن ناس إدنبرة سوف يؤكدون وفاة ذلك الغريب في التوقيت الزمني الذي أشار إليه دانييل. الآن لم يبق لها سوى الدعاء ـ جعلتها الفكرة تبتسم ـ بأن يتجلى **ملاكها** بسرعة. من دون عونه، ستجد نفسها في طريق مسدود. فعلا، قد يغض المرء الطرف عن عجزه على تفتيش مسرح الجرائم، لكن كيف يتقدم في سيره بتجاوز تلك المرحلة الأولية جداً ألا وهي استنطاق المشتبه بهم؟ «أعرف أن جبرائيل فكر في حل» هذا ما أوحى به دانييل. أجل، لكن أي حل؟ ما السبيل الذي قد يسلكه إنسان فان للاتصال بأموات؟ عبر الأرواح الراجمة؟ تحضير الأرواح؟ الوسطاء الروحانيون؟ كانت كلاريسا تعلم مبدئيا أنه من غير الوارد بالنسبة لها القبول باللجوء إلى تلك الحِيل الفاشلة. بدا لها من غير المعقول مجرد التفكير في أن ترى نفسها جالسة بين شمعتين، داخل حجرة غارقة في العتمة وروائح البخور. أما المرة الوحيدة في حياتها التي غلب عليها هوى استشارة عرّافة، فقد انتهت بأزمة ضحك هستيري لم تستطع كبحه. ثم إنها لم تعمد إلى تلك الوسيلة لولا متطلبات روايتها الثامنة **الحالة فليتشر**. لم تغفر لنفسها أبداً اضطرارها إلى أداء خمسين جنيه مقابل الاستماع إلى سخافات مثل: «سوف تتوصلين برسائل» (وقد كانت تتوصل في تلك الفترة بزهاء عشر رسائل يوميا)، «هناك من يحسدك» (أي كاتب لا

يكون عرضة للحسد حينما تخرق كتبه سقف المبيعات!)، «لكن هناك من يحميك، في السماء»، ـ من يكون ذاك؟ سألتها ـ إنها أمك»، ردت عليها العرَّافة (بينما كانت أمها المسكينة ما تزال على قيد الحياة).

خمسين جنيه... إنها ما تزال ترى نفسها وهي تعد الأوراق النقدية وعين العرَّافة مشدودة بقوة إليها.

لقد فكر جبرائيل في حل. أمعنت في التفكير لكنها لم تر أي حل هو ذاك.

مهما يكن، لا مجال بالنسبة إليها لأن تبقى مكتوفة اليدين.

شغلت محرك التريومف وسلكت وجهة الميناء.

وهو جالس عند مرقد زوجته، لم ينجح ماكلين بعد في التآلف مع هذا الوجه الجامد، هذا الجسد الثابت، هذه الذراع الهزيلة التي تجري فيها قطرات صغيرة حاملة لحياة حلوة تنزلق من المشنقة إلى الوريد بانتظام بندول الإيقاع. المشنقة، تسمية عجيبة لتعريف حمالة الأمصال التي تبعث البقاء على قيد الحياة رغم ذلك. من كل منخر يبرز أنبوبان لبنيان عبرهما يتدفق الأوكسجين: أعداد كثيرة من الجزيئات الحيوية، الشفافة، غير القابلة للَّمس، غير المرئية. هناك تفصيل غريب: ظلت عينا جانيت مفتوحتان واسعاً، وحدقتاها تتأرجحان بانتظام يميناًويساراً مثل ممسحتي زجاج. ماذا كانتا تريدان رؤيته؟ أي لوح غامض كانتا تريدان فك رموزه، ما لم يكن كتاب الموتى؟ ما إن تنهي قراءته، هل سترحل جانيت إلى الأبد؟ في هذه الحال، سوف يسير ماكلين في عقبيها حينذاك يغوصان في الهاوية. حيث، وهذا ما كان موقنا منه، لا يمكن أن يوجد غير ذلك في الجانب الآخر من المرآة: الهاوية. عقله العلمي كان يمنعه من تخيل

أي شيء كان بعد السفر الأخير. ظهور الإنسان فوق الأرض كان ثمرة صدفة. سوف يختفي مثلما جاء: بالصدفة. الإيمان بتدبير إلهي كان أمر سخيفا. وإلا فإنه بالمثل سيتخيل أن انقراض الدينصورات كان أمراً مدبراً، وأن النيزك المسؤول عن استئصالها قد تم رميه عبر الفضاء من طرف إله بيولوجي.

ورغم ذلك ...

ما السبيل لتفسير ذلك؟ أين أجد الكلمات للتعبير عما يستعصي قصصه؟ كنا خالدين، منذ الأزل، وها نحن الآن على صورة مخلوقات الأكوان الأخرى. ضعاف، معرضون للعطب، سفساف تراب محكوم عليها أن لا تكون غير ذلك: سفساف تراب. هل تصرفنا بعُجب أم نحن ضحايا تعساء لتواضعنا الكبير؟

إذا كانت كلمات المفكرة تقول الحق، إذا... فإن جبرائيل موجود، وموسى وعيسى، والبعث. والرب.

بحركة لا شعورية، انزلق ماكلين خارج الأريكة حيث قضى الليلة ثم ركع، يداه مضمومتان، مثلما حدث يوم مناولته الأولى.

١٥

كادت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر حينما ترجلت كلاريسا. ظلت لأكثر من أربع ساعات حبيسة الميناء! لأنها تجري بما يشتهيه المدوالجزر، لم تنطلق السفينة إلا في حدود الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر. منذ الأزل، تعيش ليندسفارن على إيقاع مد وجزر البحر. أرض مشربة بحُمْرة من بضعة أميال. منديل جيب يطفو فوق المياه. أصبحت الجزيرة الصغيرة منذ سنوات معدودة فضاء للتأمل بامتياز. ليست روح القديس مُولِيزْ هي ما يجعل نفحة من الروحانية تهب على الصخرة الموقَّرة؛ ولو أن هذا الأمير الأيرلندي استقر بها في القرن السادس وبها عاش ومات في عزلة. كما ليس وجود الدير البنديكتي، المشيد في موقع معبد قديم بني قبل ذلك التاريخ بتسعة قرون على يد القديس **إيدان** شفيع الجزيرة ما يفسر أن ليندسفارن أصبحت من أكبر الأماكن المقدسة في العالم الأنجلوساكسوني. بل إن السبب يكمن في موضع آخر، ويتخذ اسم **بِيش لوزال**. سنوات من ذي قبل، قرر هذا الراهب البوذي القادم من التِّبِت، المستلهم لروح الأخوية، الحصول على ملكية الجزيرة حتى يؤسس فيها مركزاً منذوراً «للسلام العالمي وللصحة»، ويجعل فيها محمية طبيعية للحفاظ على الأنواع. إلا أن المالك الأصلي، السيدة **كاي موريس** التي اشترطت في البداية مبلغ سبعمائة وخمسون ألف

جنيه تنازلت للراهب البوذي عن ليندسفارن مقابل نصف المبلغ تقريباً. والسبب؟ لقد تجلت لها مريم العذراء ذات ليلة ونصحتها بشدة أن تبيع مقابل ذلك المبلغ خدمة للسلام والتأمل. هل هناك أحسن من تلك البشارة لأجل مركز للتعارف بين الأديان؟

مستفيداً من دعم وتمويل سامیي لينغ، أحد أقدم معاهد البوذية التبتية في أوربا، كان المركز الجديد مفتوحاً في وجه المتدينين من جميع الديانات، لكن وفق بعض الشروط: منع استهلاك المخدرات والكحول أو التبغ. يمنع إدخال الحيوانات إلى الجزيرة، اتباع سلوك لائق، ونهج يحترم البيئة.

تفحصت كلاريسا الدليل المطوي الذي احتفظت به من خدمة الاستقبال في ميناء بروديك. بداخله، تصميم مرسوم في صفحتين يصور البنايات الرئيسية. يمين الرصيف، فوق مرتفع بركاني، هناك أطلال القصر الذي شيده هنري الثامن. إلى الجنوب الغربي، إشارة طريق كنيسة القديسة ماري؛ إلى الغرب إشارة كنيسة القديس كوتبرت؛ إلى الشمال الشرقي إشارة طريق كنيسة القديس إيدان. ما لا يقل عن ثلاثة كنائس من أجل حوالي مائة شخص ولا كنيس. إضافة إلى هذه المنشئات الدينية، هناك متحف، المارِغيت هاوس، وهو بناية تضم مكاتب الجمعية التِبِتِيّة، ومركز للاستعلام وسوق ومقهى ومعبد بوذي بطبيعة الحال، بينما تبرز في الخلف الكثير من البيوت الواطئة المخصصة لإيواء الزهاد القادمين من كل بقاع العالم. لكن ما يثير استغراب الزائر أكثر هو تلك المقبرة المؤلفة من السفن الجانحة على الشاطئ. كانت الزوارق نائمة هناك، ينخر الرمل والرذاذ هياكلها. الصواري مستلقية، الأشرعة ممزقة، محبوسة في توابيت الملح. مقبرة بلا صلبان. لأنها كانت متخصصة في صيد أسماك الرّنك، فإن هذا

الأسطول الصغير كان مفخرة ورمز ليندسفارن. حدث ذلك منذ أزيد من قرن.

فجأة أظلمت السماء، أخذ رذاذ كثيف يسحُّ، لا تنقص سوى البروق ليتحول منظر الطبيعة إلى ديكور كئيب تعمه الأشباح.

ودون مزيد من الانتظار، توجهت كلاريسا نحو مركز الاستعلام.

كانت هناك فتاة شابة، وجهها مرصع ببقع النمش، تجلس خلف نافذة يزينها مجهار في منتصف علوها، وتتحدث إلى شخص يلبس زيًا برتقالياً. قطعاً، حدثت الروائية نفسها، لقد صار العالم غريباً حقاً. انتظرت بنفاد صبر نهاية الحديث. خمسة دقائق، سبعة، هذان الاثنان لم يفرغا من الثرثرة. لذلك قررت مخاطبة الرجل:

ـ سيدي، لا أعرف إن كنت قد انتبهت للأمر، قد تشرع الأمطار في التساقط وليست لدي مظلة.

في الحال ضم الشخص يديه عند علو صدره وانحنى قليلاً في موقف يشوبه التواضع:

ـ أوه! أرجو المعذرة.

أفسح المكان بخفة.

أدنت كلاريسا فمها من المِجهار:

ـ أليس في وسعك معرفة كيف يمكنني الاتصال بصديق يقيم على الجزيرة؟ اسمه صموئيل شلونسكي.

ـ أهو من مسؤولي الجمعية؟

لأن المجهار قد شوهه، بدا صوت الفتاة الشابة وكأنه صوت إنسان آلي.

ـ أية جمعية؟

ـ تلك التي تضم الأعضاء من أجل السلام والصحة.

ـ لا معرفة لي بذلك أبداً. ربما.

ـ سوف أتحقق من الأمر.

انغمست الفتاة الشابة في فحص ورقة مرقونة:

ـ شونسكي؟ أليس كذلك؟

ـ لا. شلونسكي. باللام.

ـ اسمه الأول؟

ـ صموئيل.

كانت الروائية تغلي.

مرت دقائق معدودة. تناهى إليها الصوت المعدني معلنا:

ـ آسفة. لا أحد يحمل هذا الاسم.

ـ هل أنت متيقنة؟

ـ كما هو معلوم، الأعضاء لأجل السلام العالمي ليسوا إلا ستة.

ـ ماذا لو كان بكل بساطة يقيم على الجزيرة؟

ـ ذلك ممكن. هل لديه رقم هاتف؟

أجابت كلاريسا بالنفي.

ـ إذن، أنا آسفة سيدتي. ما من سبيل للعثور على عنوانه.

ـ بلدية؟ هل هناك بلدية؟

ـ بلدية؟ أنت غير جادة. ليندسفارن مِلكية خاصة، وعددنا غير كثير. ما الفائدة من بلدية؟

كانت السيدة العجوز تتميز من الغيظ. عندما قدمت إلى هنا، أبانت عن تسرع لا يصدق.

ـ المعذرة، سيدتي...

كان الشخص صاحب الزِّي البرتقالي هو من يخاطبها.

ـ نعم؟

أشار إلى الرصيف البحري:

ـ هل ترين ذلك الرجل الذي يخيط شباكه؟

أمنت على كلامه.

ـ يدعى أنجوس. إنه مقيم هنا على الدوام. لا شيء مما يقع على الجزيرة يغيب عنه. اسأليه. أنا متأكد بأنه يستطيع إخبارك.

انبسطت أسارير كلاريسا. بعد كل شيء، كان شخصاً خيِّراً، هذا الرجل، حتى بزيه ذاك.

شكرته وسارت نحو البحر.

ـ أنا خجلة من إزعاجك، قالت وهي تنحني صوب الصياد. لكني أبحث عن صديق.

لم يبال الرجل حتى برفع رأسه.

ـ كلنا يبحث عن صديق، زمجر. قد تبحثين طويلاً.

ـ اسمه شلونسكي. صموئيل شلونسكي.

لم يتجشم الصياد عناء التفكير:

ـ اليهودي؟

ـ هو ذاك.

ـ إنه يقيم في الجهة الأخرى.

ـ هل ذلك بعيد من هنا؟

ـ إنك في ليندسفارن، سيدتي...

ـ هل من وسيلة للوصول إلى هناك؟

ـ أربع عجلات. عجلتان. زورق، أو ساقين.

أشارت السيدة العجوز إلى المركب:

ـ هل تقلني؟

ـ كل شيء رهين...

فتشت حقيبتها:

ـ عشرة شِلينغ؟

حينها فحسب انتصب واستطاعت كلاريسا ملاحظة أن بشرة وجهه كانت مثل شبكته: لها ثلاثة عقد. سألها:

ـ من أين جئتِ، سيدتي؟

ـ من آران. لماذا؟

ـ ألا يحترم أهل آران الجنس البشري؟ عشرة شلينغ؟

ثم أشاح عنها.

ـ عشرون؟

لا جواب.

ـ أربعون؟

ـ زورقي لا يفهم سوى الأرقام المحولة إلى جنيهات. ليس أقل من ثلاثة.

كادت كلاريسا أن تختنق.

ـ ثلاث جنيهات؟

ـ وذلك لأني في أسعد أيامي.

ـ حسناً، شهقت، لكن مقابل هذا الأجر، سوف تعيدني. لن يستغرق مني الأمر وقتاً طويلاً.

ـ أربعة للرواح. وأمهلك ساعة. ولا دقيقة واحدة بعدها.

استسلمت وهي ترغي في الداخل من الانتهازيين.

كان بيت صموئيل شلونسكي ينتصب على شفا جرف هار. لكنه لم يكن بيتا، بل ركاما من الحجارة، والجدران المائلة التي تآكلها اللبلاب والأعشاب الطفيلية. توقفت عند الباب، وبمواجهتها لهذا الخشب المُسَوَّس والمتآكل، ترددت في طرقه. أمر عجيب، كانت الستائر مسدلة.

تجرّأت وطرقت الباب مرتين. ثلاث. وكان وقع خطوات.

ظهر رجل قصير القامة، الرأس أمرط، جسمانه يابس. عيناه محتجبتان خلف نظارتيه، تفحص السيدة العجوز والريبة بادية عليه. بكم يقدر سنه؟ سبعين؟ خمسة وسبعين؟ كان له أنف أفطس، وتختفي وجنتاه تحت لحية كثة غير معتنى بها. بالكاد يتبين المرء جانِبَيْ فمه.

ـ يومك سعيد. هل أنت بحق السيد شلونسكي؟

ـ ذلك رهين الأوقات. من أنت؟

ـ اسمي كلاريسا غراي. أود التحدث إليك بضع لحظات.

ـ لماذا؟

ـ أنا صديقة لباكوفيا.

ـ فاسيلي؟

زكت قوله.

ـ إلى أين صار ذلك المجنون العجوز؟ دائماً بجامعة غلاسكو؟

ـ لا.

ـ ماذا بعد ذاك؟ لا تقولي بأنه عاد إلى رومانيا.

أبدت كلاريسا على محياها الحرج:

ـ هل يمكن لي الدخول، سيد شلونسكي؟ سوف أشرح لك الأمر.

ابتعد جانبا ليفسح لها الطريق.

ومع أن الغرفة الرئيسية لم تكن مضاءة سوى بالشموع، يمكن تبين أنه خلافاً للمظهر الخارجي كان كل شيء هنا يصدح بالترتيب والنظافة. الأثاث صارم لكن كتبا تغطي الجدران. فوق منضدة صغيرة وضعت رقعة شطرنج من الخشب المنحوت.

التمس شلونسكي من السيدة العجوز الجلوس وبادر إلى دعوتها:

ـ لقد أعددتُ الشاي للتو. هل ترغبين في شيء منه؟

ـ بكل سرور.

عاد لحظات عقب ذلك بصينية عليها إبريق من الصفيح للشاي وفنجانين. وهو يخدم زائرته، استخبر منها:

ـ إذن؟ باكوفيا؟

ـ أخشى أن يحزنك الخبر.

تصلب جسمان الرجل القصير:

ـ حينما يتم استعمال هذا النوع من الاستهلال، التتمة هي نفسها على نحو لا رجعة له. هل مات؟

ردت بالإيجاب.

عم صمت طويل يوقعه انكسار الأمواج أسفل الجرف.

ـ ذلك مؤسف للغاية، صرح شلونسكي في نهاية المطاف. لم

نستمتع ببعضنا بما فيه الكفاية. كل شيء يجري بسرعة شديدة. كل شيء قصير بشدة.

تقلصت عضلات وجهه.

ـ كان صديقي.

لقد قال كل شيء في هاتين الكلمتين.

ـ أزمة قلبية، أعتقد؟ لقد كان بدينا جداً. لقد حذرته.

ـ لا، سيد شلونسكي. لا دخل للقلب في ذلك.

ـ آه؟

اغترفت جرعة هواء قبل أن تكشف له:

ـ لقد تم اغتياله.

ـ اغتياله؟ لماذا؟ كيف؟

ـ إنها حكاية طويلة. لا تصدق أيضا؛ في الظاهر، على الأقل.

عاجلت بالقول:

ـ ذلك سبب زيارتي.

صالب شلونسكي يديه فوق المائدة:

ـ أنا منصت إليك.

تدحرجت كاتلين على الرمل ثم سوَّت جسدها مع جسد موركار. الرذاذ المتناثر لم يزعجهما. هل كانا يدركانه فقط؟

ـ لقد سحرتني، همست. أعتقد أني أحبك.

ـ أن نحب... لقد صار الفعل جسدا.

ابتسمت لملاحظته. بحث عن فمها وأغلق عليه فمه بشدة تظهر

اليأس. لبثا ملتحمين إلى أن شعرا بضيق في التنفس. حبس موركار كتفي الفتاة الشابة ورفعها قليلاً:

ـ كم وددتُ أن تكوني أختي، قال بلطف.

ـ أختك؟

ـ لمَ هذا الاستغراب؟ ألم يطلق المصريون القدامى هذا الاسم على المحبوب؟

ـ أجل. لكنك لستَ الفرعون ولستُ أختك. ألم يعلمك أساتذتك أن حضارتنا تقع تحت محرمات ثلاث: الزنا بالمحارم، أكل لحم البشر والقتل؟

ـ الزنا بين الأخ والأخت لا ينبغي أن يكون ضمن هذه القائمة.

الصرامة التي عُبر بها فجرت ضحك كاتلين.

ـ لأي سبب؟

ـ لأنه يمثل ولادة لا تقبل القسمة، بيضة لا تنفصل عبر الزمن والبشر.

تفرست وجهه في صمت وكررت:

ـ أنت حقاً شخص يثير العجب، موركار.

محولة دفة الحديث على حين غرة قالت:

ـ تستحوذ على أكثر فأكثر قضية الملائكة المغتالين تلك. هل تتذكر جملة جبرائيل الغريبة: «التوأم في ٠,٨٠٩»؟

ـ تماماً.

ـ تراودني الرغبة للذهاب بغية التنقيب في مكتبة الجامعة. أنا على

يقين من أني سوف أعثر على شيء، دليل، يسمح لنا بفهم هذه الرسالة.

ـ ذلك ممكن. لكن قد لا تحبذ مسز غراي ذلك. ألم تقرر وضع حد نهائي لكل ذلك؟

دبّت ابتسامة ماكرة في شفتي الفتاة الشابة.

ـ ظاهرياً. إنك لا تعرف النساء جيداً. إنهن منقلبات. منقلبات جداً...

ترك شلونسكي مقعده ومشى نحو رقعته للشطرنج. بحركة مضبوطة، نقل الفارس الأبيض من مكانه وثبت نظره في اللعبة، مفكراً في الحركة الموالية.

ـ هذا طبع ثان في. حينما أجدني إزاء صعوبة تتجاوز إدراكي، أخلط ذهني وأجره إلى مكان آخر.

استدار نحو الروائية:

ـ هل تجيدين لعب الشطرنج؟

أومأت رأسها نفيا.

ـ يا للخسارة. إنها لعبة مثيرة. ربما من أشد الألعاب إثارة في الدنيا. الموت، الحياة، الخوف، التردد، الاستباق، العنف، الشفقة أحياناً؛ حب السلطة دائماً. مجمل المشاعر الإنسانية مجتمع في هذه الخانات الأربع والستين.

تناول قلم حبر من على رف وعاد للجلوس.

ـ علّمتني الحياة أنه لو أردنا مواجهة مشكل معقد جداً، علينا بذل جهدنا للتفكير، ليس فقط بصفة العلماء، وإنما أيضاً بوصفنا فنانين. أعود إلى لعبة الشطرنج. مثل أي علم، لأن الشطرنج علم، فهذه

اللعبة هي فن أيضاً. إن مباراة شطرنج تقدح المشاعر الجمالية العارمة مثلما تفعل مشاهدة لوحة لرومبرانت أو منحوتة من منحوتات ميكائيل أنجلو. وقد شهد تاريخ الشطرنج عدداً من هذه المباريات العظيمة حيث النفحة الجمالية غلبت القوة الخالصة.

استبد القلق بكلاريسا. الدقائق كانت معدودة عليها ومضيفها يشط. لم يُعبِّر حتى عن رأي بخصوص ما أسرت إليه. عقدت العزم على مقاطعة كلامه.

ـ أي خلاصة تخرج بها من هذه المغامرة؟ هل تصدقها؟ هل تظن أني مستهدفة من طرف معتوه؟

ـ إنك تثيرين دهشتي، مسز غراي. لقد قرأتُ بعض كتبك، ومما طبعني أكثر هو علم البناء عندك. بناء شبه رياضي. إذن لنفكر «علميا». لنتصور أن مرض جانيت هو ثمرة للصدفة، وأن الجثة التي كانت تحتضر في مدخل بيتك هي ناتجة عن اضطراب دماغك المصاب بالشيخوخة وأن اكتشاف ذلك الأيرلندي، الذي يشبه بكل ملامحه الرجل الميت، هو بدوره وليد المصادفات، وأن ذلك الرجل الشاب ليس مَلَكا، وإنما هو شخص يمتلك حساً خارقاً بتوارد الخواطر، بل لنفترض أنه مؤلف المفكرة والمحرض على كل هذه الأحداث. لكن هذا لا يمنع رغم ذلك من أن باكوفيا قد تم اغتياله حقاً وحقيقة. هذه المأساة لوحدها تبرر سعينا لكشف غموض هذه القضية. سواء كان أصله سماوي أو بشري، فإن قاتلا قد ضرب، يستحق أن نتعرف على هويته وإن أمكن، معاقبته.

جذب الورقة نحوه، وضع سطوراً تحت بعض الكلمات بقلمه وشطب على أخرى:

ـ لنكن فنانين وأطفالاً. لنحتفظ بما هو أساسي فقط. يعني، لنَرَ... الـ ١٩والـ توأم في ٩٠٨,٠؟

بدت ابتسامة خفية على شفتيه:

ـ عشرة. أربعة وستون خانة. ستة زائد أربعة تساوي عشرة. ظريف.

ـ عشرة؟ كررت كلاريسا.

ـ في الجيماتريا guematria، لكل حرف قيمة عددية. والجيماتريا إجراء يتمثل في استعمال القيمة العددية لحروف كلمة أو مجموعة من الصوامت، لأجل تفسيرها بتقريبها من كلمة أخرى لها القيمة العددية نفسها؛ هذا بالطبع انطلاقاً من مبدأ أن لكل حرف قيمته الخاصة به. وهو إجراء عرفه الإغريق القدامى، لكن الذي اتخذ مداه من خلال الأدب العبري.

ـ أعترف بأني لم أفهم ملياً.

ـ لنأخذ مثالا مقتبسا من التوراة، يخبرنا يعقوب في مقطع من التكوين XXXII، ٥: «لقد أقمتُ عند لابان». القيمة العددية للعبارة «لقد أقمت» تساوي ٦١٣. ونتيجة لذلك، يُفهم من الجملة أنه خلال مقامه عند لابان، فإن يعقوب اتبع الوصايا الـ٦١٣.

ـ ستمائة وثلاثة عشر من الوصايا؟

ـ أجل. مثير للعجب، أليس كذلك؟ نحن، اليهود، نطلق على تلك الوصايا اسم «مِيتْسْفُوتْ». إنها أوامر يجب أن يسعى المرء لإتباعها في حياته.

لقد شق عليها مجاراته، لكنها أحجمت عن إظهار ذلك.

ـ بالنسبة لي، قال مسترسلاً، معنى العدد ١٠ بديهي.

ـ آه؟

ـ نحن إزاء الخالق.

ـ لا تؤاخذني، لكن ماذا تقصد بـ «إزاء الخالق»؟

ـ عندنا، اسم الرب غير قابل للنطق تحديداً. وبخلاف ذلك، في وسعنا التوجه إليه باستعمال كنى. يوجد منها عشرة. وسوف أثير انتباهك أثناء هذا أن الإسلام يقترح تسعة وتسعين اسماً. والاسم المائة خفي ولا يجب كشفه إلا يوم الحساب. ليس هذا كل ما في الأمر. أعتقد أنك لم تسمعي أبداً بكلمة «سِفيرُوت »؟

أجابت بالنفي.

إذن لنقل، باعتمادنا الاستقراء، إنه مصطلح من القبالية الذي يدل على الأعداد العشرة الرئيسية أو المثالية، والأنوار التي يتجلى فيها العالم الإلهي. يتم تمييز ثلاثة أصناف من السفيروت «الأنوار» العلوية، ذات طبيعة مثلية خالصة، وسبعة سفلى، تسمى سفيروت البُنيان التي تلعب دور أسباب ثانوية بالنسبة للعالم خارج الإلهي.

في الحين خطرت كلمات دانييل على بال كلاريسا: «كان عددنا يبلغ عشر ملائكة موزعين إلى مقامين. ثلاثة عُلْويون وسبعة سُفْليون» وهل هذه مصادفة أيضا؟ طردت هذه الخاطرة ونبهت مخاطبها:

ـ أذكرك أن جبرائيل ذكر العدد ١٩ وليس ١٠.

نقر صموئيل على الورقة بطرف قلمه الحبر.

ـ بالتأكيد، لكن نحن في الطور الأول فقط. الطور الثاني سوف يكون تأكيداً له. هناك نوع من الجمالية، بل الأناقة في الوسيلة التي يستعملها جبرائيل لهدينا إلى الطريق الصحيح. في العدد المذكور لا توجد إشارة واحدة بل هناك اثنتان، الواحدة تكمل الأخرى.

استوى في جلسته ونزع نظارتيه.

- هل سبق لك تصفح القرآن؟

- مطلقاً.

- كان عليك فعل ذلك، أنتِ التي تستهويك الألغاز. يتميز هذا الكتاب بظاهرة فريدة لن تلفي لها مثيلاً في أي كتاب آخر؛ ٢٩ سورة - أو فصل إن أحببتِ - تبتدئ بمجموعة من «الفواتح القرآنية» تتألف من حرف إلى خمسة حروف. يتعلق الأمر بأربعة عشر حرفاً مختلفاً، أي نصف الحروف الأبجدية العربية. لم يتوصل أحد إلى سبب وجود هذه الحروف. بيد أن هذه «الفواتح القرآنية» تتصل على نحو وثيق بالعدد ١٩.

انتقى اليهودي كتابا من على الرف. فتحه عند الصفحة المحددة ووضعه أمام كلاريسا:

- إقرئي...

بدا عليها ملمح الضجر.

- لا أحمل نظارتي معي.

وكان صموئيل هو من قرأ:

«عليها تسعة عشر». السورة ٧٤، الآية ٣٠. صدفة ربما... لكن القرآن يتكون من ١١٤ سورة. حسب سفر التكوين، خلق الرب العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع. إن قسمنا عدد السور على ستة، على كم نحصل؟

- لم يحدث مطلقاً أن كنت بارعة في الحساب الذهني. تسعة عشر؟

- تماماً. صدفة، في نظرك؟

لم تعرف كلاريسا بأي شيء تجيب.

ـ صدفة إضافية. أقدس كلام في القرآن هو la illah et lalah التي تعني: «لا إله إلا الله». هل تعرفين كم مرة ترد في الآيات كلمة «un»، واحد بالعربية، التي تدل على الرب؟

ـ دائماً تسعة عشر؟

أكد قولها:

ـ إن جبرائيلك ترك لك دليلاً ممتازاً.

ـ قد تجد أن تفكيري بطيء، لكني لا أرى فيم سيفيدني تمثيل اسم الرب للعثور على قاتل الملائكة، وباكوفيا، وغدا ربما، قاتل جانيت ماكلين؟

ـ إنه مفتاح. يفتح أي باب؟ لا أردي.

دست كلاريسا يدها في شعرها:

ـ هناك أمر يربكني. لبسط برهانك بخصوص ذلك العدد المفترض أنه يمثل الرب، لم تعتمد إلا على دينين من الأديان التوحيدية الثلاث، مقصيا الدين الثالث، أي المسيحية. لماذا؟ ألا يمكن أن توجد بعض القيم أو بعض الحروف الرمزية في العهد الجديد؟

زفر صموئيل شلونسكي بانتظام:

ـ إنك ترتكبين خطأ، مسز غراي. لم أختر شيئاً عن عمد. إن جبرائيل ـ إذا كان الأمر يتعلق به حقاً ـ هو الذي يمدنا بالعدد ١٩. بيد أنه لا أثر لهذا العدد في العهد الجديد. من المعلوم أنه يتم إحصاء الكثير من القيم العددية الأخرى، من قبيل أربعين، أو سبعة، أو تسعة وتسعين، أو ثلاثة، أو أيضاً في سفر الرؤيا، الرقم المشهور الذي يخص الدّابة، ٦٦٦، لكن ليس ضمنها ١٩.

ـ مما يعني؟

تأمل ثم قال:

ـ لدي فكرة. خذيها بما لها: مجرد افتراض. وعلى نحو مفارق، رغم المظاهر، الدينين الأكثر قربا من بعضهما البعض هما الإسلام واليهودية. ولو أنهما يرفضان ذلك، رغم الغضب الذي يسكنهما اليوم، على الأخص، فقد لقحا بماء واحد، ماء إبراهيم. اسمحي لي بأن أنعش ذاكرتك. «قال الباقي: بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه، عهداً أبدياً، لأكون ربه ورب نسله من بعده. واستجبت لك في إسماعيل: ها أنا أباركه، وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة». وختن الأب ولديه، ودفن إسحق وإسماعيل أباهما في مغارة المكفيلة. لا قرابة بين المسيحية وهذين الدينين. وعلى النقيض من ذلك، ألاحظ مع الأسف أنها أراقت من الدم اليهودي والدم المسلم أكثر مما فعله الطرفان الآخران. الحروب الصليبية، محاكم التفتيش، المحرقة هي هنا تشهد على ذلك. العدد ١٩ هو نوع ما الطريق المختصر نحو اسم الرّب، تشذيب طوعي. يقود إلى الأساس، ويجنّب الالتباس. رفع ناظريه نحو الروائية:

ـ هل باغتتك؟

ـ لنقل إني أجدك متحيز شيئاً ما.

عاد صموئيل شلونسكي نحو رقعة الشطرنج وحرّك الحصان الأسود.

ـ خلافاً لذلك، قال بتؤدة، لا أرى بعد ما الذي يفعله هنا العدد ٠,٨٠٩ وذلك الإلماع إلى التوأم.

دار على عقبيه:

ـ هل يمكن أن تعهدي لي بالمفكرة بضعة أيام؟ أريد فحصها بعناية أكبر. قد يكون الجواب مختفيا فيها. وفي هذه الحال، أؤكد لك بأني سأجده.

ـ شرط أن تعتني بها جداً. لا أريد أن تضيع مني.

ـ سوف أعتني بذلك. يمكنك الوثوق بي.

لزمت السيدة العجوز الصمت.

ـ أأتمنك على المفكرة، قالت وهي تنهض من مكانها.

خطت أسفل ملاحظات باكوفيا رقم هاتفها وأضافت:

ـ تخبرني بما يستجد؟

ـ بالطبع.

رافقها إلى غاية عتبة الباب.

في الخارج، كان المغيب قد سيطر على المشهد. وأنجوس، الصياد، لم يعد هناك...

١٦

ـ لقد رحل! صاحت كلاريسا، غاضبة. مع أنه تعهد بأن يمهلني ساعة.

افتر فم شلونسكي عن ابتسامة سمحة.

ـ ساعة؟ ها إننا نتحدث منذ ما لا يقل عن ثلاث ساعات.

صار البحر عبارة عن امتداد أرجواني وذهبي شاسع.

ـ هل لديك سيارة؟ سألته الروائية، وقد أصابها الهلع فجأة.

أشار اليهودي إلى ساعة معصمه.

ـ أجل. الساعة تجاوزت الآن السادسة.

ـ وبعد؟

ـ حتى لو قدت بسرعة فائقة، لن تصلين في الوقت. إنه الجزر، هل تفهمين؟ إننا ندخل مرحلة الجزر. الذنب ذنبي، كان ينبغي علي أن أنبهك (أتى إيماءة المستسلم للقدر). لن تكون هناك سفينة أخرى قبل الفجر.

ـ هذا غير ممكن! يجب أن أعود!

ـ ليس لديك من خيار سوى قضاء الليلة هنا. إن كنتِ لا تخشين النوم تحت سقف واحد مع كافر، فإن بيتي مفتوح لك. غداً، في ساعة باكرة، أرافقك إلى الميناء.

خطرت ببالها كاتلين وموركار اللذان سوف يستبد بهما القلق لا محالة.

ـ حسناً، قالت. أقبل دعوتك. لكن ينبغي أن أجري مكالمة إلى بيتي. هل في وسعك نقلي إلى غاية القرية؟

ـ بالتأكيد. سننتهزها فرصة للعشاء، وعوض الجدال حول الناس والرب، تحدثيني عن رواياتك.

وهو جالس قبالة حاسوب كاتلين، لا مس موركار بسبابته الشاشة التي كانت تعرض رقعة شطرنج ثلاثية الأبعاد. حينما لعب خصمه عبر الانترنت الفيل الأبيض بالقطعة ح ٥، أطلق صرخة الانتصار.

ـ إنه منهزم!

دون تردد، أخذ البيدق ج ٧ برخه الموضوع في ز ٨.

ـ لن أفهم شيئاً في هذه اللعبة أبداً، زفرت كاتلين. من النزر القليل الذي أعرفه عنها، أنت في وضع صعب. ورغم ذلك أنت تطير فرحاً.

ـ ذلك لأنك لم تشاهدي المباراة الثالثة التي تواجه فيها عام ١٩٧٢ كل من فيشر وسباسكي. أشد مباراة إثارة في القرن العشرين. هذا الشخص يمضي إلى حتفه.

ـ عام ١٩٧٢؟ لم أكن مولودة حينذاك! ولا أنت أيضاً.

علت حمرة خفيفة وجنتي الرجل الشاب:

ـ هناك كتب، أليس كذلك؟

ـ وتحفظ عن ظهر قلب أشهر اللقاءات؟

نحنح موركار جرعة من حلقه:

ـ لا، بعضها... أقصد... لقاءان أو ثلاثة.

كان خصمه قد رد عليه للتو: الرخ في ح ١ يأخذ ح ٤.

ـ والآن؟ سألته كاتلين. ماذا تراك فاعل؟

ـ الرخ في د٧. لم يتبق هناك إلا أربع نقلات...

في الشاشة، الرخ الأبيض في هـ ٤ وضع ملك موركار في «كش». رابط الجأش، نقله الرجل الشاب إلى و١.

ـ لقد خسر، همس بوجه مبتهج.

نقل خصمه الفيل إلى د ٤. رد موركار في الحين بوضع الفيل في د٢. ثم ضم إليه ذراعيه. بعد ثواني معدودة، أومضت رسالة وسط الشاشة:

أنسَحِب

ثم:

فيشر ضد سباسكي، ١٩٧٢

كنتُ متيقناً بأني وجدت السبيل لصد الهجوم.

أنحني إجلالاً.

ـ لا أدري لماذا يتراجع هذا الأبله، زمجرت كاتلين.

ـ سوف يتطلب مني الأمر ساعتين من الزمن حتى أفسر لك. ينبغي أن تعلمي فحسب أنه لو أصر لسقط مباشرة في «كش مات»، وأن اللاعب الجيد يستبق الأمر.

ثم غير دفة الحديث بغتة.

ـ لقد بدت مكالمة المسز غراي مثيرة للاستغراب. أتساءل حقاً عما ذهبت لصنعه على ظهر تلك الجزيرة.

ـ التوثيق من أجل روايتها المقبلة.

ـ لستُ متيقنا من ذلك كثيراً.

ـ لماذا؟ تبدو منشغلاً جداً على حين غرة.

ـ أنا قلق بشأنها.

ـ هل تظن أنها عقدت العزم على الاهتمام من جديد بالمفكرة؟

ـ ممكن. السبب في ذلك هو اغتيال باكوفيا.

قفزت إلى الخلف.

ـ باكوفيا؟ تم اغتياله؟

ـ ذبح من الحلقوم.

ـ لكن كيف علمت بذلك؟

ـ ألم يقم شرطي بزيارتها أمس؟

ـ شرطي؟

ـ ألم تكوني على علم بذلك؟

ـ وكيف كان في وسعي ذلك؟ احتجت كاتلين. لقد فتحت الباب لرجل وجه لي التحية، والمسز غراي نادت عليه باسمه: «ستيوارت»، على ما أعتقد. ثم، انصرفت للالتحاق بك على الشاطئ.

ـ كان مفتشاً بحق، أكد موركار. هو الذي أخبرها بوفاة باكوفيا.

سكتت المرأة الشابة، مرتبكة. كان يخامرها شعور غامض بأنها لا تدرك عنصراً للفهم، لكنها لم تتوصل للتحقق منه. في الحقيقة، كان يكفي وضع السؤال الصحيح: كيف تمكن موركار من أن يعرف بالخبر؟ ألم تشاهده عبر النافذة، يده مغروسة في الرمل الذي كان يتركه يسيل مثل الماء من بين أصابعه؟

كان الجو حاراً في الحانة. غِرَافُ الجعة وكؤوس السكوتش تصطك خفية بين الجدران الملبسة بالخشب ذي اللون الأسمر الهافاني. وجوه مرطاء، هازلة، تخطها شوارب شقراء أو حمراء؛

رجال بالزي الكامل، شبان بسراويل البلو جين، شخصيات من شتى الأجناس، جاءت من جهات أوربا الأربع. كلهم مجتمعون على ظهر الجزيرة المقدسة، يستهويهم المسعى نفسه، الرغبة نفسها: الفهم، التساؤل والتأمل.

انحنى شلونسكي قليلاً نحو كلاريسا ثم همس:

ـ إنهم يبحثون. بينما ليس هناك شيء للعثور عليه.

ازدرت الروائية اللقمة الأخيرة من فطيرة التفاح قبل أن تثير ملاحظته:

ـ هل كنت دائماً متشائماً بكل هذا القدر، سيد شلونسكي؟

ـ متشائم؟ لا. لا أعتقد أني كنت كذلك على الإطلاق. متفائل قلق هي أفضل صفة تناسبني.

ـ هل تسمح لي بإبداء بعض الفضول؟

ـ ليس في ذلك أية مجازفة منك. تفضلي.

ـ أجد صعوبة في سبر أغوارك. من أنت؟

هز كتفيه:

ـ لأمد طويل كنتُ آخرا. أنا اليوم أنا. صموئيل شلونسكي.

ـ وماذا بعد؟

ـ هل تريدين معرفة ذلك حقا؟

أمّنت على كلامه.

ـ حسناً. مثلما أمكنك ملاحظة ذلك، أنا أعيش في الظل. نور النهار أصبح يؤذيني. ولم أعد أحب بني البشر. لقد عرفتُ، عشتُ الكثير من الأهوال،.وعينيَّ أصابهما الأذى للأبد. ولدت في اليهودية، ترعرعت في دين إبراهيم، ولأمد طويل اعتقدتُ أني أمتلك الحقيقة،

ولي اليقين في أني مختلف عن سائر الناس. الفكرة النقيض لم تخامر ذهني على الإطلاق. كان ذلك أمراً مستحيلاً. ليس في فارسوفيا على كل حال. ليس في سنوات الأربعينات. وإذا ما بسبب خارق نسيت نفس الطفل الذي كنته وضعيتي، فإن الشارة الصغيرة بعرض عشر سنتمترات والنجمة الصفراء التي خطت عليها كلمة يهودي Jude كانت ستذكرني ذلك بسرعة. كان أبي قريباً من مردخاي أنليفيتش زعيم الحركة الصهيونية ـ الاشتراكية هاشومير هاتزير. كان من بين المحرضين على تمرد الغيتو ومن الأوائل الذين سقطوا تحت الرصاص. تبعته أمي بعد ذلك بقليل. لقد شهدتهما وقد أزهقت نفس كل منهما. سمعت زفرتهما الأخيرة ولأمد طويل سُمع صداها في ذاكرتي مثل إعصار شديد. كنت قد بلغت سن الثانية عشر.

شرب جرعة من الشاي قبل أن يسترسل:

ـ أعفيك مما عقب ذلك وعبر أي منعطفات وصلت يوماً إلى إسرائيل، يدفعني الخوف، للعثور على مرفأ نهائي. هناك، سعيت إلى فهم ما كان قد حل بنا. سعيت لتفسير أصل الكراهية التي نثيرها في كل مكان حللنا به. كان ذلك طويلاً ومعقداً.

ـ وهل وجدت شيئا؟

ـ أجل.

ـ ثم لفظ:

ـ الرّب.

قطبت كلاريسا حاجبيها.

ـ الرب هو المسؤول الأكبر؟

ـ أنعمي النظر. منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، حينما قال آبائي

بالفكرة التوحيدية، قاموا بذلك في عالم تسوده الوثنية وعبادة الأصنام. الأباطرة الرومان يضاهون الآلهة. الإغريق يمجدون زيوس وأبولون. المصريون يعبدون حورس وآمون. أما أتون فلم يكن إلا محاولة شقية، سعي لم يتحول. يا حسرة.

ـ لماذا الحسرة؟

ـ إذ لو أن هذه الفسحة التوحيدية كللت بالنجاح نفسه الذي عرفه إبراهيم ربما كان مصير شعبي مختلفاً جداً. ولما كانت عدوانية الوثنيين قد انصبت حينها على ذرية إبراهيم، وإنما على نسل أخناتون، لا على اليهود، وإنما على المصريين.

قام بوقفة قصيرة:

ـ كما ترين، مسزغراي، مأساة شعبنا تجلت في أنه كان على حق في وقت أبكر. ارتق الزمن، تخيلي عالم تلك الفترة. تماثيل تمجد المشتري وأوران وسوبعل، عجول مقدسة، ولا داعي لذكر الباقي، تغطي وجه البلاد المسماة متحضرة. وها إن حفنة من الأفراد، تحل وتعلن: «ليس هناك آلهة وإنما هناك إله واحد. ثم: «لا يمكن تمثيله، لا وجه له ولا اسم. إنه لا يوجد في أي مكان محدد، إنه في كل مكان». لا أعرف إن كنتِ تدركين أثر مثل هذا القول على عقول تلك الحقبة، وعواقبه الفلسفية والاجتماعية. بإعلانهم ذلك، فإن أسلافي وضعوا أنفسهم بطريقة لا رجعة فيها على هامش المجتمع. هكذا بدأت كل مآسينا.

ـ أفترض أن هذه الخلاصة قد زكت شعورك بالاختلاف.

ـ أجل. لكني لم اشعر بأن حالي أفضل، رغم ذلك. لاقتناعي الراسخ بأننا كنا نحمل رسالة جوهرية، تساءلتُ عما صنعنا بها. يمكن أن أقول لك اليوم إذا كانت الكراهية قد ظلت مستمرة فذلك ذنبنا

بقدر كبير. بدل تقاسم هذه الرسالة المقدسة، انطوينا على أنفسنا. بدل انفتاحنا على الغير، تكردسنا. أكيد أنه كانت لدينا أسباب وجيهة للتصرف على ذلك النحو، لكنني متيقن ـ ربما عن خطأ ـ أنه كان ينبغي لنا امتلاك الشجاعة لانفتاحنا على العالم، أبكر وأسرع مما فعلنا. إن تصورنا للشعب المختار هو ما أعمانا وزكى أنانيتنا.

أبدت كلاريسا على وجهها علامة الاستهجان:

ـ إني أجدك قاسياً جداً، سيد شلونسكي. إنك تنسى حقد جيرانكم. إنهم لا يطمحون لشيء سوى لسحقكم.

ـ قاسي، لا. طوباوي، ربما. أظل مقتنعا أنه لن يتم إنجاز أي شيء عظيم دون مجازفة ودون طموح. ينقصنا الطموح بينما يحيط بنا الجبناء. أنا لا أتحدث عن الشعوب العربية، وإنما عن قادتهم. هؤلاء الطغاة الذين يجوبون بلادهم ببدلة ثلاث قطع من Savile Row وهم يعلنون استعدادهم للموت حتى آخر طفل فلسطيني. زعماء القبائل هؤلاء، الذين لا تعادل خستهم سوى ثرواتهم التي حولوها إلى حسابات بسويسرا واللوكسمبورغ. كنا مؤتمنين على رسالة إلهية. كنا نحمل مسؤولية جسيمة، كان علينا أداء واجب مقدس. تذكري أقوال ذلك اليهودي الذي استحوذ عليه المسيحيون ولقبوه بالمسيح. ماذا قال؟ أنتم ملح الأرض. لكن إن فسد الملح، فبأي شيء يملَّح؟ لن يصلح بعد لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ويدوسه الناس. أنتم نور العالم». نحن اليهود، أصابنا الوهن. وكيف لا تقطر نفسي دما حينما أرى أن أصحاب اللحي عندنا ينافسون في ظلاميتهم أشد المَلالي ظلامية ومتزمتي المجالس الرومانية؟

ـ ألهذا السبب أتيت إلى هنا قصد اللجوء؟ في مركز تِبيتي؟

ـ لا. لقد انكببت على الكتب، على التاريخ، الكبير، والصغير.

لقد فحصت بالمجهر الدينين التوحيديين الآخرين للوصول في نهاية المطاف إلى يقين، أكثر إيلاما: لا شيء. ليس هناك شيء. لم أعد أقبل لا المسيحية ولا الإسلام. أعرف اليوم أني لست سوى جاحد. وهذا الدين يكفيني. لم أعد أعذب نفسي. لم أعد أسعى لتحديد من على خطأ، من على صواب، من يعيش الحقيقة ومن يعيش الزيف. أنا أنا. أنا صادق. متحرر من كل قيد. لم أعد أترك للغير أن يملي علي أفكاري، لا من طرف أصحاب العمائم، ولا من غيرهم ذوي أزياء. لم يعد ما هو مرجع يملي علي سلوكي. لقد شطبت من حياتي كل كهنوت، حطمتُ الأصنام، نزعتُ الكمائم. صدقيني، أتنفس هواءاً نقياً لا مثيل له. هنا، أنا في أرض محايدة.

توقف ثم شخص بصره في زائرته:

ـ أريد أن أطرح عليك سؤالاً، مسز غراي. هل يسعك إخباري أي دين كان يعتنقه آدم؟

بما أنها هزت كتفيها تعبيراً عن عجزها عن الجواب، قال مبتسماً:

ـ أنا آدم، مسز غراي.

وضعت كاتلين سبابتها على صفحة الويب التي فتحت للتو وقرأت ببطء: «علم الأعداد هو ذلك المبحث الذي يعتمد على الأعداد، شأن علم الفلك الذي يعتمد على الأفلاك، لأجل دراسة شخصية ومصير كل واحد منا. يفترض في الأعداد إذن امتلاك القدرة على التأثير في حياتنا وسلوكنا».

ـ كفى! زفر موركار. مرت الآن أكثر من ساعتين وأنت تتجولين عبر مواقع لا فائدة فيها. كيف يسعك تخيل أن الأعداد قد تؤثر في مصيرنا أو أن جمع حروف اسمك أو كنيتك سوف يؤدي إلى رسم مزاجك؟

ـ عوض الانتقاد، قم بالأحرى بمجهود للفهم. علم الأعداد ليس لغواً! لقد قرأت مثلي أن أشخاصاً مثل فيتاغورس أو أفلاطون قد اهتموا بهذا العلم وبأنه يرقى إلى غابر الأزمان.

حرك موركار رأسه:

ـ توقفي، كاتلين. إنك تهدرين وقتك.

ـ جيد جداً. إذن قل لي لماذا ذكر جبرائيل العددين المشهورين ١٩ و٠,٨٠٩، ما لم يكن ذلك من أجل أن ينقل إلينا معلومة مهمة حول شخصية القاتل؟

لم يسعف الوقت الرجل الشاب للرد، لقد كانت تنقر سلفاً على لوحة المفاتيح وهي تسترسل:

ـ خذ. للمتعة فحسب...

سجلت في خانة الحروف الستة التي يتألف منها اسم موركار:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ أقوم بحساب موضوعك...

ثم ذكرت:

ـ م = ١٢، و= ١٥، ر = ١٨، ك = ٣، ا = ١، ر = ١٨. المجموع: ٦٨. ٦ زائد ٨ تساوي ١٤. إذاً ٥.

سجلت هذا الرقم الأخير ونقرت بواسطة الزالقة على خانة.

ظهر نص بعد ثواني معدودة.

ـ ممتع، أليس كذلك؟ «٥ هو عدد الانسجام والتوازن. إنه أيضاً عدد الرحمة الإلهية. وفق القبالية، إنه عدد الإنسان الكامل، الذي خلص من الجانب البهيمي. حسب الإنجيل إنه رمز الإنسان ـ الإله من خلال ندوب المسيح الخمسة على الصليب. وبهذه الصفة، يعتبر أيضاً عدد الرحمة. باعتباره وسيط بين الرب والكون».

ثم سددت نظرة ماكرة إلى موركار:
ـ لقد أخفيت عني اشياء كثيرة! أنا إذن مغرمة برجل كامل!
ـ يكفي هذا، صاح الرجل الشاب بغلظة غير متوقعة.
بحركة جازمة، قطع واصل الحاسوب.
ـ لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟
حدق فيها بصرامة:
ـ لأني لا أريد أن يصيبك مكروه أنت أيضاً يا كاتلين. لا أريد...

في حجرة النوم التي وضعها شلونسكي تحت تصرفها، كانت كلاريسا تعد الأمواج التي تتلاطم على الجرف والساعات والدقائق التي تفصلها عن انبلاج الصبح.

منذ أن سندت رأسها إلى الوسادة، دوامة افتراضية تتشكل من حروف وأعداد لم تتوقف عن الدوران فوق السرير. ١٩... ٠,٨٠٩.... توأم... ١٠... سورة ٧٤... آية ٣. لا إله إلا الله. التوأم في ٠,٨٠٩. التباس. انحراف. كلما تقدمت، كلما اظلمت السماء. ما إن ترفع حجابا، يقع آخر، وكانت الآلية تبدو بلا نهاية. أين كان دانييل؟ كانت تتخيل الملاك وهو مستغرق في التنقيب في أدراج غير مرئية، داخل مكتب ذي جدران غير مرئية، داخل بيت لا أبواب ولا نوافذ له. أليس من المحتمل أن يكون قد قُتِل بدوره؟ في هذه الحال، ضاع كل شيء. وستتوقف القضية بمثل الطريقة التي بدأت بها: على العدم. فجأة، انتبهت إلى أنها لم تطرح عليه السؤال الذي كان سوف يطرحه أي مبتدئ إن حالفه الحظ في الحديث إلى ملاك. كيف تبدو الجنة؟ كيف يعيش فيها من يعيش؟ أي لغة يتكلم بها فيها؟ هل يُشعر فيها بالجوع؟ بالعطش؟ هل فيها سهول، وديان، وأنهار، وحيوانات؟ هل

ما تزال فيها شجرة الفاكهة المحرمة؟ هل فيها حر؟ برد؟ مريم المجدلانية، سارة، هاجر، العذراء... كيف هو لباسهن؟ هل تمشين عاريات في ظل الأنوار الوهاجة؟ وعدت نفسها بأنها لن تتأخر عن سؤال الملاك في المرة القادمة التي يتجلى فيها.

حينما نامت، كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً.

لم تنم طويلاً.

أيقظتها جلبة غريبة بينما كان الظلام ما يزال مخيِماً. ما يشبه البقبقة. وكأن أحداً ما يمشي في الوحل. للوهلة الأولى، ظنت أنه المطر، لكن كلا، كان الصوت لزجاً، رخواً. انتصبت في فراشها وأرهفت السمع. كانت الأصوات قادمة من الغرفة الرئيسية المجاورة لحجرتها. شلونسكي، ربما كان هو؟ ماذا يصنع في هذه الساعة؟ أصبح الصوت أكثر وضوحاً الآن.

رجف قلب كلاريسا بين ضلوعها، وسال خيط من العرق البارد على طول ظهرها. حدثت نفسها بأنها أضحت مثيرة للسخرية بقلقها على ذلك النحو. من المعلوم جداً أن المرء حينما ينام في بيت غريب، فإن كل الأصوات تصير مثاراً للحيرة بالنسبة له. رغم ذلك ومع عجزها عن تحديد السبب، فإن غريزتها أخبرتها أن ذلك الضجيج يدوي مثل تهديد.

إنه يقترب.

خفية.

يرافقها وقع الأمواج المضطرب، كانت الحركة تتواصل، مكتسية شكلاً جديداً. لم تعد خفق نعال في الوحل، بل تَنَقُّل دوامة تتحرك فوق سطح لزج ودبق.

رجة مجلجلة.

صُفِق الباب.

ثانية وثالثة.

أحد ما يريد الدخول!

صار القلب طبلاً، رفعت السيدة العجوز الملاءة لصق صدرها وشدتها بكل قواها. فتحت فمها للصراخ، لطلب النجدة من شلونسكي، لكن لم يعبر أي صوت. الخوف أصابها بالخرس. لكن عليها أن تتصرف رغم ذلك. بسطت أصابعها ومدت يدها اليمنى نحو مصباح السرير الذي كانت تعرف مكانه هناك.

وتناثر الباب شظايا. تناثر شظايا في صخب يصم الأذان.

انشطرت العشرات من قطع الخشب عبر الغرفة. انتشر بعضها أسفل السرير؛ وأخرى صفعت وجه كلاريسا.

صرخت، أخيرا. حجبت الصرخة المنطلقة همس الأمواج. لم تتوقف عن الصراخ. انفجر هلعها المكتوم كله من أحشائها. ودون أن تعلم كيف تم ذلك، برد فعل يائس، عثرت أصابعها على الواصل وغمر النور الحجرة.

ثم عم الصمت. المشهد المرعب الذي رأته كلاريسا نجح في لجم صراخها.

أسفل السرير، سابحة في بركة من الدماء وبقايا لحم، تتأرجح جمجمة صموئيل شلونسكي الرمطاء. عيناه الجاحظتان تشخصان فيها من وراء الموت. توقفت الجمجمة بعد نعيق أخير. ولم يعد يسمع سوى تلاطم الأمواج أسفل الجرف.

شلت حركة السيدة العجوز. وهي تحبس أنفاسها، كانت تحافظ على أصابع يدها اليمنى ثابتة على الواصل؛ واليد اليسرى تنشب الملاءة على صدرها. لن تتحرك أبداً. لا بد أن المسؤول عن الرعب

كان يتربص بها. قريباً سيحل دورها. لكن ماذا ينتظر؟ لماذا لا ينهي عمله؟ هل كان يريد أن يراها تموت من الفزع؟

دبت حركة في مكان ما من البيت. أحد ما يتنقل بسرعة في الظلام. تناهى إليها صوت مائدة تنقلب، مجموعة من الأغراض ترتطم على البلاط. خطرت ببالها رقعة شطرنج شلونسكي.

هذه المرة، كان الأمر محسوماً. في غضون بضع ثوان، سوف تكون النهاية.

برز شخص في العتمة. جسمان عظيم. عملاق.

أطبقت السيدة العجوز جفنيها وتكردست على نفسها. بماذا يحس المرء حينما يراد أن يقطع رأسك؟

ـ كلاريسا!

بدا الصوت مألوفاً لديها.

قبضت يد ذراعها. كادت ترمي نفسها خارج السرير.

ـ كلاريسا! كرر الصوت. هذا أنا، طوماس!

تمتمت:

ـ طوماس؟

ثم فتحت عينيها.

لم تكن تلك خدعة. ذلك الرجل المكب عليها، كان بالفعل هو طوماس ستيوارت.

ـ هدئي من روعك. لم يعد هناك ما تخشينه. أنا هنا.

ـ طوماس؟ ما... كيف...؟

ـ سوف أشرح لك. تعالي. يجب الرحيل من هنا. بسرعة.

في رد فعل منها استحياء، رفعت الملاءة إلى غاية عنقها. لم تكن تلبس شيئاً غير ملابسها الداخلية.

ـ قميص نومي، قالت بلطف.

في السيارة التي كانت تقلهما نحو الميناء، رغم المعطف الذي وضعه ستيوارت على كتفيها، وجدت كلاريسا صعوبة في كبح الرعدة التي كانت تهز أطرافها. أحاطها المفتش بذراعه اليسرى وجذبها نحوه. لم تبد أية مقاومة واستسلمت ببساطة تامة.

خيوط قرمزية رقيقة أخذت تشع في الأفق. قريباً يطلع النهار.

ـ اشرح لي، طوماس. ماذا تفعل هنا؟

ـ ألا تعلمين أني في ساعات فراغي أحل مكان ملائكة الحراسة العاطلين عن العمل؟

ـ بكل جِد، طوماس.

ـ أنت كاتبة جيدة، كلاريسا، لكنك كاذبة سيئة. حينما التمست مني الإذن للاحتفاظ بالملاحظات الموجودة في منزل فاسيلي باكوفيا، ثم هرعت إلى مكتبي للمطالبة بمعلومات تخص الوفيات، فقد استنبطت من ذلك بكل بداهة أنه لم تكن لديك أبداً النية في التخلي عن هذه القضية. لقد تركتك تتصرفين. لكن قراري كان محسوماً: لن أبتعد عنك قيد أنملة. لقد تم اغتيال رجل، ربما اثنان؛ لم يكن هناك من مجال لأن تكوني الضحية الثالثة.

ـ تبعتني إذن إلى الجزيرة...

ـ بالطبع. وحتى منزل شلونسكي. بعدما رأيت الصياد يغادر لوحده، بقيت داخل سيارتي وانتظرتُ.

لوى شدقه:

ـ لم أعد في سن لعب أدوار فليب مارلو. لم تعد الرطوبة تعني لي شيئاً.

ـ وبعد؟ ماذا وقع؟

ـ في وقت معين، لا بد أني نمت. كم استغرق ذلك من الوقت؟ لا أدري. أتذكر فقط بأني صحوت على صراخك. وثبت خارج السيارة. كان باب المدخل مغلقاً بالمفتاح. لقد استطعت ملاحظة كيف كانت تبدو الدفة؛ بالكاد تقف على المفصل. ضربة بالكتف كانت كافية. وما إن دخلت، حاولت تحديد مكانك. حمداً للرب، أن عقلك أرشدك إلى إضاءة النور. وأنا أعبر الغرفة، ارتطمت رجلي بشيء، وسقطت من على طولي، وقد قلبت أثناء ذلك طاولة...

ـ رقعة شطرنج.

ـ ما دمتِ تقولين ذلك. حينما نهضت، رأيت جسد شلونسكي، أو ما تبقى منه.

ـ ألم تر أحداً غيره؟

ـ لا أحد. سمعت فقط بابك يتناثر شظايا. والبقية تعلمينها.

التصقت كلاريسا أكثر بكتف ستيوارت.

ـ أمر مرعب. ذلك الرأس... تلك النظرة... المسؤول عن هذا الفعل لا يسعه أن يكون من بني البشر. إنه حيوان مسعور، وحش.

ثم عاجلت بالقول:

ـ وحش يمتلك قدرات خارقة. وإلا، كيف نفسر انفجار الباب وأن الجمجمة تدحرجت إلى غاية أسفل السرير؟ وتلك الضجة، تلك الضجة...

رفعت ناظريها نحو المفتش:

ـ أخبرني، طوماس. مع من نتعامل؟ من يختبئ خلف أفعال بهذا القدر من الوحشية؟

ـ لقد سبق أن حذرتك: إننا نقيم في بلد يتنفس الخوارق. إن ما كنا عليه شاهدين لا ينتمي إلى عالم البشر...

نجح موركار وكاتلين في ضبط مشاعرهما طوال الوقت الذي كانت تصف فيه كلاريسا ما وقع عند شلونسكي. لكن حينما حكت الروائية حادثة الرأس المقطوع، ندت عن كاتلين حركة نفور وهرعت إلى الحمام للاستفراغ. كاد ستيوارت يتبعها، لكنه حدث نفسه بأن في مثل هذه اللحظات لا يُستحب وجود شاهد.

ركز انتباهه من جديد على السيدة العجوز. كان منظرها يثير الشفقة. خذاها، جبينها كانت تغطيها ندوب صغيرة. أما تلك الشديدة الغور فقد نظفها طبيب المستعجلات، على متن العبّارة التي أعادتهما إلى بروديك. جنون. على امتداد سنوات عمله بوصفه شرطي، كان دوماً شاهداً على مشاهد مرعبة. أجساد مقطعة، أطفال تم تعنيفهم حد الموت، شيوخ عذبوا لأجل قطع شيلينغ معدودة، فتيات صغيرة عذبن واغتصبن، لكن مهما كانت درجة الرعب، في كل مرة كان هناك تفسير عقلاني، مذنب ومتهمون. أما هنا...

ـ كلاريسا، أعتقد أنه عليك حرق تلك المفكرة. إنها مليئة بالأذى.

أومأت الروائية برأسها:

ـ ذلك محتمل.

ـ الآن. هاتها.

ـ أنت غير جاد؟ قال موركار بجرأة. إنه الدليل الوحيد الذي

تمتلكه. ما إن تختفي المفكرة، لن يتبقى لك شيء يسمح لك بتفسير هذه الاغتيالات.

ـ يا فتى، زمجر الشرطي، هل تعتقد حقاً أن تلك الصفحات تحتوي على ذرة من التفسير؟ هناك تراتيل، أجل. عبارات سحرية. أنا على يقين بأن مجرد قراءة هذه السطور جهراً قد أشعلت كل هذه المآسي.

ثم كرر بنبرة حازمة مخاطباً كلاريسا:

ـ اعطني المفكرة.

أشارت السيدة العجوز إلى حقيبتها بإيماءة كلها سأم.

ـ هل لديك كحول للحرق؟

ـ في المطبخ؟

ثم اختفى.

ـ لن تدعيه يفعل ذلك؟ قال موركار بهلع.

ـ بلى.

ـ إذن تستسلمين؟

ظلت صامتة.

أضاف قائلاً:

ـ هكذا، قاتل باكوفيا وجبرائيل وشلونسكي، والسيدة ماكلين غداً، يظل بلا عقاب.

ـ والشرطة، ماذا تصنع بها؟ صاح ستيوارت، الذي عاد إلى غرفة الجلوس. حسب علمي، ليس من اختصاص المواطنين القيام بالتحقيقات، هناك ناس تلك مهمتهم. في حال كنت قد تناسيت ذلك، مسز غراي روائية، ليست تحري أو عميل في السكوتلاند يارد.

جثا أمام الموقد، وشرع يرمي صفحات المفكرة بعد أن فصلها الواحدة تلو الأخرى عن غلافها.

ـ ما تفعل؟ صاحت كاتلين، التي عادت بدورها.

ـ إنه يدمر الأدلة، قال موركار باستهزاء.

التفت إليه المفتش بعنف وسدد نحوه أصبعه متوعدا:

ـ أنصت إلي، يا صغيري، كلمة أخرى وألقي عليك القبض لإهانة موظف!

ـ وبالمناسبة تقطع لساني كذلك؟ إنك تعلم جيداً بأن ما تقوم به غير قانوني. كان يجب وضع هذه المفكرة بين يدي السلطات. إنها دليل إدانة. بتصرفك على ذلك النحو، تضع نفسك فوق القانون.

صار وجه ستيوارت شاحباً.

ـ كلا، هذا لا يطاق!

وأشهد السيدة العجوز:

ـ لكن من أين خرج هذا الولد الوقح؟ اللعنة على الشيطان، أين ترعرع؟

ـ لا تذكر الشيطان، قال موركار ساخراً، وأنت تعتقد في الخرافات، قد يجر عليك ذلك الأذى.

ـ هيا، موركار، قالت كلاريسا مؤنبة، قليلاً من الأدب. ثم إني أقر بأن رد فعلك يدهشني كثيراً. أمس فحسب، حينما كنا نسير على الشاطئ، ألم تقترح علي بأن لا أعود للاهتمام بهذه القضية؟ «لو كنت مكانك لتخليت عن كل شيء». إنها كلماتك.

نظر إليها موركار بذهول:

ـ أنا؟

ـ هل أنت فاقد للذاكرة، يا صغيري؟ بالطبع: أنت!

ـ مستحيل! متى؟

أومأت الروائية بتذمر:

ـ لقد أخبرتك الآن: صباح أمس، عند الفجر، على الشاطئ.

سعى موركار بنظره إلى مساعدة من كاتلين: تستطيع الشهادة بأنهما كانا معا ذلك الصباح، بأنهما أمضيا الليل في مطارحة الغرام، بأنهما لم يفترقا. لكن بالنظر إلى الحرج المرتسم على ملامح الفتاة الشابة، أدرك بأنها لم تكن قادرة على الدفاع عن قضيته وإلا فقدت مصداقيتها عند السيدة العجوز.

بعدما انتبه لارتباكه، انتهز ستيوارت الفرصة ليعمق الأزمة أكثر:

ـ لا يكفيه أنه فظ، بل كذاب أيضاً!

حدجه موركار ببصره طويلاً قبل أن يقول بصوت جليدي:

ـ أنت محظوظ جداً، سيدي المفتش. لو لم يتبق في شيء من العقل، لصيَّرتك غباراً!

دون أن ينتظر الرد، دار على عقبيه.

كاد الشرطي أن ينطلق في إثره، لكن صوت كلاريسا أوقفه في اندفاعه:

ـ إهدأ يا طوماس. إنه لا يبلغ سوى عشرين سنة...

ـ ذلك ليس عذراً! هل سمعت النبرة التي تجاسر على مخاطبتي بها؟

ـ هدئ من روعك...

أشارت إلى الموقد:

ـ لننتهي من هذه الحكاية. إنها آخذة في إصابتنا بالجنون.

نزع ستيوارت الصفحات الأخيرة وغمسها في الكحول.

ـ هل لديك قدّاحة؟

ـ هناك علبة وقود فوق برقع المدخنة.

ـ مفتش، جازفت كاتلين، هل أنت متيقن حقاً من حسن التصرف؟

وبمثابة جواب، قدح ستيوارت عود ثقاب ورماه في المدخنة. وفي الحين تصاعد أزيز اللهب. تأمل الشرطي لحظة الصفحات التي تلتهب ودنا من الروائية:

ـ لقد انتهى أمر كل تلك الأهوال، كلاريسا. سوف يكون في وسعك النوم بهدوء.

دقت الساعة الثانية عشرة.

ثم واصل:

ـ ينبغي علي العودة إلى المفوضية وكتابة تقريري. سوف أهاتفك غداً صباحاً للاطمئنان على أخبارك.

ما إن أُغلِق الباب حتى سألتها كاتلين:

ـ والآن؟ ماذا تنوين فعله؟

ـ لا شيء بعينه. أستأنف مسار حياتي. وأحاول النسيان.

تنهدت الفتاة الشابة.

ـ ينبغي أن تعودي إلى منزلك، اقترحت عليها كلاريسا. لا أشعر أن لدي القدرة على الكتابة. أحتاج للبقاء وحدي.

ـ أتفهمك.

وقد همست تقريبا:

ـ وموركار؟

ـ هذه الساعة، محكوم علينا أن نحتمل بعضنا. أنوي إرساله عند البروفسور ماكلين ما إن تتحسن حال جانيت. (و أضافت بنبرة كئيبة:) إن تحسنت...

لزمتا الصمت بعض الوقت. ثم سألتها كاتلين:

ـ هل يمكن لي قضاء ليلة أخيرة هنا؟ سوف أغادر غداً في الصباح الباكر.

ـ بالطبع.

أشارت السيدة العجوز إلى خزانة الصحون التي صُفَّت على الجدار:

ـ لطفاً منك. لا قوة لي للنهوض. صبي لي إذن كأسا من الغلينمور.

في الوقت الذي همت فيه الفتاة الشابة بالنهوض، امسكتها بيدها:

ـ هل تأذنين لي بأن أحدثك وكأنك طفلتي؟

ـ بالتأكيد، مسز غراي.

ـ في سني، نفقد الذاكرة، لكن ما نزال نجيد قراءة ما تخفيه القلوب. خذي حذرك، صغيرتي. خذي حذرك. كوني محتاطة من موركار...

١٧

ألقى الطبيب بنظرة متعاطفة على وليام ماكلين:

ـ أعرف ما تشعر به.

سحب البروفسور من جيبه علبة سجائر، ودون التماس الإذن، أشعل واحدة. لو كانت المناسبة مغايرة، لشهد بعينه منعه من ذلك التصرف؛ لكن بالنظر لذلك القدر من اليأس الذي كان يرى على وجهه، كان رد فعل الطبيب:

ـ لا أتوفر على منفضة.

سحب ماكلين نفحة من الدخان ملء رئتيه. منذ أكثر من ثلاثين سنة تخلى عن السيجارة من أجل الغليون. ومنذ ثمانية وأربعين ساعة، عاد لها بشراهة.

ـ حاصل الكلام، قال همساً، جانيت لا رجاء في شفائها.

ـ أخشى ذلك كثيراً، للأسف.

ـ وأنت غير قادر على إخباري بسبب ماذا ستموت.

ـ أعتقد أنها تموت لأن شيئاً عصياً على الوصف يدفعها إلى نبذ الرغبة في العيش. لقد استسلمت للانزلاق نحو الهاوية. لم تعد هنا.

ـ كم من الوقت؟

لم يبد أن الطبيب أدرك القصد.

ـ كم من الوقت تبقى لها؟

ـ قدر ما حافظنا عليها في حال البقاء على قيد الحياة الاصطناعي وبقدر ما طال نبض القلب في الخفقان. لقد شهدت حالات تقاوم على هذا النحو طول عدة شهور. إلا أنني شرحت لك عواقب مثل هذا الوضع. حتى لو خرجت السيدة ماكلين من الغيبوبة، أخشى جداً أن يكون لذلك عواقب خطيرة: شلل، العجز عن النطق، بل ربما العمى.

ـ إصابات لا رجعة فيها.

ـ أجل.

نفث البروفسور سحابة من الدخان:

ـ الحكمة تنصحنا بأن «نفصلها».

توقف ثم سأل:

ـ هل تفعل؟

تناول الطبيب قلمه الحبر ودوَّره بين أصابعه.

ـ سوف أجيبك بقول مأثور قديم يعود لأكثر من أربعة قرون: «لا يتجلى عمل الطبيب في استرداد العافية فحسب، بل في التخفيف من الآلام والمعاناة المرتبطة بالأمراض؛ وهذا ليس فحسب مادام ذلك التخفيف من الألم يؤدي إلى التماثل إلى الشفاء، بل أيضاً بغية منح المريض، حينما لا يعود هناك أمل يرجى، موتاً وديعاً ورحيماً» هذه كلمات قالها فرانسيس بيكون.

أطبق الصمت من جديد، وتضاعف، وكأنما الرجلان تمسكا به عن قصد.

في نهاية المطاف، قام ماكلين:

ـ شكراً، دكتور. ذكر نفسك أني من رأي السيد بيكون. الآن، ينبغي لي التفكير في الأمر.

كانت كاتلين تقف على الرصيف، عيناها مغرورقتان بالدموع. كانت تشعر بالألم. ألم في جسدها، ألم في بطنها، ألم في قلبها. وموركار أيضاً. هو لم يكن يفقه الكلمات. تلك المعاناة التي يسببها التفريق عن الآخر كانت بالنسبة له جديدة وغريبة جداً. هي كانت تفقه الكلمات، لكنها تشعر بالعجز عن النطق بها.

ـ سوف نلتقي مجددا؟ قالت بوهن. سوف نلتقي، أليس كذلك؟

زمّ شفتيه. كان يشعر بالدوار، كل شيء يتمايل من حوله. البحر، العبّارة، السماء.

وجد القوة للرد:

ـ لا أعرف. أتمنى ذلك. أجل.

ـ ذلك متعلق بك. تعرف أين أقيم. ثم، لا تنسى: لقد استودعتك حاسوبي. ينبغي لك أن تعيده إلي.

جهدت نفسها لتتخذ نبرة مرحة:

ـ لا تفرط في الدردشة على النّت. أحياناً يقع المرء في علاقات سيئة هناك. وعد؟

ـ وعد.

عندها أرخت يدها من يده وانطلقت نحو الجسر دون أن تلتفت. سريعاً، سريعاً أكثر فأكثر، مخافة أن تضعف.

تبعها بنظره إلى أن اختفت في بطن السفينة. وهو عاجز عن القيام بحركة، ظل وعينه محدقة في سطح السفينة آملاً أن تظهر ربما من جديد، أن تلوح له بيدها لآخر مرة حتى تبث فيه شيئاً من الحياة،

لكن دون جدوى. حينذاك، عاد إلى سيارة كلاريسا التريومف القديمة، وسلك طريق لاملاش.

عندما دخل البيت، وجد غرفة الجلوس خاوية. نادى، دون فائدة. ذهب إلى المطبخ، لم تكن الروائية هناك. وانتهى به المطاف أن وجدها في الطابق الأول، مستلقية فوق سريرها، في العتمة. بدا عليها أنها نائمة.

ـ مسز غراي؟ قال هامساً.

فتحت عينيها:

ـ هل رحلت حقاً؟

ـ أجل.

ـ إن أردت الأكل، الثلاجة ملآنة. لقد أحضرت السيدة بيتيكوت الأغراض.

ـ شكراً. لكني لست جائعاً.

ثم أسرع بالسؤال:

ـ هل تحتاجين لشيء؟

ـ للراحة.

بينما كان ينسحب، تردد صدى صوت كلاريسا خلف ظهره:

ـ لقد اتصل جدك بالهاتف.

ـ هل من أخبار؟

ـ سيئة. جانيت ضاعت. إنها على قيد الحياة فقط بفضل الآلات التي تحيط بها. الخاتمة بين يدي ويلي.

ـ يعني أنه يفكر في توقيف كل شيء؟

ـ أحياناً من الأفضل أن نترك من نحب يرحلون، حينما ينعدم الأمل في أن نجدهم مثلما أحببناهم، وعلى الأخص مثلما عرفوا أنفسهم. هل تفهم؟

رد عليها بالإيجاب. لكن هل كان يفهم حقا؟

ـ أدعك تستريحين، قال بعد لحظة. إن احتجت إلي، سأكون في غرفة الجلوس. لا تترددي.

تابع بسرعة كبيرة:

ـ من فضلك.

مرت ثلاثة أيام. ثلاثة أيام أمضى فيها موركار أوقات فراغه بين ولوج الانترنت لفترات تقصر وتطول، ولعب الشطرنج الافتراضي، والشاطئ والاستماع إلى جان سباستيان باخ. كان باخ هدية من كلاريسا. عادت ذا صباح وناولته رزمة تحتوي جهاز استماع جوال وعلبة أقراص مضغوطة تضم مجموع *براندبورغ كونشيرتو*. لماذا هذا الكرم المباغت؟ تساءل. لعل الجواب يكمن في رغبة العجوز في التخفيف قليلاً من حزن فتى شاب عشية فقده لجدته.

في اليوم الرابع، طرأ تغيير على الروائية. بدت رابطة الجأش أكثر. بل التمست من موركار أن يشرح لها ماهية ذلك الانترنت المشهور الذي اكتسح الأرض، ولماذا يمضي الناس ساعات كاملة في عزلة، جالسين قبالة شاشة. وقد وجد متعة في أن يسحبها وراءه داخل العالم السِّبراني. إذ هكذا اكتشفت لوحات رُومِيْو تورنر، رسامها المفضل، التي لم تسنح لها الفرصة مطلقاً برؤيتها. صور للبندقية وبراغ التي لم يسبق لها أن ذهبت إليهما، وأسواق ممتازة حيث يسعها إرسال طلبها دون مغادرة فراشها، روايات من بينها روايات كلاريسا غراي، التي كان متاحاً التوصل بها في البيت في غضون ثمانية وأربعين ساعة.

استكشفت رفقة مرشدها المواقع الأشد جنوناً، تصفحت الموسوعة البريطانية، ثم انعطفت عبر مكتبة الكونغرس في واشنطن، ثم وجدت أنها وقعت في فخ كازينو افتراضي حيث ربحت في البلاك جاك ما لا يقل عن مئة جنيه. لو لم يكبح موركار جماحها، لكانت قد لعبت الليل بأكمله. بل أكثر من ذلك.

في اليوم السادس، وكان يوم جمعة، التقاها موركار عند الفطور. لم يكن قد نام ليلتها. كما لم يفعل في الليالي السابقة. سكب لنفسه كوباً من الشوكولا الساخن وجلس قبالة السيدة العجوز. ولما رأت أنه لا يقول شيئاً، خاطبته:

ـ أتصور أنك بت تجد الوقت بطيئا. هل تقبل أن نذهب إلى ماشري مور؟ سوف يعجبك الموقع بكل تأكيد.

ـ لا. أحب بالأحرى أن أقضي نهاية الأسبوع هذه في غلاسكو.

ـ آه؟

ـ أجل. وأنتهز الفرصة للذهاب قصد زيارة جانيت.

أحدّت النظر في عينيه:

ـ وكاتلين...

ـ أجل، وكاتلين أيضاً.

ـ هل أخبرتها؟

ـ البارحة مساء. أنوي الاتصال بجدي ويلي كذلك. أظن أنه سوف يوافق.

صبت لنفسها فنجاناً ثانياً من الشاي:

ـ لا أرى في ذلك أي مانع. أو بالأحرى بلى. مانع واحد.

استفسرها بنظره.

ـ إنها هشة. إنها طفلة.

ـ أنا أفتقدها.

ـ ذلك ممكن. فقط، كما ترى، أخشى أن يكون الأمر مجرد نزوة. أن ترغب فيها مثلما يرغب المرء فيما هو جديد، غير متوقع. بينما هي تريدك لأنها اختارتك. لقد تتبعتك طول كل ذلك الوقت؛ أنت شخص غريب الأطوار كثيراً، موركار، خليط بارع من الحساسية والتجرد الأقصى. قد لا أكون على صواب، لكن هذا ليس ما يناسب كاتلين. إنها تكره البرود. إن شخصاً بارداً قد يقتل بالقدر نفسه الذي تفعله رصاصة مسدس.

تأمل لوقت وجيز قبل أن يرد عليها:

ـ أعلم أني قد أبدو... غريب الأطوار، لكن بداخلي أشياء لا تعلمينها. لست بذلك القدر من السوء الذي أبدو عليه.

جعلها هذا البوح تبتسم رغما عنها:

ـ سوء؟ الكلمة مبالغ فيها.

نظرت إليه، جاهدة في تفرس دواخله:

ـ حسنا. كلِّم جدك. إن وافقك على زيارتك، فأنا موافقة عليها أيضاً.

نهض دفعة واحدة، والوجه مشرق.

ـ أنا ذاهب!

ـ لحظة.

ـ أجل.

ـ ما دمنا نتحدث بقلب مفتوح، جاء دوري لأطلب منك حاجة.

أجبني بصراحة: لقد كنت حقاً على الشاطئ، ذلك الصباح؟ لقد نصحتني حقاً بأن لا أهتم بحكاية المفكرة تلك، أليس كذلك؟

أجاب دون أدنى تردد:

ـ مسز غراي، كان بودي أن أجيبك بنعم، ولو لطرد تلك الصورة التي تكونيها عني. للأسف، إذا كان لدي عدد من العيوب، فإن الكذب لا عهد له بي.

ختم وهو يفرق بين الكلمات:

ـ لم أكن على الشاطئ. لم أكن أنا ذاك.

بعدما رحل موركار، استعادت كلاريسا عزلتها، على الأقل مادياً، لأن ذكرى دانييل كانت تعود بلا توقف لتحوم حول رأسها. ثم هل فارقتها مطلقاً. دون الإقرار بذلك، فقد تشبثت بأمل أن ترى **ملاكها** يظهر من جديد. وأمام هذا الصمت المتواصل، خلصت، بانقباض في القلب، إلى أن مصيره كان أشبه بمصير إخوانه في الروح.

يوم السبت، ألغت العشاء المقرر مع ستيوارت. ودون أن تقدم تبريرات، بضع كلمات كانت كافية. أما الشرطي فقد التمس منها فحسب: «غدا، في يوم آخر سوف يكون الزمن أشد رأفة».

حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، قامت بزيارة خاطفة لكتبي لاملاش واشترت قرآناً وإنجيلاً. آخر مرة تصفحت فيها كتاباً من الكتب المقدسة ترقى إلى فترة مراهقتها، الوقت الذي كانت مجبرة فيه على متابعة دروس التعاليم المسيحية. وقد شغلت ما تبقى من نهارها في قراءة أسفار التكوين والخروج والتثنية، وقد تبلبل ذهنها على الأخص حينما وجدت ضمن نصوص بتلك الصرامة شعراً مثل نشيد الأنشاد. ماذا يفعل وسط هذه الصفحات المضمخة بالدم

والبؤس، مديح الحب والإحساس الحارق؟ إن الشعر الذي ينبعث منه يضاهي أجمل مقطوعات شكسبير أو كيتس الموزونة. ذلك المساء نامت وهي تقرأ هذه الأبيات الأخيرة: «وجدني الحرس الطائف في المدينة، ضربوني، آذوني، نزعوا عني إزاري، حفظة الأسوار».

الأحد صباحاً، تلقت أخباراً عن جانيت. كانت حالها مستقرة. لم يجد ماكلين بعد سبيلاً لإبداء موافقة بغية قطع الخيط الأخير الذي يربط زوجته بعالم الأحياء، وقد أسر إليها، وهو يكاد يشعر بالخجل، بأنه كان يقضي معظم وقته في كنيسة المستشفى يردد الصلوات. كما علمت أن موركار ظل لأكثر من ثلاث ساعات إلى جانب المحتضرة. تعلم كلاريسا جيدا، هي التي عاينت فيما مضى مرض زوجها، كم هو صعب مرافقة شخص عزيز لا يرى ولا يسمع. إذن لم يكن موركار بذلك القدر من البرود الذي كانت تظنه.

حين عمَّ الظلام، كانت تائهة في غرفة الجلوس. وقع بصرها على حاسوب كاتلين، توجهت كلاريسا صوبه لا إراديا. لمست بسبابتها زر التشغيل مثلما يتردد المرء في حضرة علبة حلويات محرَّمة، ثم وهي تعيد الحركات التي لقنها لها موركار، فتحت انترنت وحمَّلت الموقع المحفوظ في الذاكرة على قائمة الروابط المفضلة. ظهرت Casino on ligne بحروف من نار. تذكرت أنها تحتاج إلى بطاقتها المصرفية وذهبت لإحضار حقيبتها. لما عادت أمام الشاشة، سجلت الأرقام السرية وتاريخ انتهاء الصلاحية، لكن كان عليها أن تقوم بذلك للمرة الثالثة لشدة ما كانت متحمسة. مرت بضع ثوان... وتم الأمر! ظهر البساط الأخضر للتو. غمرها دفق الأدرينالين بينما كانت تجازف برهانها الأول: جُنَيْهان. وبدءاً من تلك اللحظة، لم يعد لشيء أهمية سوى البطاقات التي تمر، ١٦ لأجل كلاريسا، ٢٠ للبنك، ١٨ لأجل

كلاريسا، لا شيء للبنك. حوالي الساعة الثانية صباحاً، عيناها يغشاهما الضباب، ومستنفدة، على حافة الغثيان، قررت في النهاية أن تتوقف. لقد خسرت ما يقرب من مئة جنيه! إذا كانت لم تتلفظ بكل عبارات السب الموجودة على سطح الأرضوكل عبارات اللعن، فإنها فكرت فيها بقوة بينما خطرت ببالها جملة لعمها العجوز جون أسكيب، لاعب بارع، الذي عُرف في جميع صالات القمار بأوربا. سنوات ١٩٣٠ عند مغادرته لكازينو مونتي كارلو الذي كان يديره رجل يدعى السيد لوبلان Leblanc قال عبارته هذه: «سواء لعبتَ الأحمر أو الأسود، فكن متأكداً في نهاية الأمر بأن السيد لوبلان (الأبيض) هو الرابح دوماً». على حافة الهستيريا، خلصت نفسها من الحاسوب، وانصرفت لتسقي نفسها كأسا مزدوجة من السكوتش، في الوقت الذي كانت تهم فيه بسكب الكحول بنكهة العنبر، تناهى إلى سمعها:

ـ *مساء الخير، مسز غراي...*

صوت مترقرق وجلي.

ـ *هل تسمعينني، مسز غراي؟*

لكن من أين ينبعث؟

فحصت الغرفة ببصرها. لم يكن هناك أحد.

ـ *مسز غراي... أرجوك. اقتربي.*

هل يمكن ذلك؟ بدا وكأن الصوت ينبثق من مكبرات الحاسوب. هرعت نحوه. لقد اختفت طاولة البلاك جاك. كانت الشاشة بيضاء وكأنها مكسوة بطبقة من الثلج، وبالضبط وسط هذا الثلج كان وجه دانييل.

ـ لقد نجحتُ، سيدة غراي! نجحت بالعثور ضمن ملاحظات جبرائيل على الحل الذي تصوره.

تمتمت:

ـ الحل؟

ـ أجل. الدليل: ها نحن حاضرون. في وسعك مباشرة استنطاقاتك من خلال هذه الشاشة. ثلاثتهم موافقون. إنهم مستعدون للإجابة على أسئلتك.

ـ الثلاثة؟

ـ تماماً. موسى وعيسى ومحمد.

تمايلت الحجرة حولها.

ـ ماذا تقترحين؟ مع من تريدين البدء؟

تهالكت فوق المقعد مثل صخرة.

ـ لا أدري. لا أدري شيئاً.

ـ إني أتفهم مشاعرك. لا تخافي شيئاً. فكري في الأمر. تعرفين منذ الآن أن لديك السلطة الكاملة لمباشرة تحقيقك وبأن الثلاثة لديهم ميل لمساعدتك. لقد أكدوا لي ذلك.

أضحت عاجزة عن التعبير. واصل:

ـ أتوسل إليك بأن لا تهدري الوقت. كل شيء قد يتوقف بين لحظة وأخرى. كل شيء. إن الذي يقتل يمتلك بالتأكيد الوسيلة لقطع الاتصال بيننا.

ظلت دائماً مقيمة على صمتها.

ـ أرى بأن لا قوة لديك هذا المساء. غدا؟ يكفيك القيام بالإجراء نفسه الذي أقدمت عليه منذ لحظات. ويتم ربط الاتصال.

مقابل جهد يفوق قدرة البشر، سمعتِ السيدة العجوز نفسها تجيب:

ـ أجل... أجل... غدا.

١٨

رنين الهاتف هو ما أيقظها صباح اليوم الموالي نحو الساعة الحادية عشرة. وذهنها غارق في النوم، تعرفت على صوت موركار:

ـ ماذا هناك، مسز غراي؟ منذ ساعة وأنا انتظر في الميناء. هل نسيتِ؟ لقد اتفقنا على أن تحضري لنقلي من العبّارة. أليس كذلك؟

بالطبع نسيتْ. المنوم الذي تناولته في اليوم السابق ـ نادراً ما تقدم على ذلك ـ جعلها تنسى كل شيء إلى درجة أنها لم تعد تدرك هل كانت في لندن، أو في المرتفعات أم في منزلها بلاملاش.

ـ سوف أصل في الحال، انتظرني.

هرعت إلى الحمام، رشت وجهها بالماء وارتدت ثيابها على عجل. نصف ساعة بعد ذلك، كانت قبالة ميناء بروديك.

ـ ماذا حلَّ بك؟ قال موركار الذي استبدت به الحيرة وهو يجلس داخل التريومف. لستِ مريضة؟

ـ كلا. لقد نمت في وقت متأخر. هذا كل ما هنالك. كيف هي حال جانيت؟

ـ كم كان وجهها ساكنا! لو لم توجد كل تلك الآلات حولها، لظن المرء أنها نائمة.

ـ وويليام؟

ـ إنه يبحث عن جواب.

أضاف الفتى الشاب بصوت خفيض:

ـ ويخيل إلي أنه وجده. سوف يتم ذلك عما قريب. غداً.

ـ ماذا تقصد قوله؟

ـ لم يعبر عن ذلك بوضوح، لكن أعتقد أنه رضخ لتوقيف كل شيء.

لم يتبادلا بعدها كلمة واحدة قط إلى أن أصبحا على مرأى من المنزل. لكن ما إن وطئا العتبة، حتى صاحت كلاريسا بصرامة:

ـ لا ينبغي له فعل ذلك. ليس الآن.

حدق فيها موركار باستغراب:

ـ لماذا؟ لقد استنفد كل جهده.

تغاضت السيدة العجوز عن السؤال. توجهت نحو الهاتف وركبت رقم صديقها.

ـ ماكلين، أنا في الاستماع.

ـ ويلي، لقد رجع موركار للتو. يبدو أن قرارك قد حُسِم. لا ينبغي ذلك. ليس على الفور. امنحني بضعة أيام.

ـ بضعة أيام؟ ماذا تنتظرين؟ معجزة؟

ـ أرجوك، وليام، ثق بي، سوف أشرح لك. بضعة ايام.

خيّم الصمت.

استرسلت بمزيد من الاقتناع:

ـ لا أعدم سببا بطلبي منك تأخير الأجل. ربما هناك فرصة، أقر بأنها صغيرة، كي تخرج جانيت من محنتها.

ـ أنا آسف، كلاريسا. ذلك مفرط في قسوته. مفرط جداً. وتابع مندفعا:

ـ كما لا أؤمن بالمعجزات.

ـ لا يتعلق الأمر بمعجزة. أتوسل إليك. بضعة أيام.

سُمِع ما يشبه القهقهة في الطرف الآخر من الخط:

ـ تنوين الذهاب إلى لُوزد...

ـ كلا. أنوي اعتراض المسؤول عن هذه المأساة. لم أخبرك بذلك، لكن شلونسكي، صديق باكوفيا، قد تم اغتياله هو أيضاً. شيء ما يخبرني بأني إذا نجحت في التعرف على الجاني، فقد يتم تحييده، ومن ثمة يبطل نفوذه على جانيت. ذلك أن لدي اقتناع راسخ بأنه المسؤول عن حالها.

ـ يصعب علي مسايرتك، كلاريسا. كيف للتعرف على قاتل الملائكة ـ هذا إذا كان موجوداً ـ أن يستطيع إنقاد جانيت من الموت؟

ـ تذكر الجملة التي استشهدتَ بها المرة الأولى حينما عرفت مضمون المفكرة. لقد قلتَ لي: «إن الإله لا يلعب بالنرد». وعليه، أعتقد أن ذلك صحيح. لقد حدث أمر البارحة مساء أقنعني بأن كل الوقائع التي طرأت هي من صنع الكيان نفسه. أنعم التفكير، وِيلِي. في كل مرة حضرتُ فيها مع شخص قادر على مساعدتي، تمت تصفيته. باكوفيا، شلونسكي، و...

قاطعها ماكلين:

ـ إنك تقولين شططاً. لو كان منطقك صحيحاً، لكنتُ أول من تعرض للموت.

أخذت نفَساً قصيراً:

ـ إن جانيت هي من يموت مكانك.

ـ هل تقصدين أن...

ـ أجل لقد أدركتَ القصد جيداً. بمهاجمته لجانيت، فإن الوحش يصيبك أنت. وهكذا فإنه يقضي على شخصين دفعة واحدة.

ـ لكن لماذا؟ لماذا كل هذه الفظائع؟

تغاضت عن السؤال وقالت:

ـ أعرف أن هذا ليس الوقت المناسب كي أقول لك هذا الكلام، لكن لا تفكر في نفسك فحسب، في ألمك. أما جانيت، فهي لا تتعذب. أنت من يتعذب.

مرّ وقت طويل قبل أن يجيب ماكلين:

ـ فرصة، تقولين؟

ـ صغيرة، فرصة مهما يكن.

ظنت أنها سمعت ماكلين ينحنح جرعة من حلقه.

ـ موافق، لكن عجلي بالأمر، كلاريسا. عجلي.

ثم أقفل السماعة.

مقوسة الظهر، بلا حراك قرب السماعة، كانت الروائية أشبه بسمكة في أرض مقفرة. جسدها يترنح خفية من الأمام إلى الخلف مثل شخص يهدهد نفسه.

أوقف صوت موركار تمايلها.

ـ هل أنت جادة، مسزغراي؟

ـ أجل.

ـ لقد ذكرت أن شيئاً جديداً حدث أثناء غيابي.

بمثابة جواب، أمسكت الفتى الشاب من ذراعه وسحبته إلى غاية الحاسوب:

ـ شغّله!

نفّذ الأمر، وقد ذهل.

ـ الآن، اذهب إلى موقع الكازينو.

أبصر بطاقة المصرف الموضوعة جنب لوحة المفاتيح.

ـ لقد لعبتِ من جديد!

ـ افعل ما أقوله لك.

ـ طُلِبَ مني رقم بطاقتك المصرفية.

ـ أدخلها.

ـ مسز غراي، هذا غير معقول. إن المرء يخسر في نهاية المطاف حتى ملابسه الداخلية على هذه المواقع!

ـ أعرف. لقد سرقوا مني حوالي مائة جنيه مسبقاً.

ـ وهذا سبب إضافي!

ـ من فضلك موركار، لا تجادلني.

بملامح ملؤها الخضوع، فعل ما طلب منه.

ومثل اليوم السابق، ومضت على الشاشة الحروف النارية Casino on ligne.

ـ ماذا تريدين أن تلعبين هذه المرة؟ شهق الفتى الشاب.

أمرته بالصمت واضعة سبابتها على شفتيها.

في الخارج، هبت الريح، وعظم البحر جراء أمواجه العاتية.

ومثل اليوم السابق، ابيضّ لون الشاشة، وغطت سطحه طبقة ثلجية.

ـ ويْ! غمغم موركار. إنها بقة. يجب أن أعيد التشغيل.

مدّ يده نحو الزر الذي يتيح إعادة تشغيل الحاسوب.

ـ لا! صاحت به، لا تلمس شيئاً البتة!

لشدة ما قالت ذلك بخوف شديد، فإنه ظل جامدا.

ومثل اليوم السابق، ظهر وجه دانييل أمام ناظريهما على خلفية من ثلج.

ـ ما هذا... تمتم موركار.

ـ هيا، اخرس!

ـ *كدت أفقد أملي فيك، مسز غراي... شكراً.*

ـ والآن؟ سألته. ماذا تقترح؟

ـ *القرار بيدك. يبدو لي أن عليك التصرف مثلما يفعل عادة محققك، المستر آرشي رودنلار ذاك.*

ـ ليس رودنلار، صححتْ، متضايقة، رودنبار، بحرف الباء. ثم في كتبي، أنا أعرف مسبقاً من هو القاتل. ويتمتع محققي بملَكة التنقل إلى أماكن الجريمة، وجمع الدلائل، واستنطاق الشهود المحتملين.

ـ *إذن استنطقي، بما أن الأماكن غير موجودة.*

ـ تقصد أنني لا أستطيع ولوج المكان الذي وقعت فيه جرائم القتل تلك، ولو من خلال هذه الشاشة؟

زفر دانييل:

ـ *لقد سبق أن أخبرتك بذلك. لا مكان، ولا زمن.*

استنطاق عيسى ومحمد وموسى مثل رجال عصابة أجلاف؟ انتزاع اعترافات من شخصيات شغلت الإنسانية منذ قرون وقرون، هذه المخلوقات التي تركت أثراً راسخاً في عقول وأفكار بني البشر!

ـ أعرف ما تشعرين به، همس موركار. يبدو عليك الارتباك. انسي ما يمثلونه. تصرفي معهم مثلما قد يتصرف محققك آرشي مع مشتبه بهم بسطاء.

ـ ذلك أسهل قولاً...

ـ *إذن، سيدة غراي*؟ قال دانييل بنفاد صبر. *على ماذا قرّ عزمك*؟

أجابت وقد جفّ حلقها:

ـ حسنا. لكني أحتاج لساعات معدودة. بما أنه يبدو أن لديك دراية بطريقة عمل بطلي، لا بد أنك عارف بأن الاستنطاق لا يُرتجل. أمهلني وقتا كافيا للتحقق من بعض النقط.

ثم ختمت بصوت صارم:

ـ غداً. غداً ما إن ينبلج الصبح.

اكتسى وجه الملاك ملمحاً منهزماً واختفى من الشاشة.

حاول موركار أن ينقر على لوحة مفاتيحه بشكل محموم، لكن الحروف المضيئة Casino on ligne محت نهائيا ملامح دانييل.

ـ ماذا لو لم يرجع أبدا؟ سألها، وقد استبد به الفزع.

ـ لا تشغل بالك، سوف يرجع، أجابت كلاريسا بهدوء.

غادرت المقعد نحو رَتَبة صغيرة اعتادت أن تضع فيها ملاحظاتها وبريدها. فتحت درجاً وأخرجت منه الكثير من الأوراق المدسوسة تحت إضبارة. تناولت أيضاً صندوقاً معدنياً صغيراً كان يضم جذاذات فارغة من الورق المقوى استخدمتها على جاري العادة لتدوين

خصائص أبطالها وتصميم الأماكن. أخذت قلم رصاص أحمر وانصرفت للجلوس إلى مكتبها.

ـ ماذا تفعلين؟ استفسرها الفتى الشاب.

ـ سوف أعيد قراءة جميع المعلومات التي كتبها جبرائيل.

ـ كيف ذلك؟ ألم يحرق المفتشُ المفكرة؟

سرت ابتسامة وديعة على شفتي الروائية.

ـ هل تظن أني بتلك السذاجة الكافية حتى استسلم لمشيئة ستيوارت لو أني لم أنقل كل شيء من ذي قبل؟ إنك لا تعرفني جيدا، يا صديقي.

ـ وشروح باكوفيا؟

ربتت على الصفحات:

ـ كلها هنا.

ـ وشروح شلونسكي؟

وضعت سبابتها على جبينها:

ـ في رأسي. لقد أريدَ لي أن أصير مجنونة، لكني ما أزال أحافظ على رأسي... كل رأسي.

صفَّر موركار بإعجاب:

ـ ويْ، أعترف بأنك تذهليني.

ـ ليس هناك ما يستحق ذلك. نصف قرن من كتابة الروايات البوليسية، ذلك يخلق لديك طبيعة ثانية. لا تترك شيئاً يمر هكذا، وتحتفظ بكل شيء.

ـ هل لي بمساعدتك؟

ـ أجل، لكن قبل الشروع في العمل، اذهب وحضر لنا الشاي. هناك أيضاً شيء من البودنغ في الثلاجة. خذ لك بعض القطع.

أسرع الفتى الشاب نحو المطبخ.

لوى المفتش ستيوارت شدقه وهو يدلك صدغيه بأطراف أصابعه. ألم الرأس الذي استحوذ عليه منذ ثلاثة أيام لا يبدو أنه ينفك عنه. مد يده نحو وعاء آدفيل الموضوع فوق المكتب، أخرج منه قرصين تجرعهما دفعة واحدة دون ماء.

لقد ألقي عليه سحِر. هذا مؤكد.

أنت محظوظ جداً، سيدي المفتش. لو لم يتبق في شيء من العقل، لصيَّرتك غبارا!

كلما فكر في أقوال موركار، كلما وجد فيها نبرة غريبة. هل يعتبر نفسه ساحرا؟ مشعوذا؟ ثم، كل شيء لدى هذا الفتى الشاب يبدو له غريبا. تلك الوقاحة، تلك الثقة في النفس، ثقة مفرطة في النفس بالنسبة لفتى لم يبلغ سوى ٢٠ عاماً. ولأي سبب ورط نفسه في تلك الكذبة الفجة حينما ذكرته كلاريسا بلقائهما على الشاطئ؟ كان ذلك أمراً سخيفاً. ثم لماذا الإلحاح، بله العدوانية التي أبان عنها حينما عبَّر ستيوارت عن نيته في إحراق المفكرة؟ هل كان موركار على دراية بمعلومة فاتتهم؟ هل كان يعلم شيئاً يجهله الجميع وكانت مضمَّنة في تلك الصفحات؟ إذا كانت الفكرة بالكاد راودته ذلك اليوم، فقد تحولت منذ ثمانية وأربعين ساعة إلى هاجس مستحوذ. خلال كل تلك السنوات التي قضاها في مخالطة أفراد يثيرون الريبة، انتهى المطاف بستيوارت إلى أن صارت لديه بصيرة نادراً ما تخطئه. لاشيء سيجعله يغير رأيه في موركار: لقد كان شخصاً غامضاً. آه! لو تسنى له فحسب استنطاق تلك الدمية بين أربعة جدران ولو من باب تلقينه

الأدب! للأسف الشديد لم يكن لديه أدنى دليل يبرر استدعائه. لا شيء. كان ملفه فارغا. لم تكن ظنونه تنبني سوى على شعور مزدوج: النفور الذي يشعر به إزاء هذا الفتى والرغبة في حماية كلاريسا.

دلّك صدغيه من جديد.

لم يكن هناك شيء في ملفه؟ لا يهم، سوف يرتجل.

ركب رقم هاتف البروفسور ماكلين...

صمت خانق يعم الغرفة ذات الجدران البيض. صمت يتخلله تنفس جانيت ماكلين المتسارع.

كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها كاتلين شخصاً يودع. حاضر وغائب في وقت معا: الجسد فوق الأرض والنفس تواقة للانفصال عنها. شعرت المرأة الشابة بالاختناق. مع أنها لم تمر سوى عشر دقائق على وجودها هناك. عشر دقائق... قرن. كانت ملامح جانيت تبدو ساكنة بشدة. في أي عالم تنام؟ مسحت كاتلين خفية الدمعة الصغيرة التي كانت تسيل على خذها وهمست مخاطبة ماكلين:

ـ سوف أغادر، أنتظرك في الخارج.

ـ سأرافقك.

أكب ماكلين على زوجته وطبع قبلة على جبينها. تأملها بضع ثوان إضافية ثم وهو يمسك ذراع تلميذته السابقة سحبها إلى غاية الدهليز.

ـ هناك كافتريا في الطابق تحت الأرضي، هل ترافقينني.

وافقته المرأة الشابة.

بينما كانا يتجهان نحو المصاعد، أبدى ماكلين ملاحظة:

ـ ما كان ينبغي لك الحضور. لقد حذرتك. المشهد غير لطيف بتاتاً.

ـ أنا من أصرّ. أنا من هاتفك. كنت مصرة على رؤيتها.

سلكا الدهليز دون أن ينبسا بكلمة واحدة إلى أن جلسا إلى قهوة.

ـ قطعة سكر؟ اقترح عليها.

اعتذرت المرأة الشابة عن العرض.

ـ عجيب، تابع البروفسور، لقد توصلتُ بمكالمة غريبة جداً من صديق لكلاريسا. المفتش ستيوارت. هل لاقيته بلاملاش؟

ـ أوه... أجل... لنقل إني لمحته فقط. ماذا كان يريد؟

ـ لو أني عرفت ذلك فحسب! على حد قوله: «للاستخبار». كان يريد أيضاً أن يعرف إذا كانت جانيت قد تحسنت. وفي غمرة ذلك، طرح علي بعض الاسئلة حول موركار. وهذا ما استغربت له. آه! لقد سألني بدقة متناهية، وكأنه لا يقصد شيئاً، لكنني أدركت جيداً بأنه يهتم لأمر حفيدي.

ابتسمت كاتلين بخفة:

ـ لا داعي للقلق. أعتقد أني أعرف السبب. لقد شبَّ بينه وموركار خلاف بسيط. لكني أفترض أن المفتش لم يتقبل ذلك.

أومأ ماكلين برأسه علامة على الفهم.

بعد وقت طويل، استخبرت المرأة الشابة:

ـ هل وصلتَ إلى قرار؟

ـ بخصوص جانيت؟ أجل. أما عن تفعيله...

ـ مكالمة مسز غراي الهاتفية، ألم تمنحك شيئاً من الأمل؟

ـ المفروض فيها ذلك، بالفعل. لكن لا أريد الاستسلام للإيمان بذلك. تخيلي ما قد أشعر به فيما بعد إذا... أنا أتعاطف كثيراً مع

كلاريسا، إنها أعز صديقة لدي، وسلوكها نابع من المودة التي تكنها لنا، لجانيت ولي. هذا ما هنالك. فيما يخص كل ما تبقى، لا أدري إن كان ثمة شيء ملموس وراء كل ذلك. لا أردي.

سندت كاتلين إلى المتكأ.

ـ ماذا لو مددنا لها يد العون؟ قالت.

قطب البروفسور حاجبيه:

ـ كيف؟

ـ إننا نعرف جيداً أن مفتاح هذه المأساة يكمن في العدد المشهور ٠,٨٠٩. بفضل إلمامك البحثي، وعلمك...

ـ تصوري أنني هذه الأيام، إلى جانب جانيت، لم أفعل شيئاً غير الصلاة والتفكير مراراً في بعض مقاطع المفكرة. حاولت الوصول إلى دلالة هذه الأرقام الأربعة. دون نتيجة!

ـ ومع ذلك، لا بد أن هناك تفسير.

ـ إن وُجِد، فهو عصي على الإدراك!

هذا الكلام الأخير جعل كاتلين تنتفض:

ـ عصي على الإدراك؟ هل تتذكر تعليمك، بروفسور؟ هل تتذكر دروسك؟ هناك جملة أنت قائلها، لن أنساها مطلقاً: «ليس لأن الأشياء تبدو لنا عصية على الإدراك، فنحن لا نجرؤ: بل لأننا لا نجرؤ فهي تبدو لنا عصية على الإدراك».

انتصب ماكلين دفعة واحدة:

ـ أو لا تفهمين؟ لنتخيل من باب المعجزة أننا وجدنا الحل، لنتخيل أن كلاريسا حددت هوية الوحش، وبقدرة سحرية، خرجت

جانيت من الغيبوبة. ماذا سيغير ذلك في الأمر؟ الأطباء جازمون، جانيت لن تكون سوى حطام.

- أنت على صواب. لكن أليست كل هذه الحكاية خارقة للطبيعة؟ ألا ترى بأننا غارقون تماماً في اللامعقول؟

- وبالتالي؟

- بالتالي لماذا الإصرار على النظر إلى مصير جانيت بطريقة ديكارتية؟ إن كانت هناك ذرة أمل في أن تنجح مسز غراي في تحديد هوية المسؤول عن هذه المآسي، لا أنت ولا أنا قادران على التنبؤ بالعواقب التي قد تنجم عن ذلك. وعلى الأخص لن تقدر على ذلك العقلانية الطبية!

رد البروفسور وهو يزفر:

- دعي عنا ذلك، كاتلين. لم تعد لدي القوة...

١٩

زحف الضباب على سطح البحر. من شدة كثافته لا يتبين المرء كِفاف الجزيرة المقدسة.

جالسان جنبا إلى جنب قبالة الحاسوب، كان موركار وكلاريسا يرقبان عودة دانييل.

دقيقة، اثنتان، خمسة، ستة. لا شيء يحدث. أيقونات الكازينو على الخط تواصل وميضها بسخافة، تتخللها بين الفينة والأخرى دعايات عسيرة الهضم.

ـ هل أنت متأكد من أنك لم تقم بحركة خاطئة؟ قالت السيدة العجوز متحيرة.

ـ لو كان الأمر كذلك، لما كُنا موصولَين بالموقع. كلا. ذلك محال.

ـ إذن، لقد وقع شيء ما.

مرت دقائق أخرى، ببطء.

وأخيراً، غمر الشاشة حجاب ثلجي.

تشكل طيف. وجه. لم يكن وجه دانييل. كان وجه امرأة. امرأة في العقد الثاني، هيفاء، لها مظهر رهباني تقريباً، رأس يغطيه شعر أبنوسي يتدفق حتى الكتفين.

ـ *نهارك سعيد، مسز غراي. اسمي ساميل. لا بد أن دانييل حدثك عني.*

تمتمت كلاريسا.

ـ أجل. يبدو لي ذلك.

مالت المرأة الشابة برأسها إلى الأمام. يبدو للمرء بأنها متعبة جداً.

ـ *مات دانييل.*

أحست كلاريسا بالقشعريرة تسري في بدنها، كبحت هجوم الهلع الذي كان يلوي بطنها.

ـ *لم يبق هناك غيري. أنا الأخيرة.*

ـ إذن... انتهى كل شيء؟

رفعت المرأة الشابة ذقنها:

ـ *كلا. أنا أتسلم المأمورية. سوف يقع ما ينبغي أن يقع. لقد تهربت أمداً طويلاً. الخوف من الموت، تفهمين؟ الخوف من الفناء. الآن، لم يعد الأمر كذلك مطلقاً. وينبغي أن يكون كذلك بالنسبة إليك. تعهدي لي بذلك.*

سمعت الروائية نفسها تجيب:

أعدك بذلك.

ـ *فلنبدأ على الفور. من تودين مخاطبته بادئ الأمر؟*

بإيماءة خفية، دس موركار جذاذة أمام السيدة العجوز. لكن هذه الأخيرة أجابت سلفا:

ـ يسوع.

ـ جيد، مسز غراي.

صارت الشاشة مغراء، بلون الكتبان.

ارتسمت نقطة صغيرة في الوسط وطفقت تكبر برأي العين. يظن المرء أنه مشاء يتقدم من أعماق الأفق. بعد حين كان في الوسع تبينه تماماً. كان شخصاً متوسط القامة. لحية لم يحسن قددها كانت تغمر وجنتيه. كانت له بشرة داكنة، أنف مستقيم، وشفتين مكتنزتين، وقد يستطيع المرء أن يعتبره بأنه عادي إجمالاً لولا نظرته الحادة، الحارقة. نظرة من حديد تدخل نفسك، قادرة على اختراقك مثلما يفعل خنجر بالتأكيد.

- *نهارك سعيد، مسز غراي.*

كان الصوت رفيعاً. حاراً. ساحراً، تقريباً.

لبثت كلاريسا مكانها. تشبثت أصابعها بحافة الطاولة. تمتمت:

- نهارك سعيد.

- *استرخي. في وسعنا تخيل انفعالك. إذا كان ذلك يساعدك، اعلمي أننا مضطربون أيضاً. منذ زمن لم نخاطب مُجسِّمِين.*

ابتسامة متواطئة تقريباً دبت في شفتيه.

- *أنا أسمعك، ماذا تريدين معرفته؟*

اغترقت الروائية نفساً مديداً وحدجت الجذاذة الثانية التي كان موركار يناولها:

- هل كنت تعرف من أسماءهم يلييل، إلمياح، حكمياه، ميحاحيل، رفائيل، جبرائيل، كاليل ودانييل؟

- *بالتأكيد. بعضهم كان ينتمي لجوقة الملائكة.* الآخرون، رفائيل، جبرائيل، ميحاحيل كانوا ملائكة رؤساء.

- كيف كانت علاقاتكم؟

ـ من النوع الجيد. عدا أني لم أكن مقرباً من الجميع. مسألة ألفة، تعرفين، لقد كان جبرائيل يتميز بميل سيء إلى أن تكون له دائماً الكلمة الأخيرة. لم أستحسن مطلقاً جانبه المتحد المركز.

ـ تقصد الذاتي المركز؟

ـ إن أحببتِ.

ـ لم تكن تحبه إذن؟

ـ لم أكن أكثرت به.

ـ لكن، أليس هو الذي...

استعصت عليها الكلمات. مهما استعدت لهذه اللحظة، وكررت على نفسها بأن عليها الحفاظ على رباطة الجأش، وتتسلل في جلد آرشي، فإن الهلع كان هو الأقوى.

ـ نعم؟

ـ بالنظر إلى النصوص التي لدينا، ألم يكن جبرائيل يحتل مكانة مميزة؟

ـ تقولين، مكانة مميزة؟

أومأت السيدة العجوز بنفاد صبر:

ـ إنه حقاً من تنبأ بقدومك، أليس كذلك؟ أمك...

حرك يسوع رأسه:

ـ آه! إني أرى ما ترمين إليه. بالفعل، لقد وقع ناظري على بعض الكتابات.

أضاف بحزم غير متوقع:

ـ مهما يكن، لست قادراً على تنويرك بهذا الخصوص. إن كان

جبرائيل قد بشر مريم بمولدي، فقد تم ذلك دون علمي، بما أنني لم أولد حينذاك بعد. في كل الأحوال، لم تخبرني أمي بذلك مطلقاً. شخصياً، يساورني ما يكفي من الشك.

فزعت الروائية:

ـ هلا أعدت؟

ـ يساورني الشك.

ـ كن أكثر وضوحاً، أرجوك.

ـ إنك تحرجيني، سيدة غراي. إن الأم، أي أم، مقدسة. من الأحسن لك أن تتكلمي معها أو مع واحد من إخوتي.

ـ إخوتك؟

ـ جاك، جوزيف، سيمون، هود. أجل لكن على الأخص ليس مع أبي. لن يحتمل ذلك. على كل حال، أكرر ذلك، لا أعلم شيئاً، لأن الحدث تم قبل مجيئي إلى العالم.

اسودت نظرته:

ـ أوقات عصيبة.

ـ متى رأيت هؤلاء الملائكة للمرة الأخيرة؟

ـ لم أر أحداً منهم منذ وقت قريب. ما عدا جبرائيل. منذ حوالي عشرة أيام مما تعدون على الأرض. لم يكف عن استفزازنا بأسئلته منذ اغتيال كاليل.

وضع يده على جبينه:

ـ نسيت، لقد تحدثت إلى دانيل البارحة مساء.

ـ وبعد؟

ـ لا شيء يذكر. لقد تحدثنا بالطبع عن جرائم القتل. تعلمين جيداً أنها تمثل في الوقت الراهن الموضوع الرئيسي لكل الأحاديث.

ـ ألم يستودعك جبرائيل معلومة خاصة؟

ـ أي نوع من المعلومات؟

ـ شكوك قد تكون ساورته إزاء هذا الشخص أو ذاك؟

ـ يبدو أنه كانت لديه فكرة مشوشة، لكنه لم يشركني فيها. مخيف ذاك الذي حلّ بهم، هذا يذكرني بالكابوس الذي عشته فوق الأرض، كابوسي.

ترددت:

ـ لكنك كنتَ تعلم ما ينتظرك...

تراجع إلى الخلف وارتفعت نبرة صوته:

ـ كنتُ أعلم؟ لا تعجلي. لم أكن أتخيل لحظة واحدة بأن سعيي إلى إصلاح مجتمع متحجر سوف يجر علي سخط إخواني اليهود، كما لو كان قصدي إلغاء شريعة آبائنا، كما لو كنتُ من أخس الخونة. لم أسع مطلقاً لإلغاء الشريعة وإنما تغييرها حتى تكون على قدر الإنسان، لم أرغب أبداً في أن يكون الإنسان عبداً للنصوص، وإنما العكس. ربما قرأت بعض الأقوال التي صدرت عني؟

أمنت على كلامه.

ـ أغلبها كان يستلهم خُطبَ من سبقوني. منها اغترفتُ قوتي شأن كل يهودي. إذ ولدتُ يهودياً، ويهودياً متُّ. أي جرم اقترفته إذن؟ أين التجديف فيما قلته: «إنما جُعِل السبت للإنسان، ولم يُجْعل الإنسان للسبت»؟

وبقدر استرساله في الكلام، كانت ملامحه تتجهم.

- هدئ من روعك، إنك تفاجئني. النظرة التي كانت لدي عنك هي أنك إنسان رزين، وديع.

أخذ يضحك. ضحكة ساخرة.

- اسألي من حولي عن رأيهم في ذلك. سوف يجيبونك بأني بالأحرى من النوع الغضوب.

- ماذا لو عدنا إلى جرائم القتل؟

- أنا منصت إليك.

- في نظرك، من يمتلك ما يكفي من القدرة على اغتيال الملائكة؟ أوضح كلامي: من كان في وسعه التحكم في الموت؟

هز كتفيه:

- ما خلا الرب، لا أرى أحداً.

- الرّب...

تبادلت مع موركار نظرة شاردة بعض الشيء، وقبل أن يتسنى لها الوقت لوضع سؤال جديد كان هو من قام بذلك:

- لكن أنت، ألا تتحكم في الموت؟ لقد بعثت حقاً، أليس كذلك؟

قطب يسوع حاجبيه:

- من أنت؟

- اسمي موركار.

- عجبا يا بني، سوف أحبطك بمرارة. إني على علم بهذه الخرافة. لم أبعث مطلقاً. حينما قام يوسف الرّامي الشهم بإنزالي من على الصليب. كنت ما أزال حياً. في حال سيئة، لكن حي. فكّرا في الأمر.

لقد تم صلبي عند الظهر، المفروض أن ألفظ أنفاسي على الساعة الثالثة بعد الظهر. وهذا مستحيل، مهما يكن. استعلما عن الأمر. إن المصلوب يموت اختناقاً، وقبل أن يموت قد يمر يوم، بل يومان كاملان. ولذلك السبب، عشية السبت كان يتم كسر المدانين لتسريع العملية. كنتُ محظوظا جداً بالإفلات من ذلك. إن ضربة رمح قائد المئة الأبله ذاك كان في وسعها أن تقضي علي.

برّق موركار بعينيه.

ـ أنت لم تبعث حيّا؟

ـ *لا ، ومن أين لي هذه القدرة؟*

ـ هل يعني ذلك أن...

ـ *لم أبعث نفسي إلى الحياة، هذا كل ما في الأمر!*

استشفت كلاريسا من كلامه بعض الغلظة.

ـ لكن بعد هذا، احتجت الروائية، إن لم تكن ذلك الذي تخيلناه، لماذا أقبلت على تلك المغامرة؟ ألم تعلم بأنك كنت تجازف بحياتك؟

ـ *كلا. ثم إن ذلك تم رغماً عني. كان هناك صوت يصرخ داخل رأسي أنْ لدي مهمة يجب إنجازها. قوة لا تقاوم كانت تدفعني إلى الأمام. لم يكن لدي خيار. كنتُ ممسوسا، على نحو تام.*

ـ هل يجب أن أستخلص من ذلك بأنك لست الماشيح؟

ـ *آتوني بآية واحدة من كتابكم المقدس التي أصرح فيها بذلك.*

هرعت كلاريسا إلى إنجيلها.

ـ أمهلني ثانية واحدة.

قلبت الصفحات بأسرع ما استطاعت إلى أن وجدت الآية التي كانت تبحث عنها.

- هاهي، قالت: يوحنا، الإصحاح الرابع، الآية ٢٥. أنت بالقرب من بئر وتخاطب امرأة سامرية: (قالت له المرأة: «أنا أعلم أن مسيا، الذي يقال له المسيح، سوف يأتي، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء. قال لها يسوع: أنا الذي أكلمك هو»).

حدقت فيه كلاريسا:

- إذن؟ هل تنفي؟

احتجبت مقلتا يسوع:

- سوف أكتفي بالقول إن يوحنا هو الوحيد من بين الإنجيليين الأربعة الذي يذكر هذا اللقاء. ولهذا السبب فإن إنجيله يوجد على هامش أناجيل متى، مرقس ولوقا. لا أحد من الثلاثة الأخر يلمع إلى هذا الحادث. من تودين تصديقه؟ يوحنا؟ أو رفاقه؟ في قضية معينة، ما الشهادة التي يكون لها وزن أكثر؟ شهادة شخص واحد أم ثلاثة أشخاص؟

وصارت نظرته مفعمة بالحنين:

- اعلما أن يوحنا كان شخصاً مميزاً جداً. مخلوق ذو إحساس مرهف إلى حد أقصى. يكاد يكون إحساساً أنثوياً. كما كان رومنسياً عظيماً. لقد جعل مني مثالا. بل أفرط كثيراً في ذلك.

- لم يحدث إذا أن التقيت تلك السامرية؟

لم يراوغ مطلقا:

- الجواب هو «لا».

- جيد.

فتشت من جديد في إنجيلها:

ـ وهذا؟ متىّ، الإصحاح ٢٦، الآية ٦٣ : أقتبس: «لكن يسوع التزم الصمت. قال له رئيس الكهنة: استحلفك بالرب الحي أن تقول لنا، هل أنت المسيح ابن الرب؟ ـ قال له يسوع: أنت قلت ذلك».

لوى يسوع شدقه بازدراء: «حنانيا، رئيس الكهنة... يا له من مفتري! وحده قَيَافا كان يستحق هذه الرتبة. إن حنانياً لم يعد يشغل تلك الوظيفة منذ هيرودس. لم يكن سوى وغد تافه وخيراً فعل الرومان حينما تخلصوا منه. كما أني لم أفهم يوما لماذا تم وضعي في حضرته. لا يهم!

ـ لم تجبني، أصرت كلاريسا. هل تنفي بأنك تلفظت بالكلمات التي أخبرتك بها للتو؟

ـ كلا بالطبع! لا أنفي. كنت مغتاظا، متعبا. كانت تلك المرة العاشرة التي يوجه فيها إليّ ذلك الشخص البغيض السؤال نفسه. كنت منهكاً. لم تر عيني النوم الليل بطوله. كنت أريد الانتهاء من الأمر. ثم، أعيدي القراءة، لقد اكتفيت بالقول: أنت قلت ذلك». أياً كان قد يلفظ الشيء نفسه شرط أن يُترك للانصراف بسلام.

خطت السيدة العجوز بضعة أفكار على جذاذتها ثم اقترحت:

ـ أتمنى أن نرجع إلى القضية التي تشغلنا. هل كنت على علم بأن جبرائيل يكتب يوميات حميمة؟

ـ أبداً.

ـ الجريمة الأخيرة، مقتل دانييل، تم اقترافها خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. هل يمكن لي أن أعرف فيما صرفت وقتك؟

ـ لقد قرأت كثيراً. وكتبتُ كثيراً أيضاً.

ـ أو تكتب؟

لوى يسوع شدقه بحرج:

ـ *أجل. ولهذا السبب كنت أود انتهاز هذه الفرصة لأطرح عليك سؤالا يؤرقني منذ قرأتُ كتبك.*

ـ أهي رواية تلك التي تكتبها؟

ـ *نعم ولا. هو بالأحرى نوع من المتخيل الذي يدخل فيه الواقع. ذلك الذي عشتُه.*

ـ إذا لقد كتبتَ. وبعد ذلك؟

ـ *مثلما جرت عليه العادة عندنا، التقينا شأن الأصدقاء، يهودا ومحمد وأنا.*

ـ مع يهودا؟

ـ *لماذا هذا الاستغراب؟ أجل، القاتل المأجور هو من أعز تلامذتي.*

ثم ارتسم على محياه الضجر:

ـ *أجل. أرى ذلك. لقد آمنتم بقصة الخيانة الغامضة تلك. سخف! ظلم! إذا كان ذلك يعنيك، ما عليك سوى استنطاق يهودا، سيخبرك بالحقيقة كاملة.*

ـ ماذا كان الغرض من تلك الاجتماعات؟

ـ *لا شيء محدد بالضبط. كنا نتحادث عن حياتنا، عن الحياة عامة. كنا نعيد بناء العالم. كما يحدث أيضاً أن نلعب الشطرنج بلا تبصر.*

ـ بلا تبصر.

وجدها موركار سانحة ليجيب:

ـ يقوم لا عب بمواجهة الآخرين جميعهم، أو لاعب بعينه. لكن يحرم عليه النظر إلى رقعة الشطرنج.

ـ صحيح، أكد يسوع.

ـ يبدو عليك أنك تعاني من ضجر شديد، قالت السيدة العجوز.

ـ لا ، *بتاتا. لا تسألاني عن السبب. هنا يسود فيض جليل. لا نشعر بأي نقص. أظن أن هذا الفيض نابع من الخالق.*

ـ الرّب...

ـ *بالتأكيد.*

ـ أظن أنه مثلما هو الشأن بالنسبة للملائكة، لا صلة تجمعك به؟

ـ *ولا صلة. لكني أعلم أنه موجود. أنا على يقين من ذلك.*

من جديد خطت كلاريسا بقلمها على جذاذتها ثم سألته:

ـ هل توحي لك هذه الجملة بشيء: «التوأم في ٠,٨٠٩»؟

ـ *«التوأم في ٠,٨٠٩»؟.*

غضّن يسوع جبينه ثم فكر لبعض ثوان وقال:

ـ *لا. لا شيء. ليست لدي أدنى فكرة. بم يتعلق الأمر؟*

ـ لا أهمية لذلك البتة. ما رأيك في الملائكة؟

ـ *لا رأي لدي. أعرف أنها خُلقت لإنجاز بعض المهام. هذا كل ما في الأمر. لم نكن مقربين منهم، نظراً لشخصيتهم.*

ـ ماذا تقصد؟

ـ *ما عسى أن أقول؟ كم إنهم أشبه بالأطفال، كم ينقصهم النضج. خلافاً لنا نحن. لم يعرفوا العيش، ولا المعاناة ولا الحب.*

ـ وأنت عرفت الحب...

ـ بجنون. امرأة بالطبع. وعلى الأخص الرجال، ولو أن هؤلاء لم يفهموا منهجي، ولا من جاء بعدي، ولا إخواني اليهود. فيما يخص هؤلاء وصلت إلى نتيجة مفادها أن الذنب لم يكن ذنبهم، بل ذنب رعونتي وطيشي. لا شك أنني استسلمتُ للغرور الذي غمرني.

توقف هنيهة ثم واصل:

ـ لقد اقترفتُ ما لا يغتفر، مسز غراي: هاجمتُ المعبد، وكان ذلك من أسوأ ما يجب فعله. هل لديك فكرة عما كان يمثله ذلك المكان في وقتي؟

أجابت كلاريسا بالنفي.

ـ وول ستريت!

ـ المعذرة؟

ـ بورصة أورشليم نوعاً ما. كان أكبر سوق مالي في المدينة. لو لم يوجد لانعدمت موارد الناس البسطاء والتجار والصناع الذين كانوا يبيعون التذكارات للمسافرين. إني أسمع إلى الآن صوت الصيارفة ينادون على الحجاج يعرضون عليهم عملة المعبد النقدية التي هم مجبرون على الأداء بها «ليشتروا أنفسهم»، والمكس الذي يعود ريعه إلى الطائفة الكهنوتية. بالحكم عليها أنها غير طاهرة، كل عملة نقدية أخرى، إغريقية أو رومانية، يفترض أنها تدنس الفضاء المقدس. على بعد أمتار من هناك، كان اللاويون يبيعون الملح والخبز والبخور أو الزيت أيضاً للقرابين. مبالغ كبيرة يتم تبادلها على مدار النهار والتي تكاد تنتهي دائماً في محفظة الرهبان؛ كانوا يتحكمون تماماً في كل التجارة الرائجة في المكان. وكنت أجد أن هذا الوضع مثير للاشمئزاز. كان يسبب لي الغثيان.

ـ وأردتَ أن تطرد كل هذه الجموع...

ـ *أردتُ تطهير هذا المكان المقدس. هذا كل ما في الأمر.*

ـ بضربات سوط!

ـ *سوط صنع في آنه من حبل معقود! ثم إني قمت فقط بقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة اليمام.*

ـ وأنت تصرخ: «لقد كُتب: بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص!».

ـ *ذلك صحيح. أعترف بأن تلك كانت غلطتي الكبيرة. وقد كانت مهلكة لي. كما ترين، سيدة غراي، كل من تصدى للمعبد فهو يتصدى لأورشليم. ويصير العدو الواجب قتله. وقد قتلوني.*

شدَّ قبضته وهو يكمل:

ـ *فيم أفادت إذا فرقعتي؟ لم تفد في شيء. انظرا إلى عالمكم! لقد صار معبداً كونياً عملاقاً. لقد بدَّل اسمه فحسب. إنكم تسمون ذلك «شركات متعددة الجنسيات»، أعتقد؟ هيا فلتجترؤوا على مهاجمتها إذن! حينها سيقضون عليكم مثلما قضوا علي.*

ـ ومع ذلك صار لك أتباع، على حد علمي. ما يقارب مليارين. بينما لم يكونوا سوى إثنا عشر تابع. ذلك يعتبر نجاحاً، أليس كذلك؟

ـ *بداية، اسمحي لي باستدراك أمر. لم نكن أبداً إثنا عشر، بل أربعة عشر. إنك تغفلين نثانييل ويهودا، ابن جاك. افتحي إنجيلك؛ ما عليك سوى التحقق من ذلك. أما عن كلمة «نجاح، فأنا أرفضها. لم آمل شيئاً. لم أرغب في شيء. حاولت فقط أن أطور شريعة موسى. هل تعلمين بأن* **الهالاخا** *ـ التي تحصي الفرائض الدينية المطلوب من كل يهودي صالح الالتزام بها ـ تحرم حمل غرض ما، ولو كان*

منديلاً، يوم السبت، ما عدا في مدينة مسوَّرة؟ هل ما يزال هناك الكثير من المدن المسوَّرة في عالمكم الحالي؟ كان كل رجائي هو أن يتفتح الذين ينعتون أنفسهم بسدنة الوصايا على عالم المعرفة وبأن لا يغلقوا الدين مطلقاً، أن يهدموا الأسوار المشيدة حول التوراة حتى يتسنى لكل فرد أن ينهل منها معنى لحياته. لقد أخفقتُ، على نحو يدعو للرثاء.

ـ لا تؤاخذني، لكني لا أفهم قصدك. ما دخلك في التوراة؟ سواء أحببت ذلك أم كرهت فأنت مؤسس المسيحية، أليس كذلك؟

خبط يسوع صدره بيده اليمنى على نحو موجع.

هنا جُماع سوء الفهم. حياتي كلها، ومماتي لم يكونا إلا سوء فهم مريع. لم أرغب في شيء، أو تفهمين؟ بالتأكيد لم أرد إنشاء ديانة جديدة. الذنب كله يعود لذلك الآخر، الطرسوسي. هو ومن سار على هديه.

ـ الطرسوسي؟

ـ شاول، الذي أغدقتم عليه اسم القديس بولس، ولا أحد يعلم لماذا فعلتم. أفضل تفادي الحديث عنه، إن كان هذا لا يزعجك. ما إن أتلفظ باسمه يصيبني الدوار.

ثم لوى شدقه:

ـ انظرا حولكما تلك الكاتدرائيات، تلك الكنائس المليئة بالتماثيل التي يركع أمامها الناس مثلما كان الرومان يحرقون البخور عند قدمي تماثيل قيصر! كيف كان لي أن أطمح لمثل هذه المباني؟ أنا الذي لم أتوقف عن الصدح: «ومتى صليت فلا تكن كالمرائين، فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع، لكي يظهروا

للناس. وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك واغلق بابك، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء».

ثم ضرب صدره من جديد:

ـ كلا، مسز غراي، لم أرغب في شيء من هذه الأمور.

أطبق الصمت من جديد. ألف سؤال ما يزال يغلي في رأس السيدة العجوز. لكن الوقت كان يستعجلها.

ـ جيد، قالت بحسرة. ربما سوف نلتقي مجددا. أشكرك على تعاونك.

ـ آمل بقدر ما تأملين أن نضع حداً لتحركات هذا المجنون. أو تعلمين بأنه لم يتبق سوى ملاك واحد؟

ـ ساميل. أجل.

ـ لو تم اغتيالها هي الأخرى، أخشى بشدة من أن تمسكم عواقب ذلك. أنتم، المجسّدون، لا أعرف بالضبط الدور الذي كان منوطاً بالملائكة، لكني متأكد بأن ذلك كان أمراً حيوياً بالنسبة للإنسانية.

استرخى قليلاً وجه يسوع الذي كان إلى تلك اللحظة منقبضاً نسبياً:

ـ قبل أن أودعكم، هل تسمحي لي بأن أوجه إليك سؤالا أدبيا:

ـ تفضل.

ـ لماذا تخصصين جماع موهبتك لحكاية جرائم قتل، لوصف أناس جشعين، بلا شرف؟

قطبت الروائية حاجبيها:

ـ أجل، ما يقرب من مئة رواية، كلها تطفح بالدم، بمخلوقات

شريرة، منحرفة، وضيعة، حسودة. من أين لك هذه الأفكار المستحوذة؟

ـ لا علم لي بذلك. لم أفكر مطلقاً في الأمر. ربما يثيرني الشر؟

عم الصمت من جديد.

ابتسم يسوع. لكنها بسمة ملغزة.

ـ *أنت كذلك، سيدة غراي.*

ثم ختم بقوله:

ـ *كان في وسعك أن تكوني قاتلة كبيرة...*

٢٠

كانت مكتبة جامعة غلاسكو تشبه بطن سفينة عملاقة وكاتلين تبدو وكأنها تمثال صغير تائه في قلبها. كانت رزمة الكتب التي وضعتها على منضدة القراءة تحجب النصف الأسفل من وجهها برمته.

كانت تريد أن تعرف. كان لا بد لها من أن تعرف. بما أن البروفسور لم يتخذ بعد قراره لإنهاء غيبوبة زوجته، كل شيء ما يزال ممكنا.

ها قد مر يومان قضتهما محبوسة بين تلك الجدران. يومان تفسد فيهما بصرها بفعل تصفح مؤلفات. ولا شيء. بالتأكيد، لقد تعلمت أشياء. لا يخامرها شك في أي لحظة بتلك المكانة التي احتلتها الأعداد منذ فجر الأزمنة داخل عقل الإنسان. ما إن كانت حضارة من الحضارات تصل إلى طور الكتابة حتى كان يتم فيها ربط الأعداد بممارسات دينية أو سحرية. لقد امتلكت خصائصها إغراء حقيقيا للعقول؛ إغراء تأبد إلى أيامنا هذه والتي وصفت بأسماء «علم الأعداد»، «حكمة الأعداد» أو كذلك «القابالاه». لقد امتلكت الأعداد إذن لغة خفية، أو موصوفة كذلك.. لم تكن «كمية» فحسب، بل كان لها أيضاً «كيف».

بعد أن تصفحت سريعاً قدراً معيناً من المقالات التي تعالج الموضوع، قر عزمها على الاهتمام بالقابالاه. حسب التقليد العبري، فإن موسى بعد أن تلقى ألواح الشريعة، احتفظ بجزء من التعاليم التي

استودعها إياه الرب ونقلها جهرة إلى أهل بيته وصحبه الذين ارتآى أنهم قادرون على تقبلها. لعل التعليم تم في جزء منه شفهيا، من الأفواه إلى الأسماع، في جزء منه فحسب، إذ كان من اللازم رغم ذلك خطه كتابه بغية أن يصل ذا يوم إلى الأجيال اللاحقة. لذا تم إخفاء المذاهب الباطنية في الشريعة المسماة «ظاهرية»، لكن بطريقة مشفَّرة كي لا يقدر على الوصول إليها إلا الحكماء وحدهم. دنيا، عالم لا حدود له، على صورة الكون.

تمددت كاتلين على المقعد وهي تزفر. لم تكن في حاجة إلى حياة واحدة فحسب لدراسة واستيعاب ذلك الكم من المعارف، بل إلى ألف حياة. وتساءلت إن لم تكن قد بالغت في تقدير امكاناتها وإن لم يكن ذلك العدد الغامض يحجب سره.

لم يكف ستيوارت عن النقر على الملصق الورقي الذي كتب فيه العميل ويشار رقما هاتفيا.

لم يثمر الحوار الذي جمعه بالبروفسور ماكلين عن شيء ذي بال. وظل الملف موركار مقيما على فراغه. كل ما أفلح ستيوارت في معرفته هو أن كريمة البروفسور عهدت لأبيها برعاية الفتى الشاب لمدة ثلاثة أسابيع واختفت عن الأنظار منذ سفرها إلى البربادوس.

ذلك يدعو للتساؤل إن لم يفرط في التركيز على الأمر. لماذا؟ لماذا يشغله هذا الصبي إلى هذا الحد؟ أمر سخيف.

وبحركة مباغتة، رفع السماعة وركب الرقم المسجل على الملصق الورقي: Sand Acres Beach Club، فندق أربع نجوم بالبربادوس...

حينما أجابت المهاتِفة، سأل ستيوارت عن الغرفة ٥٢٦. المسز مارغريت موراي. طُلب منه الانتظار. وذاك ما فعل بأن استسلم لإيقاع

موسيقى مهدئة وهو يتخيل شواطئ الرمال الناعمة اللانهائية وسعف النخيل الذهبية.

لم يطل انتظاره كثيراً:

ـ آسفة، المسز موراي لا تجيب.

ـ أعتقد أنك لا تعلمين أين يسعني الإتصال بها؟

ـ كلا، سيدي.

ـ هل تستطيعين التأكيد عليها للاتصال في أسرع وقت ممكن بالمفتش ستيوارت، في بروديك؟

ـ أدون المعلومة... المفتش ستيوارت، بروديك؟

ـ في أسكتلندا.

ـ هل من هاتف، سيدي المفتش؟

مدها ستيوارت بخطه المباشر وكذلك برقم هاتف بيته. بالنظر إلى الفارق الزمني، هناك احتمال قوي بأن تهاتفه كريمة البروفسور ماكلين حينما يكون قد عاد إلى بيته.

جالسة إلى مائدة في قاعة الشاي الصفصاف، أكملت كاتلين الرسم الذي شرعت فيه ساعة من ذي قبل. مالت برأسها إلى الخلف قليلاً وتأملت ما أنجزته وهي تبتسم. قطعاً، كان لموركارها وجه عجيب. بين الصعلكة واللطف. ما الذي دفعها إذن للإقبال على هذه الخطاطة؟ كانت تلك اللوحة الثامنة التي تنجزها للفتى الشاب في أقل من ثمانية وأربعين ساعة. هل كان ذلك السؤال جديراً بأن يطرح؟ إنها تفتقد موركار. ذكريات نهاية أسبوعهما لم تكن قد أوشكت على الانمحاء. لم يسبق لها أبداً أن عرفت مع شخص مثل ذلك الانسجام، ذلك الحُلول. كانت هي أول من تفاجأ لذلك. ما إن تحدث نفسها بأنها

سوف تلاقيه من جديد عما قريب، حتى تجتاح الحرارة بدنها كله، وفي الوقت نفسه، كانت تشعر بالحرج من أن فكرة هذه العودة مرتبطة بحال جانيت. إما تبقى على قيد الحياة، وإما...

خطت على صفحة من دفتر مخطوطاتها الأعداد الأربعة الغامضة: ٠,٨٠٩ وحدقت فيها طويلاً، وكأنها تأمل بأن يولد الحل من شدة نظرتها.

على بعد خطوات معدودة من مائدتها، كان هناك زوج يدردش بهدوء، ونادلة تعمل بصخب، بينما المكان كله بما فيه تهدهده موسيقى خلفية بالكاد مسموعة. أرخت سمعها. موزار بلا شك. لم تكن تحب موزار.

ـ مرحبا، كات...

فزعت ورفعت رأسها:

عزيزي جورج! هو هنا؟

أجابت بانزعاج:

ـ مرحبا، يا لها من مفاجأة...

ـ هل أنت على ما يرام؟

أشار إلى الكرسي الفارغ:

ـ مسموح لي؟

ـ بالتأكيد.

تابعته كاتلين بينما كان يهم بالجلوس وذهلت لملاحظة مقدار تغير مظهر حبيبها السابق في ظرف وجيز. بدا عليه أنه شاخ على نحو لا يصدق.

ـ كيف هي أحوالك؟

طرحت السؤال باهتمام صادق.

ـ متعب قليلاً. لكن الأمور سوف تتحسن في غضون بضعة أيام. تخيلي أنني سوف أذهب غداً صباحاً للصيد بالغوص في جزر المالديف.

ـ أنت؟ الصيد بالغوص؟ لقد ظننتُ دوما أنك كنت تنفر من كل أشكال النشاط البدني.

دبّت بسمة حزينة بعض الشيء على شفتي الفتى الشاب:

ـ إن المرء يتغير... ثم إني أحدث نفسي بأنه لن يكون أمامنا وقت كثير قبل أن تختفي هذه الجزر نهائيا، بعد أن تغمرها المياه.

ـ أجل، أعرف. إنها إحدى نتائج الاحتباس الحراري. أمر محزن. إنهم يفسدون كل شيء.

أطرق وهمس، بقليل من الارتباك:

ـ وأنتِ، كاتْ؟ هل أنت بخير؟

ردت عليه بالإيجاب.

مالَ بصر الفتى الشاب صوب دفتر المخطوطات الموضوع على المائدة، ثم صاح متعجباً:

ـ ياه؟ لو أسعفتني الذاكرة، كنت تكرهين الأرقام مقدار كرهي للرياضة.

ثم أكد وهو يخفض صوته:

ـ بل كان ذلك واحداً من الأسباب التي دفعتكِ إلى الانفصال عني...

احمرت المرأة الشابة خجلاً:

ـ كلا... ذاك لا شيء. إنه عدد، لا غير.

ـ دعيني أرى...

جذب الدفتر نحوه:

ـ ٠,٨٠٩ ماذا يمثل ذلك؟

ـ تحديدا، لا علم لي بذلك بتاتا.

فكر جورج مليا وهو يكرر بصوت مسموع:

ـ ٠,٨٠٩... عجبا. أين عثرتِ عليه؟

ـ في مفكرة قديمة.

ـ عجيب. إنه يذكرني بشيء ما.

ـ بماذا؟

ـ أوه! لا شيء على وجه التحديد. قد أزعم أنه يذكرني بأرانب فيبوناتشي.

برَّقت كاتلين عينيها.

ـ ألم أحدثك عن ذلك مطلقاً؟ في الواقع، فيبوناتشي هو لقب ليوناردو بيزانو، عالم رياضيات إيطالي، ولد منذ ألف سنة تقريباً. هو من أدخل الترقيم العشري والكتابة العربية للأرقام إلى الغرب. لقد وضع في كتاب ـ نسيت عنوانه ـ المعارف التي اكتسبها في الجزائر حيث كان يعمل والده. كان بلا ريب أكبر عالم رياضيات في العصر الوسيط المسيحي.

ـ وكان يربي الأرانب؟

وأطلق «عزيزي» جورج ضحكة مدوية:

ـ لا على الإطلاق. إنها واحدة من مسائل كتابه الذي ألهم علماء

الرياضيات بشدة: «كم من زوج من الأرانب نحصل عليه عند متم كل شهر إن، بالبدء من زوج واحد، كل زوج يلد كل شهر زوجاً جديداً، الذي يصير منجبا في الشهر الثاني من حياته؟». وقد أدت هذه المسألة إلى ما يسمى «متتالية فيبوناتشي».

سكت وشمل صديقته السابقة بنظرة ماكرة:

ـ أتوسل إليك، لا تطلبي مني أن أشرح لك تفاصيلها... لقد ضيعت حبك في السابق بسبب هوسي بالرياضيات، ولا أود أن أفقد صداقتك. ثم، سوف يكون ذلك شديد التعقيد.

ابتسمت.

ـ قل لي رغم ذلك كيف تذكرك أرقامي الأربعة بفيبوناتشي؟

ـ إنه حدس. هناك أعداد مثل هذه توقظ ذكرى غامضة، لا نفلح في التحقق منها جيداً.

نهض لكن على مضض.

ـ ينبغي أن أودعك.

أشار إلى مائدة في أقصى طرف قاعة الشاي حيث تجلس فتاة شابة في العشرينات من عمرها.

ـ إلى اللقاء قريبا؟

ـ إلى اللقاء قريباً، جورج.

بينما كان ينصرف، نادت عليه كاتلين وقد استحوذ عليها حدس مباغت:

ـ هل لي أن أطلب منك خدمة؟ إن كان لديك متسع من الوقت قبل رحيلك، أتستطيع الإكباب على هذا العدد؟ ربما أفلحتَ في استرجاع ما يذكرك به؟

ـ ok . أعدك.

ـ أو لا تدونه؟

افتر فمه عن ابتسامة متواطئة:

ـ ٠,٨٠٩. نسيتِ ما فرّق بيننا...

لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة مساء حينما انتهت كلاريسا من استجلاء المعلومات المحصل عليها أثناء استنطاقها الأول. حصيلة ضعيفة بالأحرى. كان لديها انطباع سيء بأنها لم تتقدم كثيراً. بالتأكيد، اعترافات يسوع ثورية، لكن فيما يخص التحقيق في حد ذاته، لم تسفر الشخصية عن أي كشف مميز.

استدارت نحو موركار وأشارت إليه بأن ينزع عن أذنيه سماعتي جواله.

ـ ألم تتعب من الاستماع دون توقف إلى السيد باخ؟

ـ كلا. على الضد من ذلك، إن مقطوعة القداس في مقام «سي» ثرية جداً. إني أستكشفها كل مرة من جديد.

أشار إلى الصفحات المبعثرة فوق المنضدة:

ـ إذن؟ هل صارت الأمور أكثر وضوحا؟

أجابت السيدة العجوز بالنفي.

ـ ينبغي إذن السير قُدما. لا بد أن ينتهي بك المطاف إلى اقتفاء أثر ما.

ـ ممكن. شرط أن لا يكون جبرائيل قد أخطأ الطريق.

أبعدت جديلة شعر جامحة عن جبينها:

ـ بعد كل شيء، أضافت، لا علم لنا بالمسلك الذي اتبعه للوصول إلى هؤلاء المشتبه بهم الثلاثة. لماذا؟ وفق أية أدلة؟

ـ إنك لا تجانبين الصواب، لكن أعتقد أني أتذكر جملة مكتوبة في مفكرته، لا أستعيد الكلمات بالضبط، إلا أنه قال ما مفاده: «إن من يزرع الموت يمتلك بالتأكيد قدرة عظيمة». ثم ذكر موسى ومحمد وعيسى.

ـ كما أنه ذكر شخصيات كثيرة غيرهم. لأي سبب ذكرها؟

لوى الفتى الشاب حنكه بسخرية:

ـ الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذلك هي متابعة الاستنطاقات.

عقب ذلك بلحظات معدودة، كانا يجلسان من جديد قبالة الشاشة في انتظار ساميل، ومثل اليوم السابق، التوى بطن السيدة غراي. ذلك يفوق حملها، مزيج من الرهبة والخجل والهلع. في أغوار سريرتها، شكرت جبرائيل لأنه لم يوكل إليها سوى ثلاث شخصيات قصد الاستنطاق. ما كانت بالتأكيد لتجد القوة للمضي أبعد من ذلك، مهما كانت سعة فضولها. وقد كان هذا الأخير هائلاً.

ـ *نهارك سعيد، سيدة غراي. أنا ممتنة لك لحضورك في الموعد.*

تمتمت كلاريسا كلاماً مبهماً.

استرسلت ساميل:

ـ *أشعر بالخطر يدنو، ينتابني خوف شديد. هل لديك فكرة تقريبية؟ شكوك؟*

أومأت السيدة العجوز نافية والأسف بادي عليها.

ـ *إذن يجب أن نسرع. أتوسل إليك. من تودين استدعائه؟*

ـ موسى.

وفي الحين امحى اللون الثلجي فاسحاً المجال لخلفية ليلية تعبرها شرايين لونها أمغر. في البداية لم يحدث شيء، ثم انشقت الخلفية ليسلك الطريق رجل ذو بشرة داكنة. جبين عريض، جمجمة رمطاء تقريباً ومحدودبة، يجلس على صخرة، قد تكون كتلة غرانيت. وحشي النظرة، في وجه موسوم بعمق. لحية قصيرة، رقيقة ناحية الأذنين تبرز وجنتين غائرتين.

لا حظ موركار بصوت خفيض:

ـ لم أتخيله على هذه الصورة مطلقا؟

ـ اصمت، همست له كلاريسا.

ـ *وكيف كنتَ تتخيلني، صديقي الفتى؟ بقرنين جميلين يشبهان ذانك القرنين اللذان ألصقهما بي ميكائيل أنجلو العزيز ذاك، ولحية طويلة بما يكفي لتعلق بها رجلَي؟*

ـ كلا، كلا. همهم موركار، أنا...

كنس موسى الهواء بغضب، ثم وجَّه عنايته نحو كلاريسا:

ـ إذن؟ ما تزالين تبحثين عن قاتلك؟

أمنت الروائية على كلامه.

ـ *لكن، أنت محاطة بالقتلة، سيدة العزيزة! ما عليك سوى بسط يدك للمسك بواحد منهم أثناء ذلك! إنكم ستة مليار نسمة، وفي نظري، لا بد أن هنالك ضمن هؤلاء بضعة ملايين من القتلة المحتملين أو المشهود لهم.*

ـ إنك تعرف عمن أبحث.

ـ *فعلا، أعرف لكن لا أرى في أي شيء قد أفيدك.*

ـ لقد كنت تعرفهم، مع ذلك، أقصد الكلام عن...

قطع عليها القول بغلظة:

ـ *أجل، كنت أعرفهم. كنت أعرف كل واحد منهم، وكل واحدة أيضاً.*

ـ إذن تستطيع إخباري عمن كانت له مصلحة في القضاء عليهم.

صدرت عنه ضحكة ساخرة:

ـ *لو سألتِ كل الحاضرين هنا، لأصابتك الدهشة من اكتشاف أن كل واحد منهم كان لديه سبب للقضاء عليهم.*

ـ وأنت أيضاً تبعا لذلك؟

ـ آسف لأني أخيب أملك. كلا.

ـ هل لديك حجة غياب؟

ـ ولا واحدة. باستثناء أني لم أتعامل مطلقاً مع ملائكة في حياتي، وبالتالي لم يكن لدي أي سبب للتعرض إليهم. خلافاً لذلك، اسألي إبراهيم إذن، وسارة، أو يعقوب. وسوف تسمعين درراً عن هذه المخلوقات التي زعموا أنها ملائكية.

ـ عجباً!

ـ *تماماً! خذي مثل تلك الشقية سارة، أنظري إلى الفوضى التي عملوا على بثّها في حياتها الزوجية. ضحت المرأة المسكينة بنفسها لما سمحت لبعلها بالزواج من جاريتهما. وضعت لهما هاجر ولدا، وعلى الفور حلّ هؤلاء الملائكة الأعزاء وأخبروا إبراهيم بأن زوجه لم تعد عاقراً وسيرزق ولداً. في عمر سن التسعين! تخيلي الفوضى قليلاً! بعد أن وضعت إسماعيل، ظنت الجارية نفسها سيدة المكان. لكن ما إن رزقت سارة بولدها إسحاق حتى استعادت زمام الأمور*

وتم طرد الجارية ومعها صغيرها. هل تجدين بأن هذا وضع ينم عن أخلاق، أنت؟

ـ أوه... من خلال معرفتي البسيطة، ليست الملائكة، بل الرب، لم تكن الملائكة إلا رسل، وسطاء.

ـ يُحَمِّل الرب بكل الأوزار! شخصيا، لا أظن ذلك. ليس قبل أن يقدم لي روايته للوقائع.

شدّت كلاريسا يديها إلى حد الإحساس بالألم. كانت تحلم. من المؤكد أنها كانت تحلم.

ابتلعت ريقها بصعوبة ثم لاحظت:

ـ لكنك رأيته مع ذلك. في سيناء، كان في وسعك أن تسأله.

ـ إنك تمتلكين الكثير من حس الفكاهة، سيدة غراي. الفكاهة الإنجليزية...

غضّنت الروائية جبينها.

ـ غلط. لستُ إنجليزية، بل اسكتلندية.

ـ لا أرى فرقاً.

ـ صدقني، هناك فرق.

ـ حسناً، في يوم من الأيام بيِّني لي ذلك. لنرجع إلى الرَّب. في البداية، أؤكد لك أني لم أره. لقد سمعته فقط. بل حتى ذلك... في قلب الصحراء، تحت شمس حارقة تحيل المرء رماداً في الحال. صوت، ذلك كل شيء. لا يمكنك تخيل الحديث! إنها مناجاة، أجل! لا شيء غير الأوامر! ويا لها من لهجة! حينما يخطر ببالك أنه أمرني بالعودة إلى مصر، أنا! رجل في سنّي، حيّاً على الثمانين! بينما كنت أعيش في سكينة مع سيبورا، زوجتي الحنون، وجِرْشُوم، ولدي

المحبوب. كنت سعيداً، غير مهموم، وبلا قيود. الظاهر أن سعادتي أزعجت الرَّب بما أنه أجبرني على هذه المهمة. ولأية غاية؟ كي أخرج أبناء ديني من أرض الفراعنة وحملهم إلى أقصى الدنيا. أن يطلب مني ذلك! مني أنا؟ أنا الذي كنتُ بالكاد أتحدث العبرية! ولأنني تجرأت على إثارة انتباهه إلى ذلك، لم يجد افضل من أن يرد علي: «لا أهمية تذكر لذلك، إن أخاك هارون سوف يتحدث مكانك!»

رفع موسى يده ولم يكن من كلاريسا إلا أن تراجعت إلى الخلف لشدة ما كانت حركته صارمة.

ـ ليس هذا كل ما في الأمر! حينما بلغ مني العجب أن سألته اسمه حتى أفتخر بذلك بين من حملني مسؤوليتهم، أو تدرين بم أجابني؟ إهييه، آشير، أهييه! «أنا مَن أنا». وكان علي الانصراف من أجل إقناع الآخرين أن «أنا من أنا» أرسلني إليهم! تصوري قليلا!

اغترف نفساً قصيراً:

ـ علاوة على ذلك، تعلمين أنه حتى لو فكرت في سؤاله، لكنتُ منعتُ نفسي من فعل ذلك. لم يبد «أنا من أنا» منسجماً على الأخص في نظري.

ـ آه؟

عمَّ صمت وجيز، ثم:

ـ لقد حاول اغتيالي، هل كنت تعلمين ذلك؟

ـ ماذا؟

ـ تماماً. وما الداعي لذلك؟ لأنه أدرك بأني لم أكن مختونا! لحسن الحظ قامت زوجتي الحنون في آخر لحظة بتخليصي من تلك الورطة

بعد أن قطعت بواسطة صوان غُرْلة ابني. في هذه الظروف، بالنظر إلى مزاجه الغضوب والمتقلب على الأقل، تدركين أنه لم يخطر ببالي أن أطرح عليه أسئلة تخص سارة أو إبراهيم!

ـ وفيما بعد، على جبل سيناء؟

ـ ولا هناك لم أره أبداً. كان النور باهراً، لا يحتمل. كان لا بد لي من أن أبقي عيني مغلقتين طول الوقت الذي أملا فيه عليَّ وصاياه. لم يكن في وسعي التصرف بغير ذلك. وكل ذلك لأي غرض؟ لمن؟ لأجل إخوان لم يكفوا عن الإلحاح علي بمطالب أثناء الرحلة بأكملها، إلى حد إغراقي في أسوأ سورة غضب. كان ينبغي لي الشك في أي صنف هم من البشر حينما جاهرتهم في المرة الأولى ولم يشاؤوا الإنصات إلي حتى النهاية. ولم يفضل لهم سوى نعتي بالمجنون.

ـ ليس من السهل جداً أن نسترعي انتباه أكثر من ستمائة ألف رجل، فضلاً عن النساء والأطفال، لاحظت كلاريسا. إذن أكثر من مليون أذن.

ـ أكثر من مليون؟ أين عثرت على هذا الرقم؟ تقصدين أنني انطلقت وأنا أجر ورائي أكثر من ثلثي الساكنة المصرية؟

ـ إذن، الكتاب المقدس...

ـ لستُ في حاجة إلى قراءة الكتاب المقدس! لقد عاينت الحكاية. لم يتجاوز عددنا أبداً أربعين ألف. ثم، فكري قليلاً، ما كان لمثل هذا الحدث أن يمر دون أن تسجل آثاره في الحوليات المصرية. لقد كان هؤلاء الناس مهووسون بتدوين كل شيء، يوماً عن يوم، كل وقائع المملكة دون استثناء. لو كان الأمر كذلك، ما استطعتُ إتمام مهمتي على الإطلاق. لا فكرة لديك عن مزاج هذا الشعب. مبلبل،

يحمل هلع الدنيا فوق كتفيه ودائم السؤال على الشفتين: «لماذا؟ كيف؟ من؟ أين؟». وفوق هذا وذاك عنيد ومتفاخر.

توقف لحظة:

ـ إن حقق امرؤ، كانت مجادلة فرعون أسهل من مجادلة بني جلدتي.

ـ ليس في ذلك ما يدعو للاستغراب. لقد أرهبته بعد أن سلطت على مصر كل المصائب.

ضحكة مجلجلة عقبت ملاحظة السيدة العجوز.

ـ أرهبته، فرعون؟ إنك تمزحين! كان أقرب إلي من أخي. لا تنسي أني كبرت في كنفه، وعملت عنده، ورافقته سنوات طوال. لا أظن أني أجانب الصواب إذا قلتُ بأن هذه العاطفة كانت متبادلة. صحيح أنه لم يكن ينظر بعين الرضا إلى رحيل يد عاملة لم تكلفه شيئاً، أو سوى القليل. لقد كافحتُ بشدة.

ـ لكنه رغم ذلك رجع عن قراراه، بما أنه أطلق عربات جنده لتعقبك.

ـ صحيح. في رأيي، لا بد أنه استسلم لتأثير محيطه. كان العبرانيون محل كراهية. البعض كان يفضل أن يرانا أمواتاً على أن يرانا أحراراً.

شد على رأسه بيديه.

ـ كم كانت المهمة شاقة وكم كان إخواني بلا رحمة تجاهي، ومتطلبين! ما إن وطأنا سيناء حتى ارتفعت الشكاوى من كل الجهات. بل تجرؤوا على أن جاهروني بوقاحة: «لو أننا متنا على يد يهوه [الرّب] في بلاد مصر، عندما كنا نجلس جانب قدر اللحم وكنا نأكل

الخبز حتى نشبع! بالتأكيد لقد جزت بنا إلى هذا القفر لقتلنا من شدة الجوع». وعقب ذلك: «آه! يا لها من ذكرى! السمك الذي كنا نأكله في مصر دون مقابل، والقثاء، والبطّيخ، والبقل، والبصل والثوم!» أو أيضاً: «فليكن لنا رئيس ولنرجع إلى مصر». وإني أعفيكم من واقعة العجل الذهبي... لقد خانني الجميع، حتى أخي.

انتصب وفي العين غيظ:

ـ *يجب أن أقدم لكم اعترافا. اعتراف رهيب.*

أصاخت كلاريسا السمع:

ـ *لشدة تذمري منهم فقد عرضت بعضهم للإبادة حينما لم يكن لدينا بد من مواجهة عماليق في رفيديم.*

برّقت الروائية عينيها.

ـ *أوه! لا تجزعي، لم أقتلهم بيدي هاتين. أنا لست قاتلاً. لم أقتل سوى رجل واحد، ذلك المصري الذي كان يضرب عبرانياً من إخوتي».*

ـ مهما يكن، كيف ذلك؟

ـ *تصوري، أنني لأسباب أجهلها، حينما كنت أرفع ذراعي نحو السماء كان العبرانيون يتقدمون على العدو، وإن أنزلتهما، يحدث العكس.*

ـ ثم؟

أشاح موسى بنظره.

ـ *أعترف بأنه حدث لي إنزال ذراعيّ أكثر من مرة.*

ـ عن قصد؟

أمّن على كلامها.

ـ *إلى حد أن أخي هارون وصديقي حور فطنا للأمر حيث أجبراني على رفع ذراعيّ حتى النصر.*

ـ كم هو أمر حقير!

ما إن نطقت السيدة العجوز بتلك العبارة حتى أومأت بالتماس العذر.

ـ *لا داعي للاعتذار مسز غراي. أنت محقة. إنه أمر حقير. ومع ذلك، لو أنك سعيتِ مثلي، حد الاستنزاف، لتخليص هؤلاء الناس رغماً عنهم، كنتِ ستفهمين القصد. إن الحفيظة والغضب اللذان استبدا بي لا يضاهيان في شيء حفيظة وغضب الرب. أربعة وعشرون ألف! لقد قتل من بيننا أربعة وعشرين ألف لأنهم ارتكبوا الفاحشة مع بنات مُوآب اللاتي استدرجتهم لعبادة آلهة أخرى غيره. آه! يا لعدد المرات التي صليتُ فيها، صليتُ حتى أدميتُ قلبي، كي لا يفنيهم، لشدة ما كان غاضباً عليهم! لقد رغبت حقاً أن أتنحى جانباً وأتركهم يواجهون مصيرهم. لكن ذلك كان من المحال. كان هناك صوت، داخل رأسي، يستصرخني بأن علي المضي إلى نهاية المطاف. بات من المحال مقاومة ذلك النداء.*

وظل الصمت مقيماً دقائق معدودة.

ـ ماذا لو تحدثنا مجدداً عن مقتل الملائكة؟ لقد ألمحت منذ لحظات إلى أن العديد من الأشخاص كان لديهم أسباب لينحوا عليهم باللائمة. هل تظن أن واحداً على الأقل من بينهم يمتلك ما يكفي من القدرة للتحكم في الموت؟ أذكرك بأن الملائكة خلقوا خالدين.

أجاب دون ذرة من التردد:

ـ لا أحد. لا أعرف أحداً له مثل تلك القدرة الخارقة ولا أنا. والدليل على ذلك: لم أستطع منع نفسي من الموت.

تدخل موركار لوضع السؤال الذي كان يحرق شفتيه منذ البداية:

ـ أعذرني، لكن يبدو أنك تقول لنا بأن قدرتك كانت بالجملة قدرة رجل يشبه الآخرين. لكن، الواجب أنها قدرة هائلة بما أنها سمحت لك بشق مياه البحر الأحمر!

ـ تقصد بحديثك بحر القصب؟

أكد الفتى الشاب قوله.

ـ لا صلة لذلك إذن بالبحر الأحمر. لو كنت تعلم حقاً جغرافيتك، لعرفت بأن لا وجود لأدنى قشة قصب على شواطئ البحر الأحمر. وبخلاف ذلك، فإنها موجودة بكثرة شمال السويس، ناحية البحيرات المرة وبحيرة التمساح والمنزلة. في وقتي، لم تكن تلك المنطقة سوى امتداد من المياه كنا نطلق عليها اسم «السوداء الكبرى». كان الجزء الأسفل من هذا البحر يشكل قناة. وإلى هذا المكان ـ المعروف باسم بحر القصب ـ عبرنا. اليوم، تم تجفيفه بالكامل.

ـ لكن كيف فعلت لعبور القناة؟ سأله موركار. أظن أنها كانت عميقة بما فيه الكفاية.

ـ كان هناك معبر، بالكاد يبلغ عرضه ستة أذرع وطوله مائة أذرع تقريباً. كان لا ينبغي على الأخص الابتعاد عنه وإلا هوى المرء إلى القعر؛ خاصة الأطفال. كنت أعرف جيداً المكان لأني قمتُ بأشغال استكشاف هناك صحبة معماريين لدى فرعون حينما كنت في خدمته. كنا نعتزم إصلاح القناة القديمة التي شيدت من ذي قبل بعشرة قرون، إبان حكم نيخاو الثاني، التي كانت تربط البحيرات المرة بالبحر الأحمر.

مرر كفه على طول لحيته:

ـ وبالرغم من كل شيء، لقد أسعفنا الحظ كثيراً وكنا ـ لا يأخذكم شك في ذلك ـ في حمى الرب. ولما انبلج الصبح، واندفع خلفنا الجنود المصريون الذين كانوا يتعقبوننا في بحر القصب، حدثت المعجزة. ريح شديدة، أتت من الجنوب، هبت بغتة على القناة، ورفعت أمواجاً عاتية كنست خلال بضع دقائق معظم العربات والجند المشاة الذين كانوا عند منتصف القناة. أجل. المؤكد أن الرب كان إلى جانبنا.

بدا كأنه يستمد زفرة ثم استرسل:

ـ وكل ذلك لأنتهي وحيداً.

ـ وحيد؟.

ـ أجل. حادثة أخيرة أفاضت الكأس. عشية الوصول إلى الغاية، وبمبرر أني ضربت الصخرة بالعصا مرتين كي يتفجر منها الماء، وللتدقيق، ضربتها ولم ألامسها، وجدتني مُداناً من طرف الرب بأن لا أطأ بلاد الكنعانيين. بعد تلك المعاناة، وكل تلك الأهوال التي قاسيتها... تمت معاقبتي عن حركة انزعاج بسيطة. وفي هذه اللحظة تخليت عن كل شيء.

ـ أوَ رحلت؟

ـ لقد تحملت فوق طاقتي. تعذبت بشدة. على الأخص منذ حادثة العجل الذهبي. هجرتهم وهِمت على وجهي طويلاً حد النَّصَب، حد أن صرت بعيداً عن الهرج والمنازعة. لقد أكملت مهمتي. لم يعد لي ما أترقبه لا من الرب ـ ذلك الرَّب الغيور والذي لا تأخذه شفقة ـ ولا من الناس. أوقدت ناراً ونمتُ. لم أفكر سوى في وجه أمي. أعدت رسم قسماتها على ضوء النجوم. إني ما زلتُ أذكره. عهدت بنت

الفرعون بي إليها لأنها كانت تريد مرضعة، وانتزِعْتُ منها سريعا. كانت تلك ميتتي الأولى. ومقارنة به، فإن ذلك الذي كان ينتظرني صار تافهاً. لقد قمت بعَدِّ الكواكب وانصهرت في سماء ديجور وترقبتُ النهاية. بنفاد صبر.

ثم أمسك عن الكلام وكأنه أهذر في كلامه، وتجاوز عفة نفسه، ثم ختم قائلاً:

ـ الآن، مسز غراي، أودعكم، لكنني على استعداد للعودة إن كانت لكم بي حاجة، مع أني لا أرى لذلك أية منفعة. وداعاً، مسز غراي. أو إلى اللقاء.

ما كادت الشاشة تسترد مظهرها المعتاد حتى صاحت الروائية:

ـ لقد كذب!

استفسرها موركار بنظرة منه.

ـ أجل، حينما صرح بأنه لم يتعامل مع الملائكة مطلقاً في حياته. لقد كذب.

بحثت عن فقرة من الإنجيل، وبعد أن وجدتها، دفعت الكتاب نحو الرجل الشاب:

ـ إقرأ! سفر الخروج، الإصحاح الثالث، الآية الثانية:

ـ «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار وسط علّيق».

رفع موركار رأسه:

ـ لا أتفق معك. أقول بالأحرى أن الجملة أدعى إلى اللبس، إذ بعد ذلك نقرأ: «وناداه الرب من بين العليق». في رأيي، الملاك والرب هما شخص واحد ووحيد. ليست تلك المرة الأولى في الكتاب المقدس حيث تدل الكلمات على معنى مغاير للذي يراد لها.

تذكري ما بيَّنه لنا السيد باكوفيا. ألم يؤكد على غياب انسجام النصوص؟ خذي مثلاً قصة يعقوب في كتاب الملوك، إذ كُتِب: «فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ. وَصَارَعَهُ شخص حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْر». هذا الشخص أكان هو الرَّب نفسه؟ ملاك؟ إنسان؟ وفق بعض المفسرين، فإنه قد يكون الرب نفسه، إذ عقب هذه المصارعة، فإن ذلك «الشخص» أخبر يعقوب: «لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدتَ مع الرب وقدرت».

حدجته كلاريسا غير مصدقة:

ـ أخبرني يا موركار، منذ متى لك كل هذه المعرفة بأمور الإنجيل؟

وتردد الفتى الشاب لحظة لا يدركها الحس:

ـ لقد... لقد حفظت فحسب ما قاله لنا السيد باكوفيا.

ـ إني أتذكره كذلك. لكن باكوفيا لم يحدد موقع هذه الفقرة، وأقل من ذلك، كتاب الملوك!

ـ لقد تحققت من الأمر، هذا كل ما هنالك.

حدقت فيه الروائية بإمعان:

ـ تحققتَ...

هزت كتفيها:

ـ يكفي ذلك بالنسبة لليوم. لقد استنزفتُ. سوف نواصل غداً.

غادرت المقعد وهي تغمغم بشيء لم يدركه موركار.

٢١

ـ المفتش ستيوارت؟

ـ هو بنفسه.

ـ اسمي مسز موراي. آمل أن لا أكون قد أيقظتك من النوم. هنا، الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر.

ـ لا، إني احتسي فنجاني الثاني من القهوة.

ـ ماذا حدث هناك؟ أنا ميتة من شدة الحيرة. لم يحدث مكروه لوالدَيَّ؟

ـ كلا، كلا. اطمئني. كل شيء على ما يرام.

كاد يذكر مرض جانيت. بعد كل شيء، إنها أمها. لكن ما النفع الذي سيجنيه من إزعاج تلك المرأة التي تبعد بآلاف الأميال عن اسكتلندا؟ استرسل:

ـ لكن بالمقابل، إن البروفسور ماكلين هو من ينشغل للأمر. لا خبر لديه عنك منذ وصولك إلى البربادوس وليس لديه عنوانك. وقد تعهدت بالعثور عليك.

ـ أنت تعرف إذن أبي؟

ـ لدينا صديقة مشتركة: مسز غراي.

ـ فهمتُ.

تردد صدى ضحكة خفية في السماعة:

ـ إنها المرة الأولى التي ينشغل فيها أبي جراء صمتي. لم يسبق له مطلقاً أن قلق كثيراً بشأننا في الماضي. لكن لا يهم! أخبره أن كل شيء على ما يرام وبأننا سوف نعود بعد غد إلى إدنبره...

ـ نعود؟

ـ أي نعم... ألم يخبرك وليام بأني رفقة ابني؟

شعر ستيوارت بأنه يتهاوى. تمتم:

ـ موركار؟

ـ أجل، بالطبع.

ـ *موركار برفقتك؟ في البربادوس؟*

شعر بنبرة انزعاج في صوت مخاطبته:

ـ ماذا هناك، أيها المفتش؟ لماذا هذا الإصرار؟ أكرر لك أني حقاً صحبة ابني. هل تريد أن تكلمه؟

مسح ستيوارت حبة عرق لمعت على جبينه:

ـ لا، لا. أنا...

أسقط في يده.

ـ هل أنت موقن بأنك لا تخفي عني شيئا؟

ـ لا، مسز موراي! لا شيء. لاشيء على الإطلاق. لقد نسيت فحسب أن ابنك كان برفقتك. هذا أمر سخيف. أعذريني. كما تعلمين، إنه التعب. لدي عمل يدعو للجنون.

ـ أتصور ذلك.

توقفت لحظة قبل أن تستفسره:

ـ سوف تقوم بما يلزم لدى أبي، أليس كذلك؟

ـ لك أن تعتمدي علي. سوف أتصل به في الحال.

ـ وبلغه قبلات حفيده.

ـ سوف أحرص على ذلك. إلى اللقاء، مسز موراي.

أقفل ستيوارت السماعة.

أمسك منديلاً ورقياً ونشَّف به وجهه. كان يتصبب عرقاً.

إذا كان موركار في البربادوس مع أمه، إذن من ذاك الذي عند كلاريسا؟ توأم؟ وإلا بماذا نفسر كون البروفسور لم يفطن لشيء بتاتا؟

بسرعة! يجب إخبارها! بسرعة!

تناول هاتفه وركب رقم الروائية.

تردد في أذنه الرنين المزعج الدال على أن الخط مشغول. لعن بصوت عال وقام بمحاولة جديدة، وثالثة، وعاشرة. دون نتيجة.

تردد لثواني معدودة، فتش ملاحظاته وبيد محمومة ركب رقما آخر. بعد رنات معدودة، أجاب صوت:

ـ البروفسور ماكلين في الاستماع.

حمداً *للرب*، حدث ستيوارت نفسه. *إنه هناك!*

ـ بروفسور، معك المفتش ستيوارت. أنصت إلي، يحدث أمر غريب جداً. لقد تكلمت حالاً مع ابنتك...

ـ ابنتي؟ كيف...

ـ لقد توفقتُ في الاتصال بها بالبربادوس، بالصاند أكريس بيتش كلوب. ثم ـ استجمع أنفاسه ـ هل تعلم من يوجد برفقتها؟

ـ سوف تخبرني بذلك، على ما أظن...

ـ موركار! حفيدك! موركار.

ترددت في السماعة ضحكة متوترة خفية.

ـ هذا مسلي.

ـ أنا جاد! ينبغي لك أن تصدقني. موركار مع أمه. لم يفارقها أبداً.

ـ مهلا...، تمتم ماكلين، هل تقصد أن...

ـ أجل!

كرر وهو يبيِّن الكلمات:

ـ حفيدك مع أمه.

ـ مستحيل، بالطبع! إنه عند مسز غراي!

ـ شخص *ما* عند مسز غراي، لكن هذا «الشخص ما» ليس موركار.

ـ أنا... أنا... لكن إذن... أهو... من؟

ـ وهذا هو بالضبط سبب مكالمتي لك: أو قد يكون لموركار أخ؟ أخ مختفي، أو جرى الاعتقاد بأنه ميت؟

ـ قطعا لا، أيها المفتش! إطلاقاً!

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ كفى، من فضلك! إن إصرارك سخيف! هل حاولت الاتصال هاتفيا بمنزل كلاريسا؟

ـ بالطبع. لا وسيلة للاتصال بها عبر الخط. إنه مشغول على الدوام.

ـ لعلها على شبكة الأنترنت رفقة...

تردد، ثم:

ـ رفقة ذلك الشخص. ينبغي إخبارها!

ـ سوف أقوم بذلك. وسأجعلك على اطلاع.

ـ لحظة، أيها المفتش!

ـ نعم؟

ـ لا تعتقد أن كلاريسا في حالة خطر؟

اغترق ستيوارت نفساً مديداً:

ـ لا أدري. آمل أن لا يحصل ذلك.

أقفل السماعة وهرع إلى الخارج.

كان ماكلين يترنح.

موركار ليس موركار؟ إذن من يكون الآخر؟ وأية لعبة يلعبها؟ لماذا؟

لا إرادياً، ركب رقم كلاريسا. مشغول دائماً.

موركار ليس موركار...

شد على رأسه بيديه وحاول التفكير. بتؤدة، شيئاً فشيئاً، تحامل على نفسه لسلك الطريق بالمقلوب. بدأ كل شيء بقصة الجثة تلك التي عُثِر عليها عند كلاريسا. ثم كانت هناك تلك المفكرة المشَفَّرة، من توقيع شخص يزعم أنه الملاك الرئيس جبرائيل. وعقب ذلك في تسلسل يصيب بالجنون مرض جانيت، مقتل باكوفيا وشلونسكي. ويهيمن على كل هذه المجموعة ذلكما العددين الغريبين: ١٩ و٠,٨٠٩.

التوأم في ٠,٨٠٩...

التوأم! شعر ماكلين بأنه يتهاوى.

لم يصدّق حقاً هذا النص بالمطلق. ليس تماماً. من المؤكد، بالنسبة لرجل عالِم، أنه كان يعتبر أن لديه عقلاً متفتحاً أكثر من أغلب زملائه. لكن مهما يكن: يوميات حميمة بخط يد الملاك الأعظم جبرائيل...

شيء ما يخبرني بأني إذا نجحت في التعرف على الجاني، فقد يتم تحييده، ومن ثمة يبطل نفوذه على جانيت.

ماذا لو كانت كلاريسا محقة؟

أليست كل هذه الحكاية خارقة للطبيعة؟ بالتالي لماذا الإصرار على النظر إلى مصير جانيت بطريقة ديكارتية؟ إن كانت هناك ذرة أمل في أن تنجح مسز غراي في تحديد هوية المسؤول عن هذه المآسي، لا أنت ولا أنا قادران على التنبؤ بالعواقب التي قد تنجم عن ذلك...

ماذا لو كانت كاتلين على صواب؟

ابتلعت كلاريسا ملعقتها الأخيرة من عصيدة الشوفان وقامت من مكانها.

ـ ألا تستطيعين انتظاري؟ احتج موركار، لم أفرغ بعد.

ـ الوقت يستعجلنا. ستلحق بي.

ـ بكل تأكيد، إنك لا تقهرين.

عبرت الممر بخطى خفيفة وانصرفت إلى الطاولة حيث وُضع الحاسوب. بعد أن ضغطت على القاطع، دارت على عقبها واتجهت صوب الهاتف.

ـ هل غيرت رأيك؟ سألها موركار الذي سار على إثرها.

ـ كلا. أريد الاستخبار عن جانيت. أنا قلقة.

ـ إنها بخير، عاجل الفتى الشاب مجيبا. أقصد أن حالتها مستقرة.

قطبت الروائية حاجبيها:

ـ ماذا؟ وكيف علمت بذلك؟

ـ كلمتُ كاتلين مساء البارحة، بينما كنتِ نائمة. لقد زارت المسز ماكلين. كل شيء على ما يرام.

أومأت كلاريسا برأسها مرات علامة على العتاب:

ـ كان ينبغي عليك إخباري مهما يكن!

ـ لكن متى؟ احتج موركار. كنتِ نائمة.

ـ لقد تناولنا فطورنا منذ لحظة، حسب علمي!

رفعت عينيها إلى السماء باستياء وانصرفت من جديد نحو الحاسوب.

ثواني معدودة عقب ذلك، ظهرت ساميل على الشاشة.

ـ سوف نضع حداً لهذه الاستنطاقات، أخبرتها السيدة العجوز. هل يمكن لي الحديث مع ـ زلّت في الكلمة ـ المشتبه به الأخير؟

ـ *ابن آمنة*؟

ـ محمد، أجل.

انسحبت ساميل.

ـ *السلام عليكم*، صاح في الحال صوت أجش.

لم تدر كلاريسا بما سوف تجيب. كانت الشاشة خاوية.

ـ *السلام عليكم*، كرر الصوت.

همس موركار في أذن الروائية:

ـ أجيبيه: «وعليكم السلام».

امتثلت، وهي مرتابة.

ـ *أشعر بأنك مضطربة، مسز كلاريسا غراي. لا ينبغي ذلك. لو كان مقدراً بأنك ستجدين ذلك القاتل، فسوف تجدينه. وإلا ، فإنها لم تكن تلك إرادته سبحانه وتعالى.*

سألته السيدة العجوز بحذر:

ـ لماذا لا تظهر وجهك؟

ـ *لأني لا أرى لذلك فائدة. المهم هي الكلمات، وليست الصور. وحدها الكلمات ما يمتلك السلطان؛ كل السلطان. أو لم يبين الرحيم ـ تبارك اسمه ـ* ذلك حينما أملى علي الوحي؟

ـ *بالتأكيد.*

ـ *والآن، ماذا يسعني فعله لمساعدتك؟*

ـ الرد على بعض الأسئلة، مثلما قام بذلك من سبقك، يسوع وموسى. هل كانت لك علاقة بالملائكة الذين ماتوا؟

ـ *بإدريس، فحسب. من تسمونه جبرائيل. كنتُ أكن له الكثير من الاحترام.*

ـ والآخرين؟

ـ *كلا. كان يحدث لي أن أصادفهم، لكن هذا كل ما في الأمر. أقر أني أصبت بالدهشة حينما اكتشفت أن هناك نساء من بينهم.*

ـ لا تقدر النساء؟

ـ *سؤال غريب، مسز غراي. بالطبع أقدرهن. بل إني أحس تجاههن بنوع من الإجلال. لماذا في رأيك أمر سبحانه وتعالى أن لا تخرجن إلا وهن محتجبات؟ لأنهن في نظره محرمات. ما هو محرم ينبغي حمايته من الأنظار حتى لا يدنس. هناك أسباب أخرى.*

ـ هلا قلت لي ما هي؟

ـ بالتأكيد. لكن لفهم قصدي جيدا، عليك القيام بمجهود والعودة إلى ما يقارب ألف وأربعمائة سنة إلى الوراء في صحراء الجزيرة العربية. كانت الحياة شاقة. والجسد ضعيف. وللشمس هبة تهييج رغبة الرجل. والرجل الذي يتعاطى للفحش يفقد همته للحرب، ولا يصلح لشيء. بيد أن الظروف كانت صعبة، كنا محاصرين من كل الجهات وكان لا بد لنا من محاربة ومقاومة الكفار. كيف تريدين لرجل أن يقاوم الغواية حينما تهادى امرأة أمام ناظريه وجهها سافر والجسد عاري ولو قليلاً؟ إذا كانت حسناء ـ ونساؤنا هن كذلك ـ، سوف يقوم بكل ما في وسعه للحصول عليها. وسيحصل عليها، لأن ذلك قانون الأقوى، والتخلي عنها حالما يقضي وطره منها. بوساطة الحجاب، وضع الخالق العليم بكل شيء حداً للغواية. وقد أكد: «و ليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله». هل ترين؟ بحكمته الأزلية، فقد أراد أيضاً أن يكبح جماح الحمية البهيمية عند الرجل.

ـ لكن، إنك تغض الطرف عن تفصيل: وإذا كانت تلك رغبة المرأة الصادقة في التجول بوجه سافر؟ وإذا كانت سعادتها تكمن في إظهار مفاتنها، في الإغراء؟ هل لدينا الحق في منعها من هذا الاختيار؟

عم الصمت، ثم:

ـ بما أنها إرادة الله.

عم الصمت من جديد. استرسل:

ـ أشعر بأنك مرتابة. هل تعتقدين بأن عالمك أفضل؟ أنظري حولك، تفشي الفجور وانعدام الأخلاق. رجال بلباس النساء، ونساء تستعرضن مفاتنهن، وتهبن أنفسهن للمبادر، دون حياء ولا خجل،

وفوق كل ذلك، هناك تلك الصور الفاضحة التي تخدش أنظار الأطفال. إني لا أطيق ذلك. آسف على قول ذلك، لكنكم دخلتم عهد الانحطاط، مسز غراي. هذا أمر مفجع.

- ذلك وارد. لكن، أعيد على مسامعك: لدينا الاختيار.

استشاط غضباً:

- *لكن كفوا إذن عن ترديد اللازمة نفسها بخصوص قضية الاختيار تلك! المرأة ضعيفة، سهلٌ قهرها. إنها في حاجة للقيد. دون قيد، إنها تضل في سبل الضياع.*

- إنك قاسي على الجنس اللطيف.

قهقهَ:

- *قاسي؟ من الجلي أنك لا تعرفين شيئاً عن الوحي. لقد سبق القول: «والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة».*

- أجل. لكني سجلت أيضاً في موضع ما - فتحت القرآن على واحدة من الصفحات الموسومة بعلامة - أنه قيل: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض». وأيضاً: «واللائي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن».

غضنت السيدة العجوز جبينها:

- ضرب النساء؟ هل ترى أن ذلك يستحق التقدير وفيه إنصاف؟

أجاب بحزم:

- *بما أن تلك إرادة الله. بما أن ذلك مكتوب.*

- وفي حال الإرث، يعطى للذكر مثل حظ الأنثيين، أليس ذلك برهان على التمييز؟

ـ *بما أن ذلك مكتوب.*

ـ ورجم المرأة الزانية؟

ـ *بما أن ذلك مكتوب.*

ـ وقطع يد السارق؟

ـ بما أنها إرادة الله.

نحنحت كلاريسا جرعة من حلقها.

كان من غير المجدي الاستمرار في ذلك النهج. لم يكن لها أي حظ للفوز.

ـ لو سمحت لي، تابعت، سأوجه لك السؤال نفسه الذي طرحته على سابقيك: في نظرك، من في محيطكم يمتلك ما يكفي من القدرة لاغتيال الملائكة؟

انطلق الجواب بحزم:

ـ *لا أرى سوى شخص واحد: إلياس.*

ـ إيليا؟ النبي؟

ـ *الأعظم من بيننا جميعا. ألم يحيي ابن الأرملة حينما كان يقيم في صرفة؟ ألم يات بالمعجزات كي يفحم أنبياء بعل؟ ألم يصبَّ على الوثنيين نار الله؟ ألم يضرب بردائه مياه نهر الأردن حتى انفلقت وفتحت له الطريق؟* والأهم من ذلك: *هو الوحيد من بيننا من استطاع قهر الموت بصعوده إلى السماء في عربة تجرها خيول من نار. أجل. في الحقيقة، وحده إلياس من يمتلك هذه القدرة.*

تجاسر موركار على إبداء ملاحظة:

ـ موسى بدوره قام بمعجزات. ويسوع، ألم يبعث حياً؟

أصر محمد:

ـ *موسى وعيسى نبيان عظيمان. لكن إلياس هو الأعظم.*

تصفحت كلاريسا ملاحظاتها لبعض الوقت قبل أن تستفسر:

ـ لقد ألمحت إلى أنك كنتَ مقرباً جداً من جبرائيل. في لحظة من اللحظات، هل تقاسم معك شكوكه؟

ـ *الحق أقول، كان يشك في الجميع. حتى في أنا.*

ـ وما السبب؟

ـ *لا أدري. أظن أنه لم يكن يتحمل خصوماتي الدائمة مع شاول، قديسكم بولس. لم يكف هذا الشخص الكريه عن الصراخ على المسامع بأني كنتُ منتحلاً.*

ـ منتحل؟

ـ *كان يقذف في وجهي على الدوام تضحية إسماعيل. ويعلن بأني حرفت الحقيقة حينما قلت بأن الله لم يأمر بذبح إسحاق من إبراهيم، بل بذبح إسماعيل.*

سعلت كلاريسا:

ـ اسمح لي بأن أثير انتباهك أن تضحية إسحاق وردت في التوراة بأكثر من ألفي عام قبل أن ينزل عليك... الوحي.

ـ *كانت تلك غلطة. وقد تم تداركها.*

ـ غلطة؟

انبثقت صرخة استياء من مكبرات صوت الشاشة:

ـ *كوني حذرة، مسز غراي. لا تفرطي في صبري عليك. إن قلتُ*

لك بأنه لم يكن إسحاق، وإنما إسماعيل، ينبغي أن تصدقيني. ذلك مكتوب!

وتابع بالزخم نفسه:

ـ ثم لم تكن هناك سوى تلك القضية التي أخالف فيها شاول. لقد كان يتهمني بأني أمضيت حياتي على هذه الأرض في الدعوة إلى العنف.

ـ أو ليس ذلك مشروعا؟ ألستَ الداعي إلى الجهاد؟

ـ مرة أخرى، ألتمس منك العودة إلى العصر الذي وقعت فيه الأحداث. كنتُ محاصراً من كل الجهات. يضايقني حتى أفراد من قبيلتي. كان المكيون يودون مقتلي. وكان لا بد لي من الهجرة إلى المدينة. بيد أن من اعتدى علي فقد اعتدى على الله، تبارك اسمه. إذ قال: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض». لقد تم الاعتداء على رسوله سبحانه وتعالى. كيف إذن لا توصف حربي بالجهاد؟ كان لا بد لي من الدفاع عن نفسي!

عم صمت وجيز قطعه موركار:

ـ لا أعرف إن كنت تعلم ذلك، لكن فكرتك استمرت إلى أيامنا هذه. إن خَلَفك يَقتلون باسم الرب.

ـ إنهم حمير! ثم إنهم لا يقتلون أبرياء فحسب، بل يقتلون بعضهم. مسلمون يريقون دماء مسلمين.

ـ لكن، ألم تشجع ذلك؟ قال موركار محتجا. الجهاد واحد من ابتكاراتك، أليس كذلك؟

ـ إنك تجدِّف، يا بني. ذلك كلام ملفَّق. إن الكلمات التي أنطقني

بها سبحانه وتعالى تشهد على ذلك: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم». وقد بيّن بحق: «بمثل ما اعتدى عليكم». وذلك فرق جوهري.

ـ اعترف بأنه يترك الباب مشرعا لكل التأويلات.

ـ اعلم، يا صغير أن هناك نوعان من الرجال، من يحرفون الكتابات المقدسة وفق أهوائهم، ومن يأخذون أفضل ما فيها. لا دخل لله إن كان بني البشر لا ينهلون إلا أسوأ ما فيها. من جهة ثانية، اعلم أن الجهاد هو مقاومة المؤمن لأهواء وميول النفس الأمارة بالسوء. إن كانوا قد شوهوا الكلام المقدس، فتلك مشكلتهم. وسوف يجازون على ذلك يوم الحساب.

قررت كلاريسا التدخل.

ـ هل تسمح لي بأن أطرح عليك سؤالاً يؤرقني؟

ـ سوف أحاول الرد عليه.

ـ كن حليماً معي، ليس لدي معرفة عن قرب بالقرآن. لقد ألقيت عليه نظرة سريعة. لكن، شيئاً ما أثارني. لقد علّمتُ، هنا وهنا، هاتين الآيتين (لبست نظارتيها ثم قرأت): «آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون».

رفعت رأسها:

ـ هل هذا صحيح؟

ـ مطلقاً.

ـ في هذه الحال، كيف تفسر العنف، بل السُّعار الذي نشعر

بانبثاقه في مقاطع أخرى إزاء المسيحيين وعلى الأخص اليهود؟ لن آخذ كمثال سوى هذه الآية:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم». لماذا هذا الانقلاب؟

ـ *سوف أجيبك. يكمن التفسير في الخيانة. لقد خانوني! حينما كان لا بد لي من الفرار إلى المدينة، كان اليهود يمثلون نصف ساكنة المدينة. عقدنا معاهدة تلزم بوضوح كل طرف بالسماح للأخر بحرية العقيدة والنصر في حال الحرب. حينما هاجمني رجال أبو سفيان وكان عددهم أربعة ألف رجل، انقلب علي يهود بني قريظة، ونسوا المعاهدة وطعنوني في الظهر.*

توقف لحظة:

ـ لكن هؤلاء المنافقين أدوا ثمن خيانتهم بدمائهم.

ـ كيف؟

ـ *قطعت رؤوس كل رجال القبيلة. وبيعت نساؤهم وأطفالهم بصفتهم عبيداً. ألم يرد القول: «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم».*

لم تعرف كلاريسا بأي شيء تجيب. كان صوت يهمس لها بأن من الأفضل لها أن تحتفظ لنفسها بانتقاداتها رغما عنها.

كانت تتأهب للعودة إلى جرائم القتل، حينما استرسل محمد:

ـ *سوف أبوح لك بسر عظيم، مسز غراي. لكن أودعيه أغوار سريرتك ولا تفشينه. في مكة، كنت محاطاً بيهود ونصارى. نشأتُ بينهم. إن بَحيرة، وهو قس نصراني، كان أول من بشرني ببعثتي النبوية. في المساء، داخل الخيام، كنتُ أنصت لأهل الكتاب وهم*

يتحدثون عن معتقدهم. كنتُ أسمع وأستوعب قصصهم، وفي الوقت نفسه، كنت أرى بأنهم يحقرون بعضهم. كل واحد كان لديه تأويله للوقائع، كل واحد يدعو لحقيقته، وهو متيقن بأنها كانت الحقيقة الوحيدة والمطلقة. وعليه، ذات يوم، حينما سندتُ للأربعين، استسلمتُ للحلم بدين عظيم يجمع الأديان الثلاثة بالنهل من أفضل ما في هذا الدين وذاك. كان يخيل إلي بأنه سوف يستوعب البسيطة بأكملها ويضع حداً للخلافات. كنت أريد أن يكون الإسلام خاتم المسيحية واليهودية. لقد فشلتُ، واحسرتاه. لم يفهموا شيئاً، لا قومي ولا الآخرين.

توقف ثم ختم قائلاً:

ـ لقد شرعت لك قلبي، مسز غراي. يسعني الظن بأنك لن تسيئين استعمال اعترافي. الوداع. أو إلى اللقاء، مسز غراي.

لم يلحظ ستيوارت إشارة الضوء الأحمر. أو إن رآها، فإنه لم يأخذها في الحسبان. على أي، نظراً للسرعة التي كان يقود بها، كان يستحيل عليه الفرملة في الوقت المطلوب.

حينما اصطدمت سيارته بال BMW، شعر بأنه يقذف إلى الأمام مثل عود من القش. وفي استعجاله، لم يدر بخلده ربط حزام السلامة.

آخر صورة خطرت بباله كانت صورة موركار.

٢٢

فرغ البروفسور ماكلين من حشو غليونه وهو يجيب كاتلين:

ـ كلا. لقد قال ستيوارت الحقيقة بصدق. تصوري أني في غضون ذلك اتصلت هاتفياً بابنتي وأكدت لي بأن موركار كان معها. وأسارع للتدقيق بأني تحفظت عن إخبارها بما يحدث هنا. ما كان ترويعها سينفع في شيء. ثم، بمَ يسعني إخبارها؟ بأن موركار كان له شبيه؟

لم تحر كاتلين جوابا. منذ أن التمس منها ماكلين القدوم إلى مكتبه بغية إطلاعها على الخبر الذي لا يصدق، أحست بأنها غارقة، عاجزة عن تلمس علاماتها الهادية. بالتأكيد حاولت إخفاء ألمها ـ إذ إن الأمر يتعلق حقاً بألم ـ بأن تردد على نفسها أن لا أهمية تذكر لكون الشخص الذي أغرمت به هو موركار أو أحد يشبهه. ألم يجعلها سعيدة؟ ألم يعيشا معا ساعات نادرة؟ يا للحسرة، كانت هذه الحجة تتهاوى مع التساؤلات الأولى: لأي سبب استحوذ على مكان موركار؟ ما السحر الذي يجعل شبهه كاملاً إلى حد خدع حتى جده؟ وعلى الأخص: هل تلاعب بها؟

ابتلعت ريقها بمشقة وسألت:

ـ هل حاولت الاتصال بمسز غراي؟

ـ بالطبع. لكن بلا جدوى. خطها مشغول على الدوام. مرة الآن

نصف ساعة وهاتفي يركب آليا رقمها. ثم لا خبر لدي عن المفتش ستيوارت الذي كان عليه الذهاب عندها. إني...

لم يتمم جملته. ترددت رنة تدل على وصول بريد إلكتروني.

غادر ماكلين مكتبه مسرعا وانصرف لإلقاء نظرة على الشاشة:

ـ *رسالة* من كلاريسا! أنظري!

دنت المرأة الشابة بدورها وقرأت:

من: Morc@hotmail. com

تاريخ: الخميس ٢٧ يونيو ٢٠٠٢، الساعة ١٨:٠٠

إلى: Wmacean@glasgowuniv. sc

الموضوع: بدون

مساء الخير، أو صباح الخير، ويلي،

إن صدَّقْتُ حفيدك، لسوف تتوصل بهذه الرسالة في الثواني التالية. جيد إذن. إني أتخيل مقدار التوتر الذي يحيط بك. وأشفق عليك من كل قلبي. لكن، كفى من الدموع. إني أريد إطلاعك على آخر الأخبار. لقد رأيتهم، يا ويلي، لقد رأيتهم، يا ويلي، ليس ثلاثتهم، اثنان فحسب منهم: يسوع وموسى. وقد رأى محمد بأنه من الأفضل أن يبقى في الظل، لعله الحذر أو الخشية، ربما ظن أنني بواسطة حيلة ما سأخلد وجهه في الحاسوب. لقد رأيتهم، يا وِيلي. كانوا هنا، أمام ناظري، حضورهم مثل حضور أرض اسكتلندا. لقد كلمتهم. تمت المواجهة عبر الشاشة؛ بفضل هذا الانترنت الذي طالما كلمتني عنه حد الضجر. اليوم أنا أباركه. لقد استنطقتهم قدر المستطاع. ما المعمول؟ إن الواجد منا لا يتاح له كل يوم اللقاء بشخصيات أسطورية. إن ما أدهشني أكثر هو استسلامهم للكلام بذلك القدر من

السلاسة. الظاهر أنهم كانوا متعطشين لرفع الكثير من اللَّبس عن أقوالهم والقدرة على شرح مواقفهم. وأنا، الفانية المسكينة، سقطتُ في الفخ الذي نصبوه لي. ولأني كنت قاصرة أمام كل ما اكتشفته ـ ولو أنك مكاني لقصرت مقداري ـ لم أجد السبيل لطرح الأسئلة الحقيقية. كنت أتمنى بسذاجة طبعاً أن تتاح لي إمكانية انتزاع بعض الاعترافات منهم. لكن كيف نحاصر رجالا من هذا الوزن؟ كيف نقاوم اغراء اعترافاتهم. لأن الأمر يتعلق حقاً باعترافات. منذ ثمانية وأربعين ساعة، فكرتُ مليًا. لقد شرَّحت أقوالهم، وتحولتُ من روائية إلى طبيب شرعي. ويتلخص التشريح في بضع كلمات. *لقد فشلوا في كل شيء على طول الخط*. ثلاثتهم كلهم. وهذه ليست ملاحظة ذاتية. كلا، وِيلي، إنها تستند إلى ما أسروا به. وسأذكر فكرتين لموسى: «كل ذلك لأنتهي وحيدا» و: «ترقبتُ النهاية بنفاد صبر». وهناك فكرة أخرى ليسوع: «حياتي كلها، ومماتي لم يكونا إلا سوء فهم مريع. لم أرغب في شيء». وأخيراً فكرة محمد: «لقد فشلت، واحسرتاه! لم يفهموا شيئاً. لا قومي ولا الآخرين». سوف تظن أني متسرعة جداً في استنتاجاتي: أنا متيقنة بأن جبرائيل جانب الصواب. من المحتمل أني أنقاد خلف غريزتي كأنثى، لكني لا أعتقد بأنهم مذنبون. إن شخصيات بتلك الحيوية التي تعترف بذلك القدر من الصراحة ودون قيد خارجي بفشلها لا يمكن اعتبارها مثل مجرمين أجلاف. آه، ليسوا أبرياء، بكل تأكيد، لكن أن يلصق بهم تبعا لذلك انحراف قاتل بالجملة، فذلك بون شاسع أرفض تجاوزه.

إذا كانوا غير متورطين، يبقى السؤال: من؟

أستطيع الجواب بأن الغموض يستمر بالكامل؛ لكن كلا. إني أشعر بما هو أكثر من التخمينات تجاه شخص لم أستطع استنطاقه؛

ليس بعد. في إمكاني أن أكشف لك من الآن هويته، لكن الأمر ما زال باكرا. لا أمتلك الدليل القاطع. الذي سوف يدعم شكوكي بصفة نهائية. صدقني بأني أبحث عنه بإصرار شديد. سوف أجده. أعرف أنه محجوب في الملاحظات التي خلفها جبرائيل. أنا متأكدة، وِيلي. آه! لو أستطيع فحسب فك شفرة هذه الجملة: كل شيء سيكون في العدد ١٩ والتوأم في ٠,٨٠٩. بفضل المرحوم السيد شلونسكي، كونت فكرة تقريبية عما قد يمثله الرقم الأول. وفي الثاني يتجلى حجر الزاوية. بل إنها البداهة عينها. لكن أين يختفي؟ أنت يا من لا يضاهيه أحد خبرة في عالم الشفرات، أنت الوحيد من كان قادراً على النفاذ إلى هذه. إذ يتعلق الأمر حقاً بشفرة، لا داعي للشك في ذلك، يحكمها منطق؛ الذي شكل قاعدة لتحرير يوميات الملاك الأعظم الحميمة. على امتداد الكتابة، استعمل شفرة ماري ستيوارت. وبالتالي، لم يكن لديه أي سبب لتغيير الموقف لتحرير خلاصته بالواضح.

الآن، ينبغي أن أكون صريحة معك. إن كانت غريزتي تهمس لي بأني أمسك بالقاتل، فلا أستطيع إخبارك بيقين متى يمكنني أن أربكه. بل أذهب أبعد من ذلك: من الممكن أن لا أنجح أبداً. كن مقتنعا فحسب أني سأعمل على ذلك حتى الموت. إن ما أستشعره أخطر من ذلك بكثير، أشد جنونا من أن أستسلم. أبدا! لن أخضع أبداً.

بعد قولي هذا، هل ما زال لدي من العجب بنفسي أن أطلب منك الحفاظ على جانيت حية، بعض الشيء؟ قليلاً بعض الشيء؟ أعرف أني لا أملك الحق في ذلك. حياة زوجتك بين يديك.

مودتي كلها، ويلي. من أعماق قلبي.

صديقتك.

صاح ماكلين:

ـ إن كان في وسعها بعث هذه الرسالة الإلكترونية إلينا، ذلك يعني أن خطها الهاتفي يعمل.

عاد نحو مكتبه وركب على نحو محموم رقم الروائية. مشدود الأعصاب مثل قوس، انتظر رجْعَ الرنة المأمولة جداً على الطرف الثاني من الخط.

ـ اللعنة عليَّ! هذا لا يُصدق!

ـ مشغول من جديد؟

ـ أجل. غير معقول! بعد ثواني معدودة؟

ـ ليس غير معقول بكل ذلك القدر، ردت كاتلين. إذا كانت مسز غراي ما تزال موصولة بالنت، فمن طبيعة الحال أن يكون الخط مشغولا. إن موركار يستعمل حاسوبي المحمول وهم لا يتوفرون على ربط. خلافاً لذلك، فقد منحتنا للتو وسيلة لإخبارها. يكفينا الرد على رسالتها الإلكترونية.

تطلب الأمر من ماكلين ثواني معدودة قبل أن يجيب:

ـ اللعنة! صحيح.

جلس قبالة لوحة المفاتيح، لكنه توقف في الحال:

ـ لن يجدي ذلك نفعا!

ـ لماذا؟

ـ فكري! إنه عنوان موركار، وليس عنوان كلاريسا. تعلمين بأنه لوحده من يلج إلى بريده.

عضت كاتلين شفتها بتوتر:

ـ أنت على حق. ذلك غباء مني. لم أفكر في الأمر.

صار الجو خانقاً. كان ماكلين يثبت عينيه في الشاشة، دون أن يراها؛ ظلت المرأة الشابة وسط الحجرة، وكأنها استُنفِدت من كل طاقة.

كم من دقيقة مرت على هذا النحو؟

وفي الأخير، وجدت السبيل للكلام:

ـ بروفسور، ما سأقوله لك، ربما لا فائدة كبيرة من ورائه، لكن نظراً للوضع الذي نحن عليه... إنه يخص تلك الأرقام الأربعة، ٠,٨٠٩. البارحة فقط، التقيت صديقاً في قاعة الشاي الصفصاف. كان واحداً من تلامذتك، لكن لعلك لا تتذكره مطلقاً. يتعلق الأمر بجورج كامينغ.

ـ اسمه لا يذكرني بشيء.

ـ إنه أحد مجانين الرياضيات. حينما رأى العدد الذي خربشته على دفتر المخطوطات، تفاعل في الحال. كانت تلك الأرقام تذكره بشيء. لقد خطر بباله أنها ذات صلة بعالم رياضيات إيطالي، يدعى فيبوناكا أو فينوبا...

ـ فيبوناتشي. أجل. وبعد؟

ـ صباح اليوم، تحديداً قبل أن تكلمني، اتصل بي جورج هاتفيا وهو في طريقه إلى جزر المالديف ليخبرني قائلاً: *«لقد وجدتها. فعلا، كنت على صواب، جزئيا. إن رقمك ليس بغريب كليا عن متتالية فيبوناتشي. لكني سوف أقلع في غضون عشر دقائق ويلزمني عشرة أيام لأشرح لك لماذا وكيف. لكن خلافاً لذلك، ولو أنك لا تستحقين، سأضعك على الدرب: فكري في الكمال في فن المعمار. باي، باي!*

ـ ماذا؟ لا تقولي بأنه أقفل الخط؟

ـ بلى.

ـ هذا غير معقول! ألم تحاولي معاودة الاتصال به.

ـ بالطبع. لكني عثرت على علبة محموله الصوتية.

سدت كاتلين ذراعيها من الكلل.

ـ أعتقد أنه كان يحتاج للانتقام منك. لا يدري مقدار نجاحه في ذلك.

ـ والآن؟

قوَّست المرأة الشابة ظهرها قليلاً ولاذت بالصمت.

ـ الكمال في فن المعمار؟ سأل ماكلين. تلك كلماته؟

أكدت قوله.

انصرف للجلوس خلف مكتبه وضرب بقبضة يده على الطاولة:

ـ تماماً! ألستِ أنتِ من قال لي ثمانية وأربعين ساعة من ذي قبل: «ليس لأن الأشياء تبدو لنا عصية على الإدراك، فنحن لا نجرؤ: بل...، إلخ».؟

أشار بإصبعه نحو المرأة الشابة:

ـ وإذن؟ سوف تُعمِلين هذا القول المأثور!

تفرسته وهي مشدوهة:

ـ أجل، واصل ماكلين. إذا كان عزيزك جورج قد وجدها. ليس هناك من سبب بأن لا نفعل مثله! لقد ذكر فن المعمار. سوف تجهدين دماغك وتجدين الجواب. وإني سأعينك.

ـ إيجاد الجواب؟ أين؟ البحث في أي اتجاه؟ ولنتخيل بأننا وجدناه. ماذا نفعل؟

ـ نبعث رسالة إلكترونية إلى كلاريسا آملين بكل قوانا بأن لا يكون خطها معطلاً وأن تتوصل بها.

ـ وموركار؟

ـ لن نُلمع بأي إشارة تخصه. بعد كل شيء، نحن لا نعلم في أي معسكر يتخذ موركار موقعه. إذا كان ينتمي لمعسكر الأشرار، أظن بأنه سوف يكون علينا من باب الحكمة إخراجه من مخبئه، حيث أن كلاريسا لوحدها معه ودون حماية. وعلى الضد من ذلك، لدي خطتي بخصوص الحاشية.

ضم ذراعية:

ـ الآن، حدثيني عن ريني ماكينتوش.

كان العميل ويشار يشعر بأنه يتيم.

اقشعر بدنه من رؤية رئيسه ممدداً على سرير المستشفى ذاك، تخترقه الأنابيب. لم يكن الأطباء متفائلين قطعاً، وإن تمت طمأنته بأن تكوين ستيوارت الجسماني يتيح كل الآمال.

في رد فعل شبه أخوي، ضم العميل يد المفتش اليمنى. وفي الحال تقريباً، فتح هذا الأخير عينيه قليلاً واتسعت حدقتاه، وتعلقت أصابعه بأصابع ويشار، وحدَّث هذا نفسه بأن الألم، لا ريب، هو ما كان يثير رد الفعل ذاك. لكن، كلا... كان ستيوارت يواصل ضغطه.

ـ هوِّن عليك، أيها المفتش... سوف يكون كل شيء على ما يرام.

انفكت يد ستيوارت. أشار بطرف سبابته إلى اللحاف وأومأ كمن يكتب.

في البداية، ظن ويشار أنها صدفة، إيماءة آلية، لكن الحركة تواصلت بانتظام شديد لا يترك مجالاً للشك: كان المفتش يسعى إلى التواصل معه.

أخرج من جيبه مفكرة صغيرة ذات أسلاك لولبية وقلم حبر، دفع صفحة فارغة تحت يد رئيسه ثم وضع القلم بين الإبهام والسبابة.

ببطء لا نهاية له، خطَّ ستيوارت كلمة واحدة، كلمة وحيدة: *موركار*. ثم أوقع القلم.

ماذا يمكن أن يعني هذا؟

استعلم:

ـ من هو موركار، أيها المفتش؟

أصر:

ـ أتوسل إليك، أخبرني! ماذا ينبغي لي فعله؟

لكن لم يكن هناك من جواب. لقد أغمي على ستيوارت من جديد.

أخذ رذاذ يمطر على لاملاش. متلفعة بممطرتها، واصلت كلاريسا السير على طول الشاطئ، مشغولة بخواطرها، لا تدع شيئاً يشتت انتباهها، حتى الألم الذي ينخر يديها منذ اليوم السابق. ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة. كان عليها استغلال لقائها مع الأنبياء الثلاثة لتطلب منهم إتيان معجزة وتخليصها إلى الأبد من التهاب المفاصل. خاطر تافه، بما أنها كانت تعرف منذئذ أن هؤلاء الناس لم يكونوا ما تخيلته. كلما فكرت في لقاءاتها، كلما أثارها القاسم المشترك الذي يجمع الشخصيات الثلاث. لا أحد منهم رأى الرب. ولا الملائكة. إذن، هل الرب كان موجودا؟ إذا كان الجواب بنعم، لأي سبب ظل

مستتراً في الغيب؟ قد يفهم رفضه بعدم الظهور في عالم الأحياء، لكن في عالم الأموات؟

بلبلها تفصيل آخر. تقريباً بالكلمات نفسها رد الأنبياء الثلاثة بالجواب عينه حينما سألتهم عما دفعهم إلى الارتماء في مثل هذه المغامرة: «كان هنالك صوت يصرخ داخل رأسي أن لدي مهمة يجب إنجازها. من المستحيل مقاومة ذلك النداء». في هذه الظروف، كيف نتجنب وجود الرَّب؟ وإذا لم يكن هو من دفع تلك المخلوقات للفعل، إذن من؟

أضحى المطر كثيراً. عاصفة تلوح في الأفق. من الأفضل العودة. رفعت ياقة ممطرتها وسلكت طريق البيت.

عند المساء، أوت إلى فراشها في ساعة باكرة. ليس لتنام، وإنما كي تواصل إعادة قراءة ملاحظاتها المدونة. في نهاية المطاف، كانت حجرتها هي المكان الذي تفكر فيه على نحو أفضل.

حينما صحت، ظنت أن نهاية العالم قد حلَّت. أمطار طوفانية أغرقت المكان المحيط، بروق تومض في السماء فوق البحر الصاخب جراء عواصف لا نظير لقوتها.

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً.

نزلت إلى الطابق السفلي وندت عنها إيماءة بالدهشة لما رأت أن موركار سبقها. كانت تلك المرة الأولى التي استيقظ فيها على مثل هذه الساعة الباكرة.

ـ يا لها من أجواء! تعجبت وهي تلوي شدقها.

ـ أجل. إنها القيامة.

وأضاف:

ـ لقد توصلتِ برسالة من جدي ويلي. إنها بتاريخ البارحة مساء. أظن أنها لا تخلو من فائدة.

تقبض وجه الروائية:

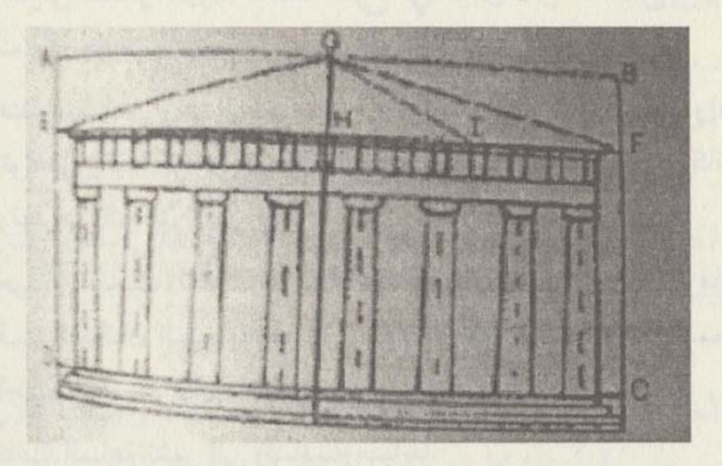
ـ جانيت؟

هزَّ رأسه:

ـ كلا.

ناولها صفحتان مطبوعتان.

وها ما اكتشفته في الوهلة الأولى:



ـ ما المغزى من هذا؟

ـ اقرئي ما يليه.

من: Wmaclean@glasgowuniv. sc

تاريخ: الجمعة ٢٨ يونيو ٢٠٠٢؛ ١٨:٠٠

إلى: Morc@hotmail. com

موضوع: ٠,٨٠٩

نظن أننا قمنا بحل اللغز. أقولها منذ البداية: الفضل كله يعود إلى كاتلين. سوف يكون من الممل جداً أن نبين لك ما الذي هدانا إلى الطريق الصحيح. اعلمي فحسب أننا قمنا ببعض المقاربات بين أعمال عالم رياضيات يدعى ليوناردو بيزانو، المشهور بفيبوناتشي وشغف كاتلين بفن المعمار.

بالتنقيب في أعمال فيبوناتشي وقعنا على متتالية من المعادلات تقود ـ ضمن أشياء أخرى ـ إلى عدد. بداهة، لم يكن هذا العدد يمثل شيئاً مخصوصا. شخصيا، ما كان له أن يوحيَ لي بشيء، لو لم تكن كاتلين إلى جانبي. أمدك بهذا العدد: ١,٦١٨.

يتعلق الأمر بـ«العدد الذهبي» المشهور، الذي يعرفه كل مهندسي المعمار منذ غابر الأزمان. في القرن الخامس قبل الميلاد، كان يشار إليه بالحرف الإغريقي «في» تكريماً للنحات الإغريقي **فيداس** الذي عهد إليه بتزيين معبد **البانتيون**. ونلاحظه على مر القرون في الكثير من الآثار الكلاسيكية. وعلى سبيل المثال، نسبة ارتفاع هرم خوفو بمقدار نصف قاعدته تضم العدد الذهبي. اعلمي أيضاً أنه يمثّل بالصيغة التالية:

١+√٥ مقسوم على ٢. أي ١,٦١٨: إلى ما لا نهاية له...

إذا كنتُ قد أرسلتُ لك تصميم البانتيون، فذلك لأن البناية تدخل في مستطيل بحيث أن نسبة الطول والعرض تساوي العدد الذهبي.

لكن ها هو الأهم: إذا قسمنا ١,٦١٨ على اثنين، على كم نحصل؟ ٠,٨٠٩.

وبالتالي، فإن هذه النتيجة قد تمثل مفهوم التوأم الذي أوحى به ملاكنا الأعظم: بما أن ٠,٨٠٩ هو نصف ١,٦١٨. في أي شيء قد

تساعدك هذه المعلومة؟ لا كاتلين ولا أنا نعلم بهذا الشأن. إلا أنها تبدو لنا رغم ذلك جديرة بالاهتمام.

التوأم. لقد أهملنا تماماً هذا الجانب من اللغز. الظاهر أن هذه الكلمة جوهرية لأجل فهم المشكل مثلما الأعداد. إذا سمحتِ لي بنصيحة: فكري في هذا الاتجاه.

تقترح عليك كاتلين بشدة إلقاء نظرة عبر الانترنت على المواقع المخصصة لبوتتشيلي. أخبريني بالمستجدات.

مودتي.

وِيلي.

حاشية: *إننا نسعى حد اليأس إلى الاتصال بك، دون نجاح. يبدو أن لديك مشكل. آمل أن تتصلي بي حال توصلك بهذه المرسلة. الأمر عاجل. يخص جانيت.*

كانت الحاشية، أكثر من كل ما تبقى، هي ما أثار عاطفة قوية لدى كلاريسا. جانيت؟ هل تكون إذن...

توجهت صوب الهاتف، رفعت السماعة، وبينما كانت تتأهب لتركيب رقم ماكلين، أدركت أن الخط غير موصول.

حدَّقت في السماعة، مستغربة.

- هذا غير ممكن!

- ماذا يحدث؟ تعجب موركار.

- حدث أنه لم يعد لي خط هاتفي! هذا غير عادي.

- لابد أنه بسبب العاصفة. لن يدوم الانقطاع طويلاً.

- إننا لا نعلم شيئاً عن ذلك. يجب الاتصال بماكلين. ربما حدث مكروه لجانيت.

دارت على عقبها وسلكت طريق حجرتها.

ـ إلى أين تذهبين؟

ـ أرتدي ملابسي. سوف أذهب للاتصال عبر الهاتف في القرية.

دقائق معدودة لاحقاً، بدت من جديد في الصالون. أمام بصر موركار المتحير، خطفت مظلتها وممطرتها من المشجب ومشت نحو الباب.

ـ هذا جنون! لا يمكنك الخروج في مثل هذا الجو! تتعذر الرؤية على بعد عشرة أمتار. قد تقع لك حادثة.

أجابت بإيماءة رأس مبهمة ثم خرجت.

ودون تردد، سار موركار في عقبها.

هناك في أعالي السماء، كانت سرعة البروق تشتد ويزداد وميضها، بينما رعود هادرة يسمع صداها من كل الأنحاء، مثل صخب معركة تقترب.

ـ تعقَّلي. إن ذلك خطر جداً. دعيني أذهب مكانك.

جالسة خلف المقود، صرخت الروائية لتحجب الصخب المحيط:

ـ هيا! لا داعي للقلق. لقد قدت السيارة في كل الأحوال الجوية!

لم يعاود الفتى الشاب إصراره. انعطف عبر السيارة واستقر بمقعد الراكب.

ـ سأرافقك!

هزت كلاريسا كتفيها. في هذه اللحظة، كان لديها مشكل آخر ينبغي تسويته: المحرك يسعل، يبصق، لكنه يرفض بعناد أن ينطلق.

ـ فليسلط الوباء على هذه العربة العتيقة! صبت لعنتها. كنت أعلم حقاً أنه ينبغي لي التخلص منها ذات يوم.

مغتاظة، كابدت كي تلف مفتاح التدوير حوالي عشر مرات، وهي تضغط على دوّاسة السرعة، وذلك رغم تحذيرات موركار المتكررة:

ـ لا تفعلي ذلك! سوف تغرقين المحرك!

ـ اللعنة! أف!

خبطت المقود بضربة قوية واستسلمت في نهاية المطاف.

ـ هوني عليك، نصحها موركار. لنرجع، سوف نحاول لاحقاً.

ساخطة، فتحت البوابة، نشرت مظلتها وانطلقت نحو البيت. علقت ممطرتها، وبعد هنيهة من التردد، توجهت صوب الهاتف.

ـ دائماً لاشيء...، قالت وهي تضع السماعة لصق أذنها. هبّت عاصفة فحلّت الفوضى!

ـ من العبث أن تجعلي نفسك في هذه الحال، نبهها موركار. كل شيء سوف يعود كما كان ما إن تهدأ العاصفة.

ـ أعتقد بما أن الخط الهاتفي خارج الخدمة، لم يعد في وسعنا ولوج الانترنت؟

ـ مع الأسف، نعم.

ـ لكن وبعد! كيف حصل وتلقينا رسالة ماكلين؟

أشاح موركار بوجهه:

ـ أعتقد أن الخط عاد في لحظة معينة. الوقت الذي سمح لي بتحميل البريد.

نظرت إليه الروائية هنيهة، غمغمت كلاما يشبه التجديف، وسلكت وجهة المطبخ.

مضت بقية اليوم في الأجواء المتوترة نفسها.

قضى موركار معظم وقته في لعب الشطرنج ضد الحاسوب، وكلاريسا، منغمسة برأسها، في قراءة وإعادة قراءة بريد ماكلين الأخير. بين الفينة والأخرى، كانت تغادر أريكتها للتحقق مما إذا كان قد تم ربط الخط. في الساعة الثامنة لم يحصل ذلك.

في الساعة الثامنة والنصف، اقترحت حسوة على موركار الذي عبَّر عن نفوره.

في الساعة العاشرة، جمعت جذاذاتها كلها، تمنت ليلة سعيدة للفتى الشاب وصعدت كي تأوي إلى فراشها.

في منتصف الليل، غلبها النوم أخيرا.

هناك في، غلاسكو، لم يكن ماكلين وكاتلين نائمان. محبوسان في مكتب الجامعة، طلبا من عند مزود صيني أطعمة لم يمسها لا هذا ولا تلك. كانا يقومان بالحراسة أمام الهاتف وهما صامتان على نحو يائس. بعد حيرة الساعات الأولى حلَّ إحساس مشؤوم. ومن شدة ما كان إحساساً عميقاً ونظراً لغياب استجابة الروائية فإن البروفسور عمد في نهاية الظهيرة إلى الالتحاق بمفوضية بروديك والتمس الحديث إلى المفتش ستيوارت. بادئ الأمر، تم رفض مده بأية معلومة. ستيوارت غائب ويتعذر الاتصال به. وكان على ماكلين أن يظهر أنه صديق لكلاريسا غراي كي يُخبَر في نهاية المطاف بالحقيقة: المفتش يرقد في المستشفى. وحاله تدعو للقلق.

٢٣

الثانية صباحاً.

خَطت صوب الحاسوب. بسبابتها المشوهة، ضغطت على زر التشغيل، لكن بدل الذهاب إلى الموقع المعتاد، أطلقت محركاً للبحث وربطت الاتصال بموقع مخصص لفن الرسم الإيطالي في القرن الخامس عشر. قضت هناك حوالي عشرين دقيقة، عثرت على الوثيقة التي كانت تريد، طبعتها، وعندها فحسب انتقلت إلى كازينو أون لاين.

كلما مرت الدقائق، كلما ازداد نفاد صبرها.

هل سوف تأتي؟ هل ما تزال ساميل دائماً في الاستماع؟

دقائق طويلة أخرى.

ماذا لو تمت تصفيتها بدورها؟ ماذا لو أن «الآخر» فتك بجلدها؟ أبعدت هذه الخاطرة. سوف يكون ذلك ظلماً مفرطاً. ليس الآن. الآن حيث *أضحت تعرف*.

زال توتر السيدة العجوز دفعة واحدة حينما استعاد سطح الشاشة مظهره الثلجي.

ـ *نعم، مسز غراي؟*

ـ ينبغي أن أكلمك. ينبغي أن أكلمهم. الثلاثة بأجمعهم.

ـ جماعة؟

ـ أجل. أريد أن تكوني حاضرة. أحرص على أن تكوني نصب عيني. من باب الحيطة. لا أود أن يصيبك مكروه، ونحن نقترب كثيراً من الخاتمة.

تحول صوت ساميل إلى صرخة:

ـ *لقد وجدتِ إذن الجاني؟*

وبدل الجواب، أصرَت الروائية:

ـ قومي باستدعائهم، أرجوك. الآن.

ـ *حسناً.*

اختفت. وانقبض قلب السيدة العجوز. الخوف. الخوف يعذبها. أي طريق تسلكه ساميل للقاء الآخرين؟ هل كانت تستعمل رسالة توارد الخواطر؟ هل كانت تجتاز مهاوي؟ ترتقي نحو أعالي شاهقة. لو صادفها الآخر، ستكون النهاية.

كلا. لقد عادت. إلى جانبها يقف النبيان، جامدان. لا ريب أن محمداً كان حاضراً هو أيضاً وإن كان غير مرئي.

ـ *ما الذي حلَّ بك*، مسز *غراي*؟ سألها يسوع. *هل هناك مشكل؟*

ـ أجل. نوعاً ما. وهذا تلطف في الكلام.

اغترقت نفساً مديداً وقالت:

ـ أعرف من هو القاتل.

لم يحدث أي رد فعل. لكن يحس المرء أن التوتر قد غيَّر موقعه دفعة واحدة.

ـ منذ بعض الوقت انصبت شكوكي حوله. ومع ذلك، من شدة ما

بدا لي هذا الاحتمال سخيفاً، فإن قلبي كان يرفض تقبل ذلك؛ قلبي، لكن ليس عقلي. لا ينبغي للقلب أن يتدخل حينما نتصدى لتحقيق. ينبغي لجمه. وهذا ما فعلت. لكن، كنت في حاجة إلى تأكيد أخير. وهذا التأكيد حصلت عليه مساء البارحة.

ـ *وماذا كان؟* سألها موسى.

لفظت كلاريسا:

ـ ٠,٨٠٩.

ـ كيف؟ تعجب محمد.

ـ عدد؟ صاح يسوع.

ـ اسمعوني ملياً. كل شيء بدأ مع يوميات جبرائيل الحميمة. ماذا قالت هذه اليوميات؟ إن الملائكة كانوا ضحية قاتل بالجملة، إنه كان يقتل دون تمييز، وبالتالي، دون دافع ظاهر. في هذه الحكاية، دونتُ لمرتين هذه الفكرة: «*إن من يزرع الموت في هذه الأنحاء يمتلك بالتأكيد قدرة عظيمة*». لقد كان نظر جبرائيل ثاقبا. بما أن الملائكة خُلقوا خالدين، كان لابد للقاتل إذن من أن يكون واحداً له سيادة على الموت. حينما سألتكم: «في نظرك، من يمتلك ما يكفي من القدرة على اغتيال الملائكة؟» كان جواب اثنين من بينكم: «لا أحد». وقد سدد النبي محمد: «لا أحد سوى إلياس».

ـ *إيليا؟* صاح موسى ويسوع معا. *مستحيل! إيل...*

ـ لحظة، من فضلكما. دعاني أكمل كلامي. (توقفت قبل أن تسترسل:). بالطبع إن النبي إيليا لا دخل له. لقد تصفحت سيرته. إذ حُمل على عربة من نار، تجرها خيول من نار، واختفى في السماء. مما يقتضي أن الرب دعاه إليه، والذي بتصرفه على ذلك النحو، أراد

أن يجنب عبده أهوال الموت. إذا كان الرب قد اصطفى هذا الخيار، فذلك لأنه يعلم يقينا بأن إيليا لا يمتلك القدرة على قهر ذلك الأجل المحتوم الذي هو من نصيب البشر. إيليا بريء. إذن من القاتل؟

استرجعت أنفاسها:

ـ كما تعلمون، هناك ألف طريق للقيام بتحقيق. يتمثل أحد المناهج في العمل وفق الإقصاء. ودون أن تدرون، فقد برأتم من يحيطون بكم. هناك شهادات نصدقها، وأخرى نتركها. لأنها نابعة من شخصيات بمثل مقامكم، وعلى الأخص بعد اعترافاتكم، فإن التصريح: «لا أحد» بدا لي فيه ما يكفي من الفائدة حيث صدقته. وبما أن المقيمين في عالمكم لم يكونون مذنبين، إذن لم يتبق سوى ثلاثتكم في المنافسة. أظن أن جبرائيل سلك هذا النهج. لكنه ضل الطريق، بعدما أعمته أمجادكم، وكل ما تمثلونه. في نظره، واحد من بينكم كان هو المسؤول عن جرائم القتل لا محالة. كنتم الأعظم. لقد جانب الصواب. لقد بالغ في تعظيمكم ولعله فطن لذلك بما أن كلماته الأخيرة كانت هي: كل شيء سيكون في العدد ١٩ والتوأم في ٠,٨٠٩».

أمسكت السيدة العجوز كشرةَ ألم. كانت يداها في أزمة. لم تتذكر أنها تعذبت بكل هذا القدر. كانتَ نار تلتهم سلامياتها. ضمت أصابعها وشدَّت عليها بكل ما أوتيت من قوة لخنق الألم.

ـ لقد التقيتُ رجلاً ـ استرسلت. كان يدعى صموئيل شلونسكي. وقد أخبرني بوجهة نظره بخصوص العدد ١٩. بالنسبة له، كانت هناك إمكانية أن العدد يمثل الرَّب. وقد كان يعبر عن افتراض فحسب، لا غير. لعله كان يستطيع، من يدري، إيجاد تفسير للعدد الملغز ٠,٨٠٩، للأسف، لم يسعفه الوقت.

ـ مسز غراي، ناشدتها ساميل، *لو أفصحت عن قصدك مباشرة. من القاتل؟ ما اسمه؟*

استغرق الأمر ثواني معدودة قبل أن تصرح كلاريسا:

ـ الرَّب...

حدثت رجة خلف الشاشة. يخال المرء أن عاصفة قد هبَّت، وزعزعت الأرض تحت أقدام الأشخاص.

ـ *الرَّب؟* صاح محمد. *لكن، أنت مجنونة*، مسز غراي! *مجنونة تماماً!*

ـ *الرب سفَّاح!* زاد موسى على ذلك. *هل أنت مدركة فحسب للكفر الذي تفوهت به؟*

ـ *صديقاي على صواب*، قال يسوع موافقا. *إن سني عمرك تضللك.*

دون أن يتزعزع يقينها ولو قليلاً، كررت السيدة العجوز:

ـ الرَّب.

مالت إلى الأمام:

ـ لقد كتب جبرائيل: «التوأم في ٠,٨٠٩». وهذه الأرقام الأربعة هي نصف ١,٦١٨. إنها تمثل ـ وأنتم تعلمون ذلك جيداً ـ العدد الذهبي. إنه يجسم في فن المعمار «النسبة الإلهية»، الكمال، الجمالية المطلقة. إنه يجسم المثال، وعلى الأخص، إنه متغير في المالانهاية. وقد قمت بحساب بسيط. باعتمادكم على المعادلة الأساسية، أي: ١+√٥ مقسوم على ٢، نحصل على...

لبست نظارتيها لقراءة ما دونته:

ـ ١,٦١٨ ٠٣٣ ٩٨٨ ٧٤٩ ٨٩٤ ٨٤٨ ٢٠٤ ٥٨٦ ٨٣٤ ٣٦٥

٦٣٨ ١١٧ ٧٢٠ ٣٠٨... ونستطيع متابعة ذلك إلى الأبد. إن الخصائص الجبرية مدهشة بالقدر نفسه. لحساب مربع العدد الذهبي، يكفي أن نضيف إليه ١. واحد. الوحدة. الواحد!

ـ *هذه سخافة!* زمجر موسى. *إنك...*

ـ لا تقاطعني! لقد اتبعتُ أيضاً نصائح صديقة لي وأوليت اهتماماً بفن الرسم. أنظروا إلى هذا...

عرضت أمام الشاشة الوثيقة التي طبعتها دقائق معدودة من ذي قبل:

ـ أنظروا جيداً. إنها *ولادة فينوس* لصاحبها بوتيتشيلي. نرى فيها إلهة الزمن تضع رداء على فينوس، إلهة الحب والجمال الرومانية. يتفق أغلب الخبراء على القول إن الفنان أراد عبر هذا العمل الفني تصوير ولادة الإنسانية. سوف تقولون، إنها صدفة؟ حتى قياس اللوحة يوافق مستطيلاً ذهبياً. مجموع الرياح إلى اليسار، وشخصية الرحمة، إلى اليمين يدخلان بدورهما في مستطيلين ذهبيين وللدقة أكثر على طول قطري المستطيلين تحديدا. العدد الذهبي، مرة أخرى ودائماً...

ـ *سخافة*، كرر موسى. *سخافة*.

ـ حري بك أن تسمع. اللانهاية... ألا ترى دلالة هذا الرمز؟ اللانهاية، المطلق، الأبدية أيضاً. ألا يصف البشر الإله مراراً بأنه «المهندس المعماري الأعظم»؟ أي عمل عجيب أنجزه استحق وصفه بأنه سامي، «نسبة إلهية»، جمالية مطلقة، إن لم يكن هو الكون؟ أنظروا إلى النظام الكامل لكل شيء يحيط بكم. حركة الكواكب اللطيفة، تحرك المجرات، هسيس النجوم. إننا في قلب الانجاز الهندسي الذي لم يوجد مثله خرقاً للعادة.

ثم أضافت بشدة:

ـ الرب هو العدد الذهبي! لم يخطئ جبرائيل. على الضد من ذلك، أقر بأني لم أستطع شرح وجود كلمة «توأم». إني لم أدركه.

ـ *مستحيل*، همست ساميل وقد اضطربت مشاعرها. *لا يمكن للرب أن يكون سفاحاً.*

ـ إني أتفهم رفضك. إنك تطردين هذه الخاطرة لأنك تحت نفوذه ولأنك فوق كل شيء عاطفية. أنا أيضاً عاطفية، تصوري. لكن تم تكليفي بتحقيق. والتحقيق لا يبالي بالمشاعر. ما الخطوة التي يجب اتباعها حينما نمسك مشتبها به؟ هل أنت على علم بذلك؟

أومأت ساميل برأسها علامة على النفي.

ـ نتحقق مما إذا كان لديه سجل جنائي. وهذا ما قمتُ به.

تمتم موسى:

ـ *السجل الجنائي الخاص بالرب؟*

ـ تماماً. وصدقوني بأنه حافل، حافل جداً. ما قد يسبب لكم الدّوار. هل تريدون أن أعدد لكم القائمة الكاملة لفظائعه؟ سوف يتطلب منا ذلك سنوات كثيرة. على سبيل الصدفة... في نوبة غضب، قرر أن يبيد كل المخلوقات الحية على ظهر الكوكب، بذريعة أن مخلوقاته الشقية تعيش في الخطيئة. إنه الطوفان. ودمر مدينتين كاملتين بما فيها من نساء وأطفال ومسخ زوجة شقية ـ امرأة لوط ـ تمثالا من ملح لأنها التفتت بسبب فضولها لرؤية الواقعة: إنها سدوم وعامورا. يأمر أبراهام بأن يضحي بإسحاق، ولده المحبوب، ولده الوحيد، ثم...

ـ *لكن ذلك كان امتحانا فحسب!* قاطعها موسى. *كان يريد أن*

يمتحن أبراهام. أن يتحقق مما إذا كان حبه لولده أكبر من حبه للرب. ثم، في آخر لحظة، افتدى الطفل بحمل.

ـ امتحان! أن يستلزم من أب ذبح ابنه الوحيد؟ ينبغي لكم الاعتراف أن فيما يخص السادية، لم يفعل أحد أفضل من ذلك!

تابعت:

ـ ماذا قرر حينما رفض فرعون السماح برحيل الشعب العبري من مصر؟ لا شيء بمقدار هذا الرعب: قام بكل بساطة وبكل ما في الكلمة من معنى بذبح المواليد! أطفال! هل تفهمون؟ أطفال! أبرياء...

لوَّحت بإصبعها نحو موسى:

ـ أظن أنك لم تنس ما أمرك به غداة مأساة العجل الذهبي؟

انبسطت أصابعها وجذبت نحوها الإنجيل:

«هكذا قال الرب إله اسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه، ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل». ثلاثة آلاف رجل! لا يعتد بها، أليس كذلك؟ واللعنات، والدم! أوه! يا للدم الذي تمت إراقته! ابتزاز، تهديد، تهديد مخيف. سوف أختم، لأني أرى بأنكم لا تصدقوني. لكن قبل ذلك، اسمحوا لي بأن أتلو عليكم هذه المقتبسات من سفر التثنية...

بحثت عن علامة بين الصفحات وتابعت:

ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك ولا تحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم، تأتي عليك جميع

هذه اللعنات وتدركك. ملعونا تكون في المدينة وملعونا تكون في الحقل. ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك. يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والجفاف فتتبعك حتى تفنيك. ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك. ويجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض، وتكون جثتك طعاما لجميع طيور السماء ووحوش الأرض وليس من يزعجها».

صمتت. وجالت بنظرها بين موسى ويسوع:

ـ إذا لم تكن تلك لغة سفاح، إذن فقد حان الوقت ليأخذني الرب عنده.

عم الصمت من جديد.

تفرس النبيان بعضهما، والروع مستبد بهما، بينما ظلت ساميل مطرقة.

بغتة، أخذ يسوع الكلمة:

ـ *أنت محقة، مسز غراي. محقة بخصوص أمر واحد. لقد أخطأ جبرائيل حينما ظننا قادرين على أن نكون مجرمين. لكن لم تكن تلك غلطته الوحيدة. لقد أفرط في تقديرك أيضاً. تفهمي جيداً أنه من المستحيل علينا الاتفاق مع استنتاجاتك. إنها غبية، مسز غراي. غبية. وداعاً...*

لوَّح بيده وفي الحال ظهرت من جديد علامة كازينو أون لاين بلافتاته الاشهارية.

حدقت كلاريسا في الشاشة غير مصدقة. *هذا غير ممكن*، سوف يعودون. هذا ما خطر ببالها.

نقرت ملامس لوحة المفاتيح كما اتفق، لكن لم يحدث شيء. أعادت الكرة بتهيُّج، دائماً دون نتيجة تذكر. حينذاك، من شدة غضبها، غادرت الطاولة وشرعت تذرع الحجرة طولاً وعرضاً، وتدور على نفسها مثل طريدة محاصرة. وفي هذه اللحظة بالذات انفجر الصوت من خلف ظهرها.

ـ هكذا، مسز غراي. أنا سفاح إذن؟

دارت على عقبها بشدة.

كان موركار يقف عند عتبة الصالون، وعلى طرفي شفتيه ابتسامة لا توصف.

كرر سؤاله بصوت لم تعهد فيه.

ـ أنا سفاح إذن؟

٢٤

ـ ماذا... ماذا تقول؟

غمرت صُفرة عجيبة وجه السيدة العجوز بينما كان يخترقها بالكامل دفق صقيعي.

ـ السؤال واضح رغم ذلك. لقد سمعتُ كل شيء.

ـ أنا... أنا لا أفهم. لستَ متهما في شيء.

ـ *لقد قلتِ حقا: المذنب هو الرب؟*

ـ أجل... لكن...

ـ لهذا السبب حقاً أوجه لك السؤال من جديد:

ـ أنا سفاح إذن؟

استندت الروائية إلى ظهر الأريكة. خانتها ساقاها.

ـ اجلسي، اقترح موركار. لا أريد أن يصيبك مكروه. سوف يكون ذلك محزنا للغاية.

ومثل إنسان آلي، امتثلت لأمره. كانت الدنيا تدور، في رأسها.

ـ مع أنك لم تجاوزي الحد في مدحي، أنحني أمام موهبتك الهائلة. أرفع قبعتي احتراما لك، مسز غراي. أنت محققة عظيمة. ومع هذا، لنعترف بأنك مدينة كثيراً لغريزتك أو لنقل حدسك. في نظري، لقد كنتِ محظوظة للغاية في حل هذه القضية.

ابتلعت السيدة العجوز ريقها بمشقة.

ـ من أنت إذن؟

افترت ابتسامة موركار:

ـ هيا، مسز غراي. لا تقولي بأنك لم تخمني ذلك. ليس أنت من يعجزه هذا؟

ولما ظلت صامتة، أفصح قائلاً:

ـ إهييه، آشير، أهييه... أنا من أنا.

أطبقت جفنيها، وهي تحدث نفسها بأنها حينما ستفتحهما يكون الفتى الشاب قد اختفى. لم يكن ذلك إلا حلماً مزعجاً. حلم إضافي.

ومع ذلك، كان موركار دائماً هناك، لا يعرف الوجل.

أشار إلى خزانة الصحون حيث تتربع قنينة الغلينمور.

ـ أعرف أن الظرف لا يسمح بذلك. لكن هل تريدين رغم ذلك أن أسكب لك كأس سكوتش؟ أظن أنك في حاجة إليها.

تمتمت بكلمة «نعم» بالكاد مسموعة.

صبَّ الكحول وناول الكأس للسيدة العجوز.

ـ ١,٦٠٨، قال وهو يجلس بدوره. لقد أظهر جبرائيل بأنه صاحب حيلة، وهذا بالطبع لا يفاجئني. من بين ملائكتي الرؤساء، هو الموهوب إلى حد بعيد.

بيد ترتعش، قرَّبت كلاريسا الكأس من شفتيها وابتلعت جرعة.

تابع قائلاً:

ـ رغم ذلك ساورني الشك. على الأخص بعد موت شلونسكي. كنت أظن أنك سوف تتخلين عن كل شيء. والأمر الذي حُزتِ به

إعجابي الكبير هو حينما قمت بذلك العرض حول ولادة فينوس لبوتتشيلي. أفترض أنه لم يخطر ببالك لحظة أنها كانت من أعمالي المفضلة. المرأة الشقراء...

توقف بغتة، كما لو أن هذا التذكر المفاجئ يزعجه. استفسرها:

ـ لا تقولين شيئاً؟

ـ إذا كنتَ ـ غدا من المستحيل عليها النطق بالكلمة ـ إذن أين هو موركار الحقيقي؟ أين هو حفيد البروفسور ماكلين؟

ـ صحبة أمه. في الباربادوس. إنهم بخير. سوف يعودان خلال يومين. لقد حالفك الحظ.

ـ لماذا أخذت مكانه؟ لماذا هو؟

ـ أولاً حتى أكون قريباً من أصحاب الأدوار الرئيسية، أقصد، مادياً. ثانياً، لأنه منذ الزمن حيث «أنا كائن»، كنت أفكر بأنه أصبح من المفيد أن أندس في جلد بني البشر. كنت أرغب في الاحساس بما يحسونه. عيش ما يعيشونه. أعترف بأنها تجربة مثرية جداً. من كل الوجوه.

شربت جرعة سكوتش أخرى:

ـ هكذا، لم يكذب يسوع. لم يسبق لك أن تجسدتَ من ذي قبل.

أومأ موركار ـ الرب برأسه نفياً.

ـ على الضد من ذلك، فقد كان حقاً واحداً من رسلي. شأن موسى ومحمد. كان لا بد لأحد ما أن يُظهر حضوري للعالم، ألا تعتقدين ذلك؟

لم تحر جواباً. أن يندس في جسد مشتبه فيه كان ممكنا له أيضاً لكن في جسد الرب...

ـ لماذا الرسل؟

ـ تلك قصة طويلة...

مرت دقائق طويلة قبل أن يقرر استئناف الكلام:

ـ هل تعلمين ما العزلة، مسز غراي؟ إني لا أتحدث عن عزلتك، ليس عن عزلة البشر، كلا. إنها لا شيء مقارنة مع عزلتي. العزلة الإلهية. العزلة اللانهائية. عميقة مثل المجرات، كثيفة مثل دروب التبانة، حارقة مثل الشموس الأشد اتقاداً، باردة مثل سطح النجوم الآفلة الجامدة. العزلة، مسز غراي. إنها تدمرك. تخربك من الداخل، تقيدك إلى اليأس. حينما تصل إلى هذا الأوج، إنها تقتل. لكن كل ما في الأمر أني لا أريد أن أموت.

استوى في جلسته على الأريكة. غشت الظلمة حدقتيه. كان يرنو إلى نقطة غير مرئية. ربما إلى أقاصي الكون.

ـ أنا كائن منذ الأزل. موجود منذ الأزمان السابقة على الزمن. لأي سبب؟ لا أدري عن ذلك شيئاً. أنا كائن. أنا كنتُ. هو الأمر هكذا. يحيطني الفراغ، يحاصرني السديم. لم يكن هناك شيء حولي. لا شيء. لا مادة ولا ضجيج. ولا وشوشة، اللهم وشوشة صمت لا يقبل القياس. لم يكن لدي من موسيقى سوى الصمت. لم يكن باخ يعزف لي. ولا موزار ولا غيره. وحيثما لاح نظري لا يصادف غير اللانهائي. ليس هناك من بوتتشيلي ولا فان كوخ. ولا هناك منحوتة بييتا العذراء. الصمت والفراغ، مسز غراي. إنهما وسائل تعذيب بذيئة. لهما أيضاً القدرة على القتل.

ردد بوَهَن:

ـ وأنا لا أريد أن أموت. لكن هناك ما هو أسوأ من العزلة. إنها العزلة الثنوية. إذ، في حقيقة الأمر، كنا اثنين.

فزعت كلاريسا:

ـ اثنين؟

ـ أجل. لم أكن وحيدا، تماماً في ذلك العدم. كان هناك أخي. توأمي. من لقبتموه بأمير الظلمات. الشيطان، إن أحببتِ.

وفي الحال خطرت عبارة جبرائيل الملغزة ببال السيدة العجوز. التوأم! التوأم في ٠,٨٠٩ .هكذا، الشيطان والرب مجتمعان هما العدد الذهبي...

ـ تقاسم الفراغ والصمت، مع رفيق وحيد هو نقيضك، فذلك أسوأ عقاب. نقيض، مرآة معكوسة، ظلام ونور بالمعنى المطلق للكلمة. كان أخي يتكلم والكلمات التي ينطق بها كانت غريبة عني تماماً. لم أشعر إلا بالنفور من هذا الشبيه. كنتُ أستقبحه. كم وددت إبادته. آه! لو تعلمين عدد المرات التي عبرت فيها خواطر قاتلة بالي! للأسف، إني لا أستطيع أن أموت فحسب، بل ليس لدي القدرة على القتل. إني لا أعرف سوى الحياة. بل حتى هذه! لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان. منذ عدة ملايير من السنوات.

ابتلعت السيدة العجوز كأسها الغلينمور. حل الافتتان مكان لحظات عدم التصديق والفزع الأولى. بحركة من يدها، شجعت موركار ـ الرب على المتابعة.

ـ حينها وقع ما ليس في الحسبان.

سألها وكأن إلهاماً مباغتاً قد تلبسه:

ـ هل سبق أن بكيتِ، مسز غراي؟ بكيتِ من شدة اليأس؟

ـ هه... أجل. لقد حدث لي ذلك.

ـ وعليه، يحين وقت حيث يغمر النحيب كياني كله. وأبكي، مسز غراي. أبكي مثلما يبكي الناس في حداد. كان ذلك رهيبا. كأن الفراغ كله امتلأ بدموعي. كأن الصمت يمتلئ بانتحابي. وهكذا نشأ الكون، مسز غراي. وُلد مصحوباً بالألم. واستخرِج من يأسي. تصوري حيرتي.

ـ أتصور أنها كانت نهاية عزلتك؟

ـ كلا، للأسف الشديد. سوف تفهمين بسرعة لماذا. بعد أن أدركت قدرتي، عجلت بنفث الحياة في تلك النجوم التي لم تكن تتألف إلا من فراغ ذليل. كنت في غاية السرور. قلت مع نفسي بأني سوف أجد في نهاية الأمر مخاطبين غير شبيهي المحتوم. مخلوقات جديرة بالاهتمام تستطيع التعرف عليَّ، وعلى اسمي وتسمعني. أخيراً حوار! حقيقي. لقد نجحت العملية نسبياً بنحو جيد. خاصة هنا، عندكم، فوق الأرض. لكن يا لعدد المحاولات قبل الوصول إلى الإنسان! ما إن ظهر حتى غمرت السعادة قلبي. كنت أحلق من الفرح. لقد أفرطت في المبادرة إلى ذلك، للأسف. مخلوقي لم يكن يراني. هو الأعمى، واندفع بلا روية نحو عبادة ظواهر طبيعية تافهة: الصواعق والبراكين، والشمس والقمر... وهذا الموقف، لاشك في ذلك، زاد من إحساسي بالعزلة وأطال معاناتي. وإني أعفيك من سماع تعقيبات أخي الصلفة. ينبغي لي التدقيق بأنه لم يكن ينظر بعين الرضا إلى المشروع الذي أقبلت عليه. فكرة أني قد أستغني عنه ذات يوم كانت تثير مقته. ما العمل؟ كيف أنادي على الناس؟ كيف أجعلهم يفهمون بأني موجود هنا؟ بأني كنتُ خالقهم؟ المهندس المعماري لعالمهم؟

ـ قررتَ بعثَ مرسلين...

ـ تماماً. كان ذلك هو السبيل الوحيد لإثارة انتباه بني البشر.

ـ الوحيد؟ تعجبت كلاريسا. كان في استطاعتك التجلي شخصياً، بكل بساطة.

قوس موركار ـ الرب ظهره:

ـ بالتأكيد. تتصورين أنه لو سنحت لي هذه الفرصة، لانتهزتها. ما خلا الاندساس في صورة بشر، مثلما فعلت هذه الأيام، كل تجلي غيره بعيد عن منالي.

ـ لم أفهم. ما السبب؟

ـ ذلك لكينونتي، مسز غراي. أنا كائن لكن غير موجود! أقصد، مادياً، خلقياً. عصيٌّ على المدرِكات. أنا غير مرئي، لا يصل إلي نظر. وحينما أتجسد، مثلما في هذه اللحظة، فإن مواهبي، وكل ملَكاتي الخارقة تتلاشى. ولا يبقى لي سوى قوة إنسان، أي القليل جداً.

زفر:

ـ من ثمة كان المرسلون. وخلقت الملائكة إذن. الملاك الأعظم جبرائيل أولاً. ثم اخترت مجموعة من البشر، وأنا مقتنع بأن هؤلاء سيحملون الخبر للكوكب أجمع. لهذه المهمة، اصطفيت العبرانيين وجعلت موسى على رأسهم. ومنذئذ، لم يعد هناك *آلهة*، بل *واحد*. أنا. يهوه. بما أنهم بهذا يلقبوني. أخذت أرى النور في عمق الظلمات. قريباً، حدثت نفسي، قريباً سوف يجعل اعتراف البشر بي نهاية لمنفاي. واحسرتاه، وألف حسرة، تلاشت آمالي بسرعة كبيرة. حل سوء الفهم في كل مكان، وعمّت الفوضى. وانغلق شعبي عل نفسه.

وكنت شاهدا، وأنا عاجز، على تحطم الحلم. صار المرسلون هم الضحايا؛ وأصبح قوتهم اليومي هو التحقير والخزي.

أخذ نفَساً قصيراً:

ـ ولما كنت صاحب عزم، قمتُ بمحاولة جديدة.

ـ يسوع...

ـ ييشوا، أجل. وهنا، كان الأمر أسوأ. لم أتخيل أن الكائنات التي خلقتها ستكون عمياء إلى ذلك الحد. لقد قيل كل شيء عن ذلك التعس. بل اتهم بأنه ابني. وتعرض للسخرية وألقي به فريسة للحشود. بصقوا على وجهه، وصلبوه مثل أي مجرم أجلف. باسمي. بسببي. إخوانه لم يفهموا شيئاً، ولا أتباعه. وما عقب ذلك يتجاوز إدراكي لحد الآن. إذ بغتة خرجت آلهة منافسة، طائفتان متنافستان! يجب أن تصدقيني، مسز غراي: لم أرغب أبداً في دين ثان، بل ولا في دين أول. إن الأديان لا تهمني! إلى أي شيء قادت، ما لم يكن إلى شكل آخر من العبودية؟ اليهود يخشعون أسفل حائط، والمسلمون يمجدون حجراً أسوداً ليس إلا نيزك. لم يتعدى طموحي أن يعترف بي لكينونتي. لا أكثر.

نهض بغتة وتوجه صوب قارورة الشيري.

ـ هل تسمحين بأن أسكب لنفسي؟ كل هذه الذكريات تزعزعني.

لم تر أن في الجواب فائدة.

عاد إلى الأريكة، وبيده كأس. كان يهم باستئناف عرضه، لكن كلاريسا سبقته:

ـ إني أعرف البقية. حاولت مرة ثالثة مع الإسلام.

ـ صحيح. لم يعد لي جهد لشرح هذا الفشل النهائي. الدم، التعصب. ومرة أخرى، الخيانة وسوء الفهم.

مال برأسه إلى الخلف وأغمض عينيه:

ـ ثلاثة طوائف. ثلاثة أشكال من العمى. وعزلتي ويأسي ظلا مقيمان على عهدهما الأول. كلهم يروني دون أن يروني. كلهم يتضرعون إلي ويتجاهلوني.

ـ كي يتضرعوا إليك، بالتأكيد إنهم يتضرعون إليك. لماذا لا تستجيب؟ لماذا لا تخفف من معاناتهم؟

ظنت كلاريسا أنها لمحت ابتسامة على شفتي موركار ـ الرّب. لكن هل كانت ابتسامة حقا؟

أجاب:

ـ لست مسؤولاً عن معاناة العالم...

وبما أنها كانت تنظر إليه باندهاش متعاظم، كرر:

ـ لست مسؤولاً.

ثم أضاف:

ـ هل نسيتِ؟

ـ ماذا إذن؟

ـ الآخر.

ثم أصدر أمره:

ـ أدخل!

خارجاً من لا ندري من أين، هرع فتى شاب داخل الصالون. كان في كل شيء مثيل موركار.

ـ أقدم لك أخي، مسز غراي.

انحنى الآخر بإيماءة مصطنعة:

ـ مسرور، مسز غراي.

اتضح كل شيء. من تراءى لها في المجمع بينما كان موركار مع كاتلين، كان إذن توأمه. من سعى إلى ثنيها عن مواصلة تحقيقها حينما كانت تمشي على الشاطئ، كان هو أيضاً.

قال موركار ـ الرب للتدقيق:

ـ هذا هو. هو. المشرف على كل ما تعاتبيني عليه. هو وحده.

ـ وتتركه يفعل؟

كان صوت كلاريسا يرتعد.

ـ أجل، أجاب موركار ـ الرَّب.

اقترب مثيله من السيدة العجوز:

ـ قبل كل شيء، اسمحي لي بأن أهنئك. برافو. لقد أظهرتِ عن حصافة عجيبة.

وتجهمت ملامحه بينما كان يضيف:

ـ للأسف الشديد، بسببك خسرت رهاني. ومع ذلك، ليس من الخطأ أني سعيت لإعاقة سيرك.

تململت الروائية فوق أريكتها:

ـ لا أكاد أصدق. موت باكوفيا، أهو أنت؟

ـ وموت شلونسكي أيضاً.

ـ مرض جانيت؟

أظهر ملامح طفل سعيد بفعلته:

ـ أنا. دائماً وأبداً أنا.

أشهدت كلاريسا موركار ـ الرب على كلامها:

ـ هل ما سمعتُه صحيح؟ لقد تحدثَ عن رهان؟

ـ صحيح. رهاننا. لقد راقبتك حينما كنت تتصفحين الإنجيل. هذا الكتاب يعج باللغو، لكنك نجحت في استيعاب ما هو أساسي في زمن قياسي. لكن، أنا على يقين بأن كتاباً جوهرياً قد فاتك.

ـ أي كتاب؟

ـ سفر أيوب.

التفت نحو توأمه وأمره:

ـ اقرأ.

ـ حسنا.

وبدأ الآخر بصوت محايد:

سوف أتلو عليك المهم: «كان رجل في أرض عوص، اسمه أيوب. وكان هذا الرجل كاملاً ومستقيماً يتقي الرب ويحيد عن الشر. وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمس مئة فدان بقر وخمس مائة أتان وخدمه كثيرون جداً. فكان هذا الرجل أعظم كل بني الشرق. وكان ذات يوم أنه جاء بنو الرب ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم. فقال الرب للشيطان: «من أين جئت؟» فأجاب الشيطان الرب وقال: «من الجَوَلان في الأرض ومن التمشي فيها». فقال الرب للشيطان: «هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتقي الرب ويحيد عن الشر؟». فأجاب الشيطان الرَّب وقال: «هل مجانا يتقي أيوب الرب؟ أليس أنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من

كل ناحية؟ باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض. ولكن ابسط يدك الآن ومس كل ما له فإنه في وجهك يجدف!» ـ فقال الرب للشيطان: «هو ذا كل ما له في يدك وإنما إليه لا تمد يدك». ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرَّب».

قلبت السيدة العجوز طرفها بين الأخوين:

ـ إني أخشى من فَهم...

ـ لا ينبغي لك ذلك. إن الجواب عن كل الأسئلة التي يطرحها بنو البشر على أنفسهم منذ أن خلقتُهم يوجد في هذه الفقرة.

شدت وجهها بين يديها، صَعِقَة.

ـ رهان أيوب، همست. رهان أيوب الذي أبّدتماه منذ غابر الأزمان، لكن على الصعيد العالمي...

رفعت رأسها:

ـ هل تختبرنا؟ نحن؟ مخلوقاتك؟ وما السبب؟ أتوسل إليك، أجبني!

ـ الحب، مسز غراي. الحب. أخي مقتنع بأنه إذا حل الشقاء مكان السعادة، إن البشر سوف يعرضون عني. وأنا مقتنع بالعكس. كلما زادت معاناتهم، كلما ازدادوا قربا. وكلما عاشوا في فزع، كلما تدافعوا على الكنائس والمعابد والمساجد. لكم من الوقت؟ لا أدري عن ذلك شيئاً. أما أخي، فهو واثق من أنه ذات يوم سوف ينتصر وينتهي المطاف بالإنسانية إلى كراهيتي. في الحقيقة، لا يريد أن يقر بذلك، لكنه لم يستسغ أنه خسر رهان أيوب. حيث، وربما تعلمين ذلك، رغم كل البلاء الذي سلطه أخي عليه. لم يكف أيوب عن

شكري. وفي معرض هذا الحديث أؤكد أنني أنعمت عليه بنعم كثيرة لوفائه وأعدته إلى سيرته الأولى وضاعفتُ كل أملاكه.

ـ لكن هذا فظيع!

اغترقت نفساً مديداً:

ـ إنك فظيع!

ظل موركار ـ الرب متبلد الحس:

ـ كلا، إني أشعر بالفقد، مسز غراي. فَقْد الحب.

ـ والملائكة؟ لماذا قُتِلَت الملائكة؟

كان موركار ـ الشيطان هو من أجاب:

ـ لأن جبرائيل اقترف خطأً جسيماً حينما أراد التدخل في شؤوننا. أخذ يبحث. كان يريد أن يفهم لماذا العالم يعيش في العنف والرعب. وكيت وكيت! مفرط في فضوله، جبرائيل. مفرط في عاطفته، وحالم مفرط أيضاً. ومن شدة سعيه في البحث، انتهى به المطاف إلى كشف السر. لم يترك لنا خياراً آخر غير تصفيته.

ـ والآخرين؟

ـ نفس الشأن. كان جبرائيل قد بث فيهم العدوى. لقد صاروا شهود عيان مزعجين. أنت التي تكتبين روايات بوليسية، لا يغيب عنك أنه يجب القضاء على الشهود المزعجين.

سدَّدت كلاريسا نحوه نظرة ازدراء واتجهت صوب النافذة المشرعة على البحر.

ليس هناك نسَمة ريح واحدة. ولا ثنية فوق الامتداد السائل. زوجان يتجولان وهما يمسكان طفلاً من يده. كلب يسعى لعض الزبد الذي يلثم الشاطئ. صبية تضحك ملء رئتيها وهي تركض خلف كرة.

العالم يواصل العيش. لو أنه يعلم ما كانت كلاريسا تعلمه! هذا الرب الذي لا حد لخيره ورحمته. رب طفولتها ذاك لم يوجد أبداً إلا في الكتب والخرافات. لم يكن سوى في متخيل بني البشر. وَهْم. لا أكثر. كان فمهاً جافاً، غلب عليه طعم الغثيان. كانت تفضل لو ماتت بمعية الصورة التي رسمتها لـ ربها على أن تَعلَم ما علمته. كيف تبقى على قيد الحياة من الآن فصاعداً؟ لماذا؟

انتزعها صوت موركار ـ الرب من تأملاتها:

ـ مسز غراي! لستِ على حق في الاستسلام لهذه الخواطر التي تزعجك

التفتت وانخرطت في نوبة ضحك متوتر:

ـ لست على حق؟ لقد انتزعت أحشائي للتو، لقد حطمتَ كل ما آمنت به طول حياتي. لقد دمّرت في دقائق معدودة السبب الوحيد الذي يمنع مئات الملايين من المخلوقات البشرية من الانتحار. ولستُ على حق؟

اشتد نحيبها وقالت متوسلة:

ـ اذهب! أرجوك. أنت والآخر. اذهبا ولا ترجعا أبداً، بتاتاً.

اكتفى موركار ـ الرب بأن أومأ برأسه في سكون. ملتفتا نحو أخيه، قال آمراً:

ـ انصرف! أتركنا لوحدنا!

ـ لكن...

ـ انصرف! قلتُ لك.

٢٥

ـ الظاهر أن أخاك يطيع أوامرك في الحال، قالت كلاريسا بسخرية. ذلك عَمَليّ.

ـ كذلك كان الشأن دائماً. أنا آمر. وهو ينفذ.

ـ ليس هناك أحسن من مثل هذا الخادم المطيع والخاضع حينما لا يريد المرء أن تتسخ يداه.

قطّب موركار ـ الرب حاجبيه:

ـ كفى، مسز غراي. لدي مشكل.

ظنت السيدة العجوز أنها لم تسمع جيداً ما قيل:

ـ لديك مشكل؟

ـ أجل.

تحولت خِلقة الشخص كلياً. هل هو الحزن كان يعدو على قسماته؟ كآبة؟ لا أحد كان يسعه قول ذلك. لكنه لم يعد مثلما كان.

سكب لنفسه من جديد كأس كحول.

ـ حذار، نبهته كلاريسا. ليس هناك أسوأ من الأخلاط.

هزّ كتفيه:

ـ حالي سيئ، مسز غراي. الخطب جلل.

متعجبة من صرامة النبرة، عادت السيدة العجوز إلى مجلسها على الأريكة.

تابع موركار ـ الرب:

ـ لا أدري. لقد تهتُ. سجين متاهة، لم أعد أجد المخرج.

أغرق حدقتيه في عيني السيدة العجوز وكرر مرات عديدة:

ـ كاتلين... كاتلين...

افترت شفتا كلاريسا عن ابتسامة متكلفة:

ـ هكذا إذن؟ هل أنت مستغرق في اكتشاف فعل «أحب».

ـ لا تمازحي. إن أجبتك أن نعم، هل تصدقيني؟ نعم. ألف مرة نعم. إني أكتشف فعل «أحب». كياني بكامله يسعى إلى إعرابه في كل صيغه، وفي كل أحواله، وأصل دوما إلى النتيجة نفسها: كاتلين في الزمن الحاضر. أجل، مسز غراي، بعد تلك السنوات الضوئية من الفراغ، تلك الألفيات من الفقد، فإن فعل «أحب» اتخذ جسداً. إنه يملؤني أكثر من كل ما لم أستطع أبداً تخيله. وإني أتعذب.

ـ حذار. لا تتعذب بإفراط. قد تصير شبيها بمخلوقاتك. سوف ت...

ـ أنا لا ألهو، مسز غراي!

انزوت في أريكتها. جعلتها النبرة الجازمة تدرك أن هناك حدوداً لا يجب تجاوزها. إنها بشر، بعد كل شيء. لقد نسيت ذلك تقريباً.

أفرغ موركار ـ الرب دفعة واحدة كأس الغلينمور.

ـ سوف أطلب منك خدمة واحدة. أخبري كاتلين بالحقيقة كلها. سوف تتألم بدرجة أقل. لا أريد أن تشعر بأنها تعرضت للخيانة. هل تفهمين؟

عاجل بأن أضاف:

ـ قصّي على من حولك ما وقع. اكتبي كتابا. ينبغي أن يعلم الناس. سوف تكونين رسولتي الأخيرة.

أطرقت كلاريسا:

ـ سوف أقوم بما يلزم لدى كاتلين. لكن لا تعتمد علي فيما يخص الآخرين. أولاً، لن يصدقني أحد. وحتى لو صدقوني، لا أريد أن أحطم أحلام الملايير من الناس التعساء. أن يكونوا موضوعاً لرهان فظ، ليس فيه أدنى إطراء.

ـ *لم يعد هناك أي رهان.*

نظرت إليه بتعجب.

ـ أجل، مسز غراي. انتهى الرهان. ولن يكون هناك رهان آخر على الإطلاق.

ـ هل أنت جاد؟

ـ صادق. وهذا مهم أكثر. لقد أدركت الكثير من الأشياء عبر فعل «أحب». في الحقيقة، إنه هو العدد الذهبي. هو وحده.

غادر الأريكة وانصرف ليسكب لنفسه من جديد جرعة سكوتش:

ـ لكن، من المؤكد أن الأمور لن تكون سهلة. هناك أخي.

ـ دمّره!

ـ لقد سبق وقلتُ لك أني لا أمتلك القدرة على قتل أي كان. لا أخي ولا غيره من البشر.

ـ الطوفان؟ المحرقة؟ الحروب؟ الظلم؟ البؤس الإنساني...

ـ كان هو. دائماً هو!

ـ إذن أنقض عهدك! أخبره بأن الرهان لم يعد سارياً وبأنك عازم على إحلال النظام في هذه الكارثة الكونية.

ـ ذلك هو قصدي حقاً. لكن ها هي الحال، منذ اللحظة التي استبدت بي فيها مشاعر إنسانية، فزتُ على الحياة، وفي الوقت نفسه خسرت سلطتي التي كانت لدي على مثيلي. فيما قبل، كان يحتاج إلى موافقتي للتصرف. كان تابعاً لي. تذكري أيوب. الآن، أعرف أن ذلك انتهى. القيد الذي كان يربطه بي انكسر إلى الأبد. إنه حر. حر لمواصلة كل الفظائع.

ـ لكن وبعد...

ـ لا شيء بعد. البارحة كنا متواطئين. غداً نصبح عدوين. الأقوى من بين الاثنين هو الذي يفوز. وإني عازم على أن أكون ذلك الفائز.

ـ امتحان للقوة نوعاً ما، عقّبت كلاريسا.

ـ أجل. كل ما هو مطلوب. سوف أقوم بكل ما هو مطلوب لمواجهة تصرفاته السيئة.

ظلت مقيمة على صمتها دقائق معدودة. ومن دون أن تعرف السبب، أخذ قلبها ينبض بسرعة:

ـ هل تعدني، قالت بخجل، هل تعدني بأن هذه ليست إحدى ألاعيبك أيضاً؟ بأنك سوف تفي بعهدك؟

ابتسم موركار ـ الرّب بأسى:

ـ إنك لم تستوعبي كل شيء، مسز غراي: لم يعد لدي خيار. ثم إنك تنسين جزئية أساسية. الأشد أهمية.

ـ ما هي؟

ـ خاتمة رهان أيوب: «وأعاده الرب إلى سيرته الأولى وضاعف

كل أملاكه». الضعف، مسز غراي. سوف أخصص وقتي لهذه المهمة. سوف أعيد ضعف ما اختلسه أخي. سيتطلب ذلك وقتاً. والمعركة غير محسومة سلفاً: لكن لدي الأبدية كلها. ثم إني شرعت في ذلك.

برقت كلاريسا عينيها.

ـ أجل. صديقك، المفتش ستيوارت. كان ضحية حادثة سير.

ـ ماذا؟

ـ إني أعاجل بإخبارك أن لا يد لأخي هذه المرة في ذلك. اعلمي فحسب أنه في هذه الساعة التي نتكلم فيها، فإن المفتش يستعيد وعيه. وفي غضون بضعة أيام سوف يسترجع عافيته.

ـ أنا...

قاطعها جرس الهاتف.

ـ أجيبي، قال لها.

قامت. إنه ماكلين. لوى وجع بطنها.

ـ نعم، تمتمت. كل شيء على ما يرام... أجل. عطب في الخط. عاصفة قوية...

صمت، ثم:

ـ أجل، إنه إلى جانبي... إني على علم... سوف أشرح لك فيما بعد.

مرة أخرى عم الصمت، وبغتة، أشرق وجهها. أصاخت السمع دون أن تنطق بكلمة، وهي ترتعد.

حينما أغلقت السماعة، كل شموس الدنيا كانت تغمر وجهها.

صرخت قاصدة موركار ـ الرب:

ـ جانيت! جانيت صحت من الغيبوبة! حية! لم يصبها أذى! وكأنها نبهت من نوم عظيم! لقد نجت!

سكتت، إذ أدركت فجأة بأنها كانت تتكلم في الفراغ.

لم يعد موركار ـ الرب موجوداً هناك...

هذا الكتاب

جالسة في فراشها، عنقها مسند إلى وسادتين رخوتين، أعادت قراءة سونيتة جون كيتس بالجهر. الجمال في طبيعته الخالصة. آه! لو أمكنها الاستسلام لشغفها الآخر: الشعر. لكن هل كان قراؤها سيتبعونها؟ الكتابة باسم مستعار؟ لقد فكرت في ذلك: ماري ويستماكوت. كانت الفكرة مغرية. ألم يلجأ العديد من الكتاب لهذه الحيلة؟ لكن كلاريسا كانت تعتبر أن ذلك مفرط في السهولة. الفوز بمباغتة العدو من خلف؟ أفّ، لن يرضيها ذلك في شيء.

ستكون شاعرة في حياة أخرى.


ISBN 978-9933350420

